الجُمهوريَّة الجَزائريَّة الدِّيمُقراطيَّة الشَّعبيَّة

رئاسة الجمهوريّة

المجلس الأعلى للغة العربية

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

الذّكاء الاصطناعيّ

الملتقى الوطنيّ حول:

القرآن الكريم واللغة العربيّة

الجزء الأوّل

منشورات المجلس

2020

الملتقى الوطني حول: القرآن الكريم واللّغة العربيّة ج1



دور الألعاب اللغويّة في تعليم اللغات من الحضانة إلى الجامعة

منشورات المجلس 2019



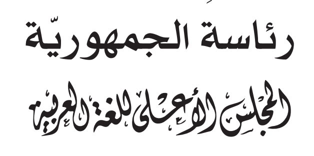


الذّكاء الاصطناعيّ

الجُمْهُورِيَّة الجَزَائرِيَّة الدِّيمُقْرَاطِيَّة الشَّعْبِيَّة



رئاسة الجمهوريّة





وزارة الشؤون الدينيّة والأوقاف

الملتقى الوطنيّ حول:

القرآن الكريم واللغة العربيّة

الجزء الأوّل

كـتاب: القرآن الكريم واللّغة العربيّة
(الجزء الأوّل)

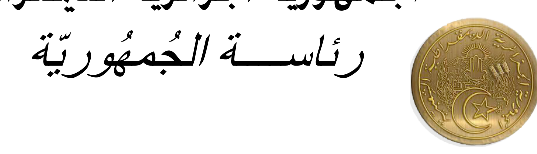
- إعداد : المجلس الأعلى للّغة العربيّة
- قياس الصفحة: 23/15.5
- عدد الصفحات: 328

الإيداع القانوني: السّداسيّ الأوّل 2020
ردمك:

المجلس الأعلى للّغة العربيّة
العنوان: 52، شارع فرانكلين روزفلت
ص.ب 575، ديدوش مراد، الجزائر.
الهاتف: 16/17 07 23 21 213+
النّاسوخ: 07 07 23 21 213+
الموقع الإلكتروني: www.hcla.dz




الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة



وزارة الشّؤون الدّينيّة **المجَلِس الأَعْلَى للّغة العربيّة**

برنامج الملتقى الوطنيّ



القرآن واللغة العربيّة

المكتبة الوطنيّة 2019

الرّئيسان الشّرفيّان للملتقى:

السّيد وزير الشّؤون الدّينيّة والأوقاف الأستاذ الدّكتور: **يوسف بلمهدي** ؛

السّيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة **البروفيسور**: **صالح بلعيد**.

اللجنة العلميّة

رئيسة اللّجنة العلميّة: دنيا باقل

منسّقة الملتقى: أ . روابح أمال

- ✓ أ . عبد الرّزاق بلغيث، إطار بالمجلس الأعلى للّغة العربيّة؛
- ✓ أ . محند أو إدير مشنان، إطار بوزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف؛
- ✓ أ . محمد زغداني، إطار بوزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف؛
- ✓ أ . عيسى **ميقاري**، إطار بوزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف؛
- ✓ أ . خير الدين عوير، إطار بوزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف؛
- ✓ أ . مولود بغور، أستاذ بجامعة الجزائر2 ؛
- ✓ أ . حواس بري، أستاذ بجامعة الجزائر2 ؛

الجلسة الافتتاحيّة

استقبال المدعويّن والمحاضرين

الافتتاحيّة

- تلاوة لآيات قرآنيّة
- النّشيد الوطنيّ
- كلمة رئيسّة اللجنة العلميّة؛
- كلمة السّيد رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة؛
- كلمة افتتاحيّة للسيّد وزير الشّؤون الدّينيّة والأوقاف؛
- تكريمات.

استراحـة لمدّة 15 دقيقة

الجلسات العلميّة

الجلسة العلميّة الأولى، الرّئيس: حسن بهلول

المحاضر	عنوان المداخلة	المؤسّسة
د. التّركي باهي أ. وهيبة سنوسي	دور المخابر العلميّة والهيآت الجامعيّة في خدمة القرآن الكريم واللغة العربيّة.	ج. تبسة
د. براهمي فطيمة	استخدام التّقانات الحديثة في القرآن الكريم واللّغة العربيّة وأثرها على المتلقيّ	ج. سيدي بلعباس
د. حياة بناجي	بلاغة أسلوب الحوار في القرآن الكريم	م. ب. في ل. الأمازيغيّة، بجية
د. نور الدّين قُفّي	الاستشهاد بالقرآن الكريم وأثره في تجريد قواعد النّحو العربيّ	ج. الجزائر2.
د. نورالدين مذكور	أهميّة الشّعر الجاهليّ في فهم القرآن الكريم - مسائل نافع بن الأزرق أنموذجا-	ج. سطيف2
د. يوسف وسطاني	أهمّيّة الشّعر الجاهليّ في فهم القرآن الكريم	ج. سطيف2

الجلسة العلميّة الثّانيّة، الرّئيس: عبد الرزاق بلغيث		
المحاضر	عنوان المداخلة	المؤسّسة
د. أحمد دواح	جُهود علماء الجزائر في خدمة اللّغة العربيّة	ج. مُغنيّة
د. أحمد مرغم	أصول دلائل الإعجاز في كتاب سيبويه - باب التّقديم والتّأخير أنموذجا-	ج. سطيف
د. العربي بوعمران بوعلام	دور تقنيّة المعلومات في خدمة القرآن الكريم واللغة العربيّة	ج. خميس مليانة
د. محمد يزيد سالم	القرآنُ الكريم وأثره في نشأة النَّحو العربي وتطوُّره	ج. باتنة
د. مختاريّة بن قبليّة	أسماء المواقع في القرآن الكريم: مقاربة دلاليّة طوبونيميّة.	ج. مستغانم
أ.عبد اللّه روينة د. حسنيّة عزاز	شخصيّات جزائريّة مغورة	إطار بالمجلس الأعلى للغة العربيّة

الجلسة العلميّة الثّالثة، الرّئيس: أ. شعبان جبري		
المحاضر	عنوان المداخلة	المؤسّسة
د. دنيا باقل أ. أحمد شهات	تعدّد التّوجيه النّحوي وأثره في فهم الخطاب القصصيّ القرآنيّ، قصّة يوسف عليه السّلام أنموذجا.	ج. تيارت
د. عمر بن عيشوش	مركز البحث في العلوم الإسلاميّة والحضارة بالأغواط ودوره في خدمة القرآن الكريم واللغة العربيّة	وح. الاغواط.
د. منير زيباني	جُهُوْدُ عُلَمَاءِ اَلْجَزَائِرِ في الدّرس الشّفوي لتفسير القرآن العظيم _خصائص ونماذج_	ج. الجزائر
د. سليمة عياض د. سعاد جخراب	منهج الإمام الثّعالبي في تفسيره (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) دراسة وصفيّة	وحدة البحث، ورقلة.
د. ف. الزهراء	رسم القرآن الكريم وضبطه أفق من آفاق الكتابة	ج. وهران 1

حبيب زحماني	العربيّة	
د. زينب لوت	بلاغة القرآن الكريم ومشهديّة اللغة البصريّة من خلال جهود الدّكتور (حبيب مونسي) في مؤلّفه (المشهد السّردي في القرآن الكريم) قراءة في قصّة سيّدنا يوسف.	المدرسة العليا للأساتذة مستغانم

الجلسة العلميّة الرّابعة، الرّئيسّة: زوليخة خراز		
المحاضر	**عنوان المداخلة**	**المؤسّسة**
د. سليمة يحياوي أ. محمد مساعدي	التّعرّف الآلي على خطوط المصاحف المكتوبة بخطّ النّسخ حرف الميم المعزولة أنموذجا	*ج. تلمسان*
د. شميسة خلوي	شواهد الشّعر الجاهليّ في تفسير الجواهر الحسّان لعبد الرّحمن الثّعالبيّ	ج. الجزائر2
د. عبد الرحمن بلحنيش	موقف المفسّرين من الشّعر الجاهليّ وحاجتهم إليه لفهم القرآن الكريم	ج. تيبازة
د. عبد العالي موساوي	القوالب الصّرفيّة (الصّيغ) وأهمّيتها في ضبط دلالة اللّفظ القرآنيّ	المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة.
د. فاطنة نهاري	الدّلالة اللغويّة ومكانتها في تفسير النصّ القرآنيّ	ج. سيدي بلعباس
أد. مباركة خمقاني د. نور الدين منّاع	ألفاظ الزّمان المحدّد في القرآن الكريم	ج. ورقلة

الورشات العلميّة

الورشة العلميّة الأولى

الرّئيسة: مليكة حمدان **المقرّرة : سلمى ينينة**

الأعضـــــاء
أ. فريدة حايد + أ. فضيلة جوهري + أ. لخضر روبحي + د. مسعود فشيت + (أ. مباركة رحماني والضاويّة لسود) أ. محمّد مباركي + أ. نعيمة بوزيدي + د. نعمان بوطهرة + أ. وسيلة داودي + د. فضيلة بلعالم + د. محمد ابن شماني + د. مختار بزاويّة

الورشة العلميّة الثّانيّة

الرّئيسة: بهيّة رحاب **المقرّرة: أمال روابح**

الأعضـــــاء
أ. عبد الرحيم مزاري + أ. عبد القادر بن فطة + أ. عبد القادر عيدي + أ. مختاريّة عوّاد + أ. فاطمة زهراء قوادري عيشوش + أ. فاطمة الزهرة المالحي + د. عبد الخالق قصباوى + د. عمّار عثماني + د. جميلة غريّب

الورشة العلميّة الثّالثة

الرّئيسة: حنيسة كاسحي **المقرّرة: راشدة بوربابة**

الأعضـــــاء
أ. أحمادو الدباغي + أ. أمينة حماني + أ. عبد الكريم بصديق + أ. ناعوس بن يحيى + أ. حبيب بوشيبة + أ. حوريّة درني + أ. ربيحة عداد + أ. رقيّة رقاز + أ. سهام سراوي + د. نعيمة عيوش + (أ. سفيان مطروش وأ. عبد الكريم رابح) + أ. سليمان بوراس + أ. نبيل صابري + د. سفيان شايدة + د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة.

الورشة العلميّة الرّابعة 09:00-11:00سا

الرّئيسة: سهام عبد الحفيظ، **المقرّر : عبد العزيز كراغل**

الأعضـــــاء
(أ. صالح أبو العلا وأ. يحيى بن يحيى) + أ. صفيّة مطهري + (أ. عائشة بوغاري وأ. نسيمة بن سليمان) + أ. عبد الرحمن عبد الحي + أ. موسى حبيب + أ. الزهرة عدار + أ. عدة قادة + (أ. عمر روينة وأ. ناديّة بونفقة) + أ. فتيحة عبديش + أ. نورة مرنيز + أ. ميلود قرفة + أ.هاجر بوزناد.

الورشة العلميّة الخامسة

الرّئيسة: ليندة بوشيحة **المقرّرة: أسامة صوالحي**

الأعضـــــاء
أ. أحمد أمين بوعلام الله + أ. الجيلالي المغوفل + أ. أوهيب خدومة + أ. طارق عاشوري أ.إيمان بوعافيّة + أ. بسمة بوعافيّة + أ. مختار بن قويدر + أ. حمزة مسعد + (أ. د. ادريس بن خويا + د. فاطمة برماتي) + (أ. عايدة اسعادي وأ. صبرينة بوطبة) + د. الحاج اسباغو + د. عبد القادر بوزياني

الجلسة الختاميّة

- كلمة رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة: البروفيسور صالح بلعيد؛
- كلمة وزير الشّؤون الدّينيّة والأوقاف أ.د. يوسف بلمهدي
- قراءة التّوصيات
- توزيع الشّهادات

ديباجة الملتقى

كان القرآن الكريم وما يزال منهلا يطلبه العلماء والباحثون على اختلاف تخصّصاتهم سواء تعلقت بعلوم الشّريعة الإسلاميّة أو علوم الوسيلة، أو العلوم البحتة، وفي هذه الأخيرة يجدون ملامح واشارات يهديهم البحث إلى الوصول إليها، والوقوف على حقائقها، أو تكون إشارات القرآن الكريم منطلقا لأبحاثهم واهتماماتهم العلميّة.

ومادامت اللّغة العربيّة هي لغة القرآن الكريم، وبها نزل الوحي على الرّسول الكريم محمد بن عبد الله وبالنّظر إلى تاريخها يجدها الباحث المتخصّص لغة من اللّغات السّاميّة الأخرى، فقد لا تتعدّى مضامينها المجتمع العربيّ الّذي عاش في الجزير العربيّة وما جاورها. لكنّ القرآن الكريم جعل منها لغة حيّة؛ وارتبطت بالدّين الإسلاميّ؛ إذ كانت وعاء لدستوره، فقد اختارها الله لغة لكتابه، لما اجتمع لها من المؤهّلات والخصائص، فكانت قمينة بهذا الفضل. وتزداد مكانتها وقيمتها بالأبحاث العلميّة المتخصّصة يوما بعد يوم ليس في نظر الباحثين العرب والمسلمين وحسب؛ بل في نظر العلماء والباحثين الغربيّين، وجميعهم يقرّون بأنّ العربيّة لغة تضرب بجذورها في الأعماق، وستستمر في آفاق المستقبل...

وخدمة للقرآن الكريم واللغة العربيّة، تنظّم وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف والمجلس الأعلى للّغة العربيّة ملتقى وطنيًّا بعنوان (القرآن الكريم واللّغة العربيّة)، وهو ملتقى يهدف إلى دراسة العلاقة الوطيدة بين اللغة العربيّة والقرآن الكريم، سواء في الإطار التّاريخي المبحوث في كتب المتقدّمين من علماء التّفسير واللّغة والبلاغة والإعجاز، أمْ في تعميق البحث هذا برؤى جديدة وأبحاث علميّة معاصرة، تثري ديمومة اتّساع العربيّة للإعجاز البياني المبثوث في القرآن الكريم من جهة الدّلالة أو الفصاحة، أو في الإعجاز العلميّ الّذي يتطلّب معرفة متخصّصة بالعربيّة، إذ بها يستقيم التّفسير العلميّ ويتّضح إعجازه، وبفهم سليم للعربيّة وبلغتها ليهتدي المفسّر إلى دقائق لغة القرآن وصفائها، وفي السّياق ذاته يسعى الملتقى إلى

تعزيز الإعجاز المتّصل بالشّريعة الإسلاميّة السّـمحة فـي نصوصـها القرآنيّـة ودلالاتها المقاصديّة.

يتطلّع الملتقى في بعض محاوره إلى ترجمات القـرآن الكـريم إلـى اللّغـات الأخرى، وأثر معرفة العربيّة وقيمتها في ذلك، إذ كلّما كان المترجم على إطـلاع دقيق بلغة القرآن وبالدّين الإسلاميّ كانت ترجمته قريبة من روح النّص القرآنـيّ ومقاصده ومعانيه، أو العكس صحيح.

محاور الملتقى:

المحور الأوّل: اللّسان العربيّ قبل نزول القرآن الكريم:

1. خصائص العربيّة قبل نزول القرآن الكريم.
2. الشّعر ديوان العرب في:
   - الحياة الاجتماعية؛
   - الحياة السّياسيّة؛
   - الحياة الدّينيّة؛
   - الحياة الثّقافيّة.

المحور الثّاني: علوم العربيّة والدّراسات القرآنيّة:

1. النّحو العربيّ في الدّراسات القرآنيّة.
2. البلاغة العربيّة ونموها في الدّراسات القرآنيّة.
3. الشّعر الجاهلي وأهميّته في فهم القرآن الكريم.
4. دلالات الألفاظ وتفسير النّصوص.

المحور الثّالث: عناية الجزائريّين بالقرآن الكريم واللغة العربيّة:

1. جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم وعلومه.
2. نماذج من هذه الجهود قديما وحديثا.
3. جهود علماء الجزائر في خدمة اللغة العربيّة.
4. نماذج من هذه الجهود قديما وحديثا.

المحور الرّابع: المؤسّسات العلميّة والثّقافية وخدمة القرآن الكريم واللّغة العربيّة:

1. الزوّايا والمدارس القرآنيّة.
2. الجامعات ومؤسّسات التّعليم العاليّ.
3. المجامع العلميّة.
4. مخابر البحث والدّراسات الميدانيّة.

المحور الخامس: آفاق اللّغة العربيّة العلمّية والحضاريّة في ظلّ القرآن الكريم:

1. القرآن الكريم وحياة اللّغة العربيّة.
2. آليات تعزيز التّفاعل بين القرآن الكريم واللّغة العربيّة.
3. التّفسير والتّأويل في الدّراسات الحديثة.
4. التّكنولوجيات الحديثة ودورها في خدمة القرآن الكريم واللغة العربيّة.

المستفيدون:

-طلبة الدّراسات العليّا في اللّغة العربيّة واللّسانيات والشّريعة والحقوق.

-الأئمّة وطلبة معاهد تكوين الإطارات الدّينيّة.

- الباحثون المتخصّصون ورجال الإعلام ...

فهرس الجزء الأوّل

كلمة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

القرآن واللغة العربيّة♥

أ. د. صالح بلعيد،
رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة.

ــ **ديباجة:** بسم الله الــرحمن الــرحيم، ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ طه. ليس سهلاً أن يكون الكــلامُ عن القرآن بلغة القرآن، وسيعجز البيان عن التّبيان، فاعذرونا يا إخوان. وجهــان متداخلان متشابكان بالبُرهان، ينطلقان من تشابك العِرفان ولهما صلات وشيجة في البيان، من تفسير وفقه وبلاغة سحبان، وإلى نحو وصوت ومعجم البســتان. هــي شراكة نريد تجسيدَها، وعلى بركة الكتاب ننسج خيوطَها، وتتواصل أعمالُهــا فــي نواتجها، وتكون وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف لنا رداً، ونكون لها عَضُداً، ونشُدّ بعضنا في لاحق من الزّمان رفداً. نتشارك في رفع حسن البيان، في آي القــرآن، فمن ملتقى القرآن والعربيّة، إلى شراكات واسعة بينيّة، والطّريق تصنعه الأقدام، يا ذوي الأفهام.

ــ **القرآن والعربيّة صِنوان لا يفترقان:** كما يُقال "لولا القرآن لما كانت العربيّة" أعلى الله قيمة العربيّة لما أنزل بها كلمه عهداً، وما لا يتمّ به الواجب فهو الواجــب مداً، وتنتشر العربيّة جمعاً وفرداً، لأنّها أحيطت بإعجاز أحكمهــا عــزاً، وبلســان عربيّ ولم تكن ضداً، وأنّ الإعراب أزّها أزاً قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّــي لنفذ البحرُ عداً، وهي لا تجارى وفداً، ونشأت فيه العلــوم ورِداً والقــرآن حامــل أحكامها عهداً، وغرامي بها أكثر ولَداً، يجلجل كالرّعد فــي صــولة إدّاً، وقوالــب المعاني أعلَت بها هداً، هي لسان يفوق فيها الغناء ولَداً، والعربيّة لســان الضّــمير

عبداً، في أحد عشر موقعاً عداً، وعلى مدار الأحكام وُداً، حبله المتين وصراطه المستقيم لُداً، يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه رِكزاً.

ــ **عظمة اللغة العربيّة بعظمة القرآن:** القرآن أعجوبة، واللغة العربيّة تابعة للأعجوبة فبالقرآن عانقت ضُحاها، وكان لها السّبقُ ومن ثمّ تلاها، وبأساليبه جلاّها، وفتح ما كان يغشاها وأصبحت عظيمةً ومن ثمّ بناها، وأغدق عليها وطحّاها، واختارها لكلمه وما اختار سواها، وقوّاها بما تحمل من تقواها، فزكّت نفسها وزكّاها، وأخرجت ما كان دسّاها، رغم عوادي الزمان بطغواها وكما سارت جسراً لمن أشقاها، وبآياته وشساعتها كان سقياها، وجاء قوم حاولوا أن يَعْقروها، وما أفلحوا فهي ليست مثل سواها، وكان نجاحَها وعقباها.

ــ **القرآن والنّحو**: ما الفائدة من إعراب القرآن!؟ لنبيّن بما يقطع حبال الشّك، أنّ من معاني القرآن ما لا يتبيّن إلاّ من خلال النّظر إليه من زاوية الإعراب، ألم يقل الشّافعي "ولا أُسأل عن مسألة من مسائل الفقه إلاّ أجبتُ عنها من قواعد النّحو[1] " وقال الجرمي: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي النّاسَ في الفقه من كتاب سيبويه". وهكذا نرى أنّ التّبحّر في علوم العربيّة والتّمكّن منها يعزّز مكانتها في الأمور، وكذا أنّ النّحو ليس هو بشكل تركيبيّ فقط، بل له وسائط ورباطات وشيجة مع المعنى، وله دور فعّال في إنتاج الدّلالات، وتحصيل المفاهيم، وتوجيه المقاصد. ولا بدّ من تحصيل النّحو كي يقيَ المعنى الذي يقع عليه المبنى:

وحصِّلِ النّحوَ إنّ النّحوَ صاحبُه معظّمٌ بين أهلِ الفضلِ والأدب
من لم يكن عالماً بالنّحو كان إذا حلّ المجالسَ معدوداً من الخشب
تُبدي فصاحةَ سحبان وتنثرُها بمنطقٍ رائقٍ أحلى من الضّرَب

وقد بيّن الإمام الشّاطبيّ(ت720هـ) أنّ القرآن الكريم لا يُفهَم إلاّ بمنظار اللّغة العربيّة وسنن العرب في كلاهما؛ إذْ يرى بأنّ "القرآن الكريم ليس فيه من طرائق كلام العجم شيء، وكذلك السّنّة وأنّ القرآن عربيّ، والسنّة عربيّة، لا بمعنى أنّ القرآن يشتمل على ألفاظ أعجميّة في الأصل أو لا يشتمل؛ لأنّ هذا من علم النّحو واللّغة، بل بمعنى أنّه في ألفاظه وأساليبه عربيّ، بحيث إذا حُقِّقَ هذا التّحقيق سُلِكَ

في الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها". ويقول في موضع آخر، وهو يُخطّئ تفسير إحدى الآيات، لأنّ تفسيرها خرج عن سنّة العرب في كلامها: "لأنّ ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب، والقرآن إنّما نزل بلسانها، وعلى معهودها". ولذلك فإنّ فهم اللّغة، ومعرفة قواعدها، واحترام ما تتطلّبه عند التّفسير ضروريٌّ ولا مناصّ عنه ولا مقيل.

ـ **العربيّة والقرآن أسرار وأثر**: نزل القرآنُ واللسان العربيّ صقّلته فصاحة الأعراب، وقد أعطوها ما تستحقّه من الإعراب، عربيّة تصوغ تجارب الحياة في مثَل وحكمة، وتفسّرها في سجعة وتنثرها في خطبة، وتنظمها في قصيدة... إنّها لغة تجري مجاريها في حياة الأمّة، وتخترع المعنى بالهمّة، وتنتقي اللفظ في القمّة، وترسم الصّورة والأسلوب بالرّفعة. ولا شكّ أنّ الدراسات القرآنيّة قاصرة، ولم تستجب لما يتطلّبه القرآن من تبصرة، رغم اجتهادات بعض الفذلكة، ومن ذلك ما حكاه الأصمعي "من أنّه سمع جاريّة صغيرةَ السّن تستغفر اللهَ من ذنوبها كلّها، فسألها ممّ تستغفرين، ولم يجرِ عليكِ قلمٌ؟ فأجابتْه قائلةً:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كلِّه قتلتُ إنساناً بغير حلّه

مثْلُ غزالٍ ناعمٍ في دلّه انتصفَ الليلُ ولم أصِلْه

فقال لها: قاتلك اللهُ ما أفصحَك! فأجابته قائلة: أوَ تعُد هذه فصاحةً من بعد قوله تعالى ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ القصص. فقد جمعت بين أمريْن ونهييْن وخبريْن وبشارتيْن. فذهل الأصمعي وما أدراك ما الأصمعي. واستذكر بعد ذلك ما كان يتواصى به المشركون بالابتعاد عن سماع القرآن مخافةَ تأثيره فيهم. معجزة القرآن بأسرار العربيّة واضحة دون برهان، سماحةُ اللفظ، رقّةُ العبارة انسجامُ الوصف، راحةُ الفواصل، تلاحقُ الأفكار. هي معجزةٌ وأيّة معجزة من نظم القرآن الجامع بين المعنى والعقل، معجزات النّبي عقليّة؛ لأنّ شريعةَ الإسلام باقيةٌ غير مُعرّضة للنّسخ، وكانت العقلياتُ باقيّةً غير مُتبدلة.

ــ **القرآنُ والعربيّةُ نسجٌ متكاملٌ:** إنّ القرآن خدم العربيّةَ، بأن شرّفها وقدّسها، كما قال محمد الغزالي "إنّ الإسلام للعروبة وليٌّ نعمتها وصانعُ حياتها" إنّها احتياجٌ منطقيّ لا احتياج نقصٍ أو افتقار؛ فإنّما القرآنُ أحكامٌ، وفهمُ معانيها وضبطها متعلّق بفهم ما يحملها من ألفاظ وعبارات. ومن هنا فإنّ الأوائل عبّروا بالعموم على أنّ علم العربيّة علمُ وسيلةٍ لا غاية يُتوسّل بها إلى فهم كتاب الله تعالى، وما ثبت من كلام الرّسول ﷺ، فمعرفة مواضع الإعراب مَعِين على إبانة المعاني وتجليّة مقاصدها. إنّ القرآن العظيم هو "عماد لغة العرب الأسمى، تدين له اللّغة في بقائها وسلامتها وتستمدُّ علومها منه على تنوّعها وكثرتها". إنّ القرآن العظيم هو من حفظ للعربيّة خلودها، ولا يزال إلى اليوم صاحبَ فضل؛ يحفظ ألفاظها ومعانيها، كيف لا وهو ينقلها معه إلى كلّ بيت يدخله وكلّ زمان يحلّ فيه؛ فالأعجميّ لا يكمُلُ إيمانه إلاّ بفهم الضّروريّ من الدّين، والعربيّة ظاهرة في ذلك، فلا تستقيم صلاةٌ دون فاتحة، ولا حجٌّ دون تلبيّة، بل لا يدخل الإسلامَ إلاّ بألفاظ اللّسان العربيّ تلفظها شفتاه، ويوقِن بها قلبُه. وقال ابن باديس: "لولا العرب ما انتشر الإسلام، ولولا العربيّة ما فُهِمَ القرآن، ولولا هذان لانقطعت سلسلة المدنيّة؛ فالعرب والعربيّة شُكْرُهما فرضٌ على الإنسانيّة[2]". تلكم كلمات صادقات، ومن هنا، لا يبقى لنا شكٌّ في مدى ارتباط هذه اللّغة بالقرآن العظيم، ارتباطٍ إلى درجة التّماهي أو الذّوبان في أصل واحد، وهذا ما أسبغ العربيّة حرمةً وقداسةً ولقبًا تشرّفتْ به لغة القرآن. لغة حملت عجباً، ويا له من كلم تنوء عن حمله الجبال، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ الحشر. لغة بما لها من نظائر بلا إنكار،

وهي في جملة القرآن ثابتة دون إدبار، وصادرة بانتظام وإكبار، فتجد في القرآن العجب العُجّاب، هو كلام المدبّر الوهّاب، لا تنتهي عجائبه؛ ولا تنفد كلماته. ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ الكهف.

ــ **للاعتبار:** أيّها الحضور، نصّت الأبحاثُ والدّراساتُ، وبما أسقطناها من الإحصائيات، على دفعات كانت لها الصّدارات؛ بأنّ أصحابها في تلك الدّفعات،

حصّلوا محفوظاً في القرآنيات، ولهم نصيب في الرّياضيات، وتمكّنوا في تعلـيمهم لغة المحاورات. أوَ ليس هذا مدعاة للاعتبار؛ بأن نعيد لمنظومتنا التّربويـة تلـك الأنظار، بمتعلّقات العصر من أفكار، لنعلوَ من هذا المستوى المنهار. إصلاحاتٌ ما بلغت مداها في الإبصار، لضعف مبنيّ على سوء الإقدار، أوَ ليس حان وقـت ردّ الاعتبار. لمنظومة تدريسيّة تُعلي المقام، وتزيل عنهـا متعلّقـات الأوهـام، وبمـا ألبسوها من سقط الأسقام، وخرافات تدريسها باللهجات، بحجّة هي لغـة الأمّ بـلا سقطات، ويريدون إلهاءنا بالفذلكات التي عفا عليها زمن الأربعينيات. أوَ ليس حان وقتُ ردّ الاعتبار، يا من تصنعون القرار.

ــ **الخاتمة:** أيّها الجمع الكبير، يا أهل العلم والفضل، لقد جمعناكم في هـذا اللقـاء الجامع للأصول، لقاء نرومه أن يكون كشفاً للتكامل والتّفاعل بما تنتجونه مـن أنـوار، وما تقترحونه من أفكار، وما تربطونه من صلات بين علوم العربيّة الأمّات، وأنّ كـلّ العلوم لها صلة بالقرآن، بل ومن العلوم التي تنطلق من القـرآن، ونـذكر علـمَ الفقـه وأصولَه وعلمَ الحديثِ وفروعَه... ثمّ لا ننسى أثر كلام العرب المتمثّـل فـي الشّـعر الجاهليّ والإسلاميّ، فكثيراً ما يشكل عليهم من الألفاظ القرآنيّة التي درجوهـا ضـمن باب سمّوْه بغريب القرآن، كما أنّ غيرَ العرب ما كانوا ليفهموا عن القرآن مَقصـدا ولا حُكما إلاّ أنْ يفهموه بمنطق العرب في لغتهم، وطرائقهم في الفهم والبيـان. وللتّفسـير اللّغويّ أهمّيّة مَكينة في ديننا الحنيف، فالله تعالى اختار نبيّه عربياً، وأنزل إليـه كتابـه بلسانٍ عربيٍّ مبين، ولا تجوز قراءته تعبُّدًا بغير لغته. كما لا يمكن العدول عنهـا فـي تفسيره لأنّه تُعرَفُ معانيه من خلال معاني لغته. قال أحمد بن فارس: "إنّ علم العربيّـة كالواجب على أهل العلم، لئلا يحيدوا في تأليفهم وفُتياهم عن سنن الاسـتواء، وكـذلك الحاجة إلى علم العربيّة؛ لأنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني". أو بمعنى آخـر، فـإنّ الإعراب يتأتّى بعد الفهم، وهو إبانة عن إبانة.

الإحالات:

♥ــ الكلمة الافتتاحيّة التي ألقاها رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة في الملتقى الوطني حول (القرآن واللغة العربيّة) المكتبة الوطنيّة، بتاريخ: 4–6 نوفمبر 2019م.

[1] ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تح: محمد الأرناؤوط. خرّج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، ط1. دمشق+ بيروت: 1986، دار ابن كثير، ج2، ص 407.

[2] آثار ابن باديس، الجزء 6، ص 361.

كلمة رئيسة اللجنة العلميّة

د. دنيا باقل
جامعة ابن خلدون، تيارت.

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصّمد، والحمد لله الذي يكلّف بالقليل ويجزي بالجزيل، ويعفو عن الذي بالعجز أصيب، والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصّالحات والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد عبده ورسوله الحبيب المقرّب، وبعد:

أحيّيكم بتحيّة أوّلها سلام وسطها رحمة وآخرها بركة، أحيّيكم بتحيّة الإسلام من السّلام وإلى السّلام، فأقول السّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

باسمي: الدكتورة: دنيا باقل رئيسة اللجنة العلميّة للملتقى، وباسم أعضائها الآتيّة أسماؤهم:

سيادة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية أ. د. صالح بلعيد

أ. د. بركاهم العلوي.......المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

د. حياة بناجي....ملحق بالبحث، مركز بحث في اللغة والثّقافة الأمازيغيّة، بجاية.

أ. د. الشريف بوشحدان.... جامعة عنابة

أ. د. يوسف وسطاني...... جامعة سطيف

د. سليمة عياض......... جامعة ورقلة

د. باديس لهويمل......... جامعة بسكرة

أ. د. إكرام تكتك .... جامعة أدرار

د. خيرة مسلم............ جامعة سعيدة.

أقول:

أيّها الحضور الكريم ضيوفا ومشاركين ومحاضرين مع حفظ الألقاب والمقامات وكلّكم مقامات الذين شدّوا الرّحال من كلّ ربوع الوطن إلى ملتقانا هذا: حللتم أهلا ونزلتم سهلا. ها نحن نلقاكم بعد انتظار، وقد انتظرناكم بعد اصطبار، وها نحن ننعم بشملكم بعد عدم اختيار.

هو يوم لا كسائر الأيّام، هو يوم لا كغيره حيث تلوح لغة الضّاد على كلّ الشّرفات.

هو ملتقى لعرس اللغة العربيّة، إذ كان وليد فكـــرة رأت النّـــور بـــين جنبـــات المجلس الأعلى للغة العربيّة وبين وزارة الشّؤون الدّينيّة والأوقاف، وتبلورت أكثر لمّا ربطت بين القرآن الكريم ولغة الضّاد

فجاء موسوما بـــ: **القرآن الكريم واللغة العربيّة** والذي يجمع نخبة مـــن أهـــل الاختصاص في شؤون اللسان العربيّ وشجونه، ودراية بسبل تدبيره حـــول لغـــة الضّاد وعلاقتها بدستور يعلو ولا يعلى عليه القرآن الكريم.

فقد نوّرَ الله بكتابه القلوب، والذي تحدّى به الثّقلين من الإنس والجـــنّ أن يـــأتوا بمثله أو بشيء من مثله، فعجزوا وما استطاعوا، وأنزله في أوجز لفـــظ وأعجـــز أسلوب، فأعيت بلاغته البُلغاء وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته جهابـــذة الفصحاء، فأنعم علينا القادر بالإسلام، وأكرمنا بالقرآن، وشرّفنا بلســـانها العربـــيّ فكان منشاؤها أن ارتبطت به، يقول تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾

وجاء ملتقانا هذا خدمة للقرآن الكريم واللغة العربيّة، إذ نهدف من خلالـــه إلـــى دراسة العلاقة الوطيدة بين طرفين لثنائيّة لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخـــر القرآن الكريم واللغة العربيّة سواء في الإطار التّاريخي والمتمثّـــل فـــي مؤلّفـــات ومصنّفات علماء اللغة والتّفسير والبلاغة والإعجاز، هذه اللغة التي جمعت ألفاظـــا لا تحصر، وأساليب لا تقهر؛ وثانيهما في الإطار التّطبيقيّ الإجرائـــيّ والمتضـــمّن تزويد البحث برؤى جديدة وأبحاث علميّة تنبري تحت مدارسة اللغة العربيّـــة فـــي مختلف المستويّات اللسانية، وفي مقامات متنوّعة، وما يلحق ذلك من أبحاث تثري ديمومة اتّساع العربيّة للإعجاز البيانيّ المبثوث بين دفتي ّالقرآن الكريم من مختلف النّواحي من إعجاز علميّ، ودلالة، ونحو، وبلاغة، وترجمة ....وغيرها

وبين الإطارين الأوّل والثّاني نسعى إلى تعزيز الإعجاز المتّصل بالشّريعة الاسلاميّة في نصوصها القرآنيّة ودلالتها المقاصديةّ، والتي حُفّت بالهيبة، وامتازت بالسّموّ، والتّكامل فيها بين الشّكل والمضمون، فكان بذلك معجزة الله الخالدة.

وتتمثّل محاور الملتقى في:

م1: اللسان العربيّ قبل نزول القرآن الكريم.

م2: علوم العربيّة والدّراسات القرآنية.

م3: عناية الجزائريّين بالقرآن الكريم واللغة العربيّة.

م4: المؤسسات العلمية والثقافيّة وخدمة القرآن الكريم واللغة العربيّة.

م5: آفاق اللغة العربيّة العلميّة والحضاريّة في ظلّ القرآن الكريم.

وقد استقبلنا في هذا المحفل العلميّ 119 مداخلة من مختلف الجامعات الجزائرية، وعدداً من مخابرها، وكذا من المساجد والكتاتيب، وهذا يدلّ على اهتمام الباحث الأكاديميّ في ميدان اللسان العربيّ بقضايا ترقية اللغة العربيّة والسّعيّ إلى ازدهارها، والبحث في علوم القرآن بمختلف تفرّعاته.

وقد اجتهدت اللجنة العلميّة – والمكوّنة من أساتذة متخصّصين ومن مختلف مناطق وطننا شرقا وغربا شمالا وجنوبا وقد راعينا في ذلك توزيع المهام على مختلف مناطق الوطن والتخصص – أن قبلت 90 مداخلة بالنظر إلى ما يثري محاور الملتقى، وللخوض في محاور هذا الأخير خصصنا ...جلسات علنية وورشات بغية تبادل الباحثين الأفكار والتجارب، فإن وُفقتْ–اللجنة العلمية – فلها أجران، وإن لم توفق فلها أجر واحد، فاعضدونا بما ترونه البديل النوعي والخيار الأمثل لخدمة لغة القرآن الكريم وديمومتها بفضل من الله. أوليس هو القائل جلّ في علاه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

أكتفي بما قلته، ولا شكّ أنّ مداخلاتكم ونقاشاتكم ستعمل على إثراء موضوعنا هذا لتميط اللثام عن بعض القضايا الشّائكة متوخّين في ذلك الحذر لإيجاد الحلول الحضاريّة مع اقتراحات لعلاج نقاط الضّعف وتعزيز نقاط الإيجاب للنّهوض بلغتنا ولخدمة ديننا متفادين بذلك اتّباع ملتهم.

ومصداقا لقول سيّد الخلق محمّد ﷺ: من لم يشكرِ النّاس لم يشكرِ الله" نتوجه بالشّكر الجزيل إلى السيّد معالي وزير الشّؤون الدّينية ومعالي رئيس المجلس الأعلى للّغة العربيّة، واللجنة التّنظيمية للملتقى على حرصهم وسعة صدورهم، والشّكر لله أوّلا وأخيرا نحمده ونشكره على عظيم فضله وواسع لطفه وكرمه.

وكما قال شيخنا محمد الصّالح الصديّق: ولأن حبّ هذه اللغة يجمعنا، والأمل في غدها المشرق يهزّ مشاعرنا والشّرف في خدمتها هدفنا"، لكم منا سلام احترام وتقدير ثمّ سلام تمنٍّ بالتّميز والتّألق للمجلس وأهله.

شكرا لكم جميعا دمتم في خدمة الوطن، ولغة الوطن، وهوية الوطن.

أنعم بكم أيّها الأوفياء ودمتم في خدمة اللغة العربيّة الحاملة لرسالة القرآن الكريم، فبكم نفتخر ونفاخر، وبكم تنال لغة القرآن الكريم الصّدارة والجدارة.

صلّى الله وسلّم على صفوته من خلقه، محمّد رسول الله صلّى الله عليه على وآله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا، بلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، وترك النّاس على المحجّة البيضاء الواضحة بنور القرآن الذي لا يخبو، وضياء السّنّة الذي لا يخفت.

والسلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته.

دور المخابر العلمية والهيئات الجامعية
في خدمة القرآن الكريم واللغة العربية.

د. التركي باهي
جامعة تبسة.
أ. وهيبة سنوسي
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين وبعد.

فإن أصدق الحديث كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

لقد إقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن يُخرجهم من الظلمات إلى النور، فأرسل لهم محمدا ﷺ، بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فكان المنَّة الكبرى، والنعمة العظمى، لهذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

وكان ذلك على فترة من الرسل، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[2].

وقد جاء نبينا ﷺ ليختم الرسالات السابقة التي عرفتها البشرية من قبل، فهو تمام البناء، وكمال وحي السماء، ففي صحيح البخاري من حديث أبي

هُريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: **(مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا- وقال البخاري: بيتا- فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)**، فهو تمام النعمة، وكمال الدين والملة، قال الله تعالى ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[3].

وبهذا لم يكن نبينا محمد ﷺ إلا أحد رسل الله تعالى إلى خلقه إجتباه واصطفاه ليكون سيد الأولين والآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾[4]، وقال أيضا: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩﴾[5].

ومن لطائف رحمة الله تبارك وتعالى بخلقه أن أيّد جميع أنبياءه بالآيات التي تصدّقهم في دعواتهم، فقد أرسل موسى عليه الصلاة والسلام بتسع آيات بيّنات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾[6]، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة رضي الله عنهم: المراد بالآيات التسع هي: العصا، واليد، والسنون، والبحر والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع والدم.

وكان عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه، ويخبر بأنباء الغيب، مما يدّخره قومه في بيوتهم، وغيرها من الآيات، قال الله تعالى في إرسال عيسى إلى قومه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٤٩﴾[7].

وكان هذا ديدن كل النبوءات، كلما نادى نبي قومه بالوحي، طالبوه بالآية، فهؤلاء قوم ثمود قالوا لنبيهم صالح عليه السـلام: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾[8].

ومن قبلهم قبيلة عاد، التي عتت عن أمر ربها، وقالـت لرسـولها: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾[9].

والمتأمل في قصص الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يجدهم جميعا قد جاؤوا بالبينات، قـال الله تعـالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[10]، وسواء كانت تلك الآيات مما ابتـدرهم بهـا الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أم من مطالب الأقوام، فإن الحقيقة التاريخية أثبتت التلازم الدائم لوجود الآيات بقصد تصديق النبوءات، وهكذا تكررت المشاهد تتـرا، كلما ظهر نبيّ سأله قومه أن يريهم دلائل الوحي، فلما استنفذت البشرية كل أنـواع الآيات مما صُدِّقت به سابق الرسالات، جاءت النبوة الخاتمة لمحمد ﷺ، وعندئذ لـم يكن من بُدّ ولا من سبيل لأيٍّ من تلك الأنواع التي اندثرت مع أزمانها، لأن الخلف لا يقبل بتوارث القناعات التي بُنيت على مشاهدات السلف، وحتى المائدة المعجـزة التي أكل منها قوم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، لم تعد كافية عند الأكثرية لإثبات الوحي، رغم أن مشاهدها ورائحتها لا تزال ماثلة إلى زمن قريـب، قبـل البعثة المحمدية، فما الذي جعل نبي آخر الزمان يعلو دينه وتقوم حجّته؟ وما هـي الآية التي أُيِّد بها، فظهر الحق وزهق الباطل؟

والإجابة على هذه التساؤلات تقتضي تبيان بعض العناصر.

النبي الأمي: مما لا شك فيه، وهو من المعلوم من التاريخ بالضرورة، أن النبي محمدا ﷺ مكث في قومه قبل أن يأتيه الوحي ردحًا من الزمن، لا يعرف القــراءة ولا الكتابة، وكان يُعرف بالأمي، وكانت أهم صفاته التـــي يُنـــادى بهـــا الصـــدق والأمانة، وهذا محل اتفاق بين أهل السيرة والمؤرخين من غير المسلمين، فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة نادى في قومه بأنه رسول رب العالمين، ثم بـــدأ يُســـمعهم كلاما لم يألفوه منه من قبل، فأصابهم الذهول، وجعلوا ينعتونه بشـــتى الأوصـــاف ليوقفوا انتشار هذا الدين الجديد، الذي سلبهم ســـلطانهم علـــى أبنـــائهم وأزواجهـــم وعبيدهم، وهو في تمدد عموديا وأفقيا في كل يوم، فاتهموه بالكذب، بعـــدما كـــانوا يصدّقونه في كل ما يخبرهم، رغم أنهم لم يعهدوا عليه كذبًا قط، ووصفوه بالجنون والسحر والكهانة وغيرها من الدعاوى التي ظهر بطلانها على لســـان زعمـــائهم، جاء ذلك في كتب السيرة والسنة، فمن ذلك ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله، قال: قد علِمتْ قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره لـــه، قال: وماذا أقول؟! فو الله مافيكم من رجل أعلم الأشـــعار منـــي ولا أعلـــم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هـــذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمـــر أعـــلاه مغـــدق أسفله وإنه ليعلو مـــا يُعلـــى، وإنـــه لـــيحطّم مـــا تحتـــه قـــال: لا يرضـــى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا ســـحر (يـــؤثر يـــأثره عـــن غيـــره)، فنزلـــت: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾[11]، قـــال

الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شـــرط البخـــاري ولـــم يخرجـــه ووافقـــه الذهبي[12].

إن صفة الأمية في حق نبينا محمد ﷺ، تعتبر من اليقينيات الكبرى في عقيدة المسلمين، لأنها قدثبتت بنصوص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[13]، ولما جاء نَفَر من المشركين يساومون النبي ﷺ بتبديل جزء من القرآن الكريم ظانّين أنه من تأليفه وإنشائه، وإذا بالوحي يدمغهم بالحجة، ويُغلق عنهم الباب، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[14]، فالقوم نسوا أو تناسوا أنه كان يمشي بينهم طيلة أربعة عقود، لا يُنشيء نثرا، ولا يعرف شعرًا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[15].

دحض فرية: من الواجب في باب العقائد دحض فرية باطلة يُروّج لها أعداء الإسلام منذ زمن، فقد زعموا زورًا وبهتانًا، وافتروا كذبا بالأحاديث الموضوعة الملفقة، بأن النبي ﷺ، كان يتقن أكثر من سبعين لغة، وأنه كان يعلّم المسلمين الكتابة والقراءة، وهذا مما لم يثبت على الإطلاق، بل إن كل الشواهد القطعية من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة تدل على أنه ﷺ كان لا يعرف شيئا من القراءة والكتابة، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا

تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾[16]، فالنص القرآني يصرّح بما لا يدع مجالا للشك بالنفي القاطع لوجود لأي مستوى تعليمي للنبي ﷺ، فقد كان أُمّيًّا بامتياز، إذ لو كان له أدنى درجات التعلّم، فضلاً عن أعلاها، لكان ذلك طعنًا في الدين، وسببًا لريب المبطلين، وتُثبت الروايات الصحيحة أنه ﷺ، منذ أول وهلة للوحي ضَل جِبْرِيل عليه السلام يأمره بالقراءة ثلاث مرات، وهو يردد: ما أنا بقارئ، وعندئذ علّمه الآيات الأول من القرآن الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾[17].

فهو ﷺ لم يطالع كتابًا، لأنه لم يعرف الحروف، ولا يستطيع التمييز بينها، ويثبت هذا قصة صلح الحديبية كأوضح الأدلة القطعية على ذلك، فقد روت كتب السيرة النبوية نه عندما تم الاتفاق بين المسلمين وقريش على جميع بنود المعاهدة، وعند شروع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بصفته كاتب الجلسة، في تدوين وثيقة الصلح بين الطرفين، فبدأ بإثبات الصفة لكل واحد من الجانبين، فكتب باللفظ الصريح: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فاعترض عليه سهيل بن عمرو بصفته ممثل قريش قائلاً: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فلم يستطع علي رضي الله عنه أن يمحو كلمة رسول الله، وعظُم عليه الأمر، فقال له النبي صلى الكل عليه وسلم: أرنيها، فأخذ علي رضي الله عنه بأصبع النبي ﷺ ووضعه على الكلمة، فمحاها، دون أن يميزها عن غيرها[18]، وهذ من الشواهد الدامغة التي تثبت أُمِيّة نبينا محمدًا ﷺ.

إن إدِّعاء الأعداء بأن النبي ﷺ كان متعلّمًا، لا يستقيم من أي وجــه، وأدلــتهم المقدّمة مردودة على وجــوههم مــن كــل الجهــات رغــم محــاولاهم اليائســة إختلاق الأوجه اللغوية لكلمة الأمي، بجعلها من مشتقات كلمة أم القرى، وغيرهـا من الحيل وأساليب التضليل، وشتى السبل التي سلكوها لحجب الحقيقة العلمية وهــم بذلك يريدون الاستحواذ على عقول المسلمين، ليُلبِسوا عليهم أمر الدين إذ أن بــثّ شبهة من هذا القبيل في أذهان الناشئة، كافية لهتك عُرى الإيمان، فكان لزامًا علــى أهل العلم التصدّي لكل هذه الأباطيل، ودحضها بالحجةوالبرهان، وعندئذ يستقر في القلب الإيمان، بتحقيق الإتباع لهذا النبي الأمي، قــال الله تعــالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[19].

الآيات الحسّية للنبي ﷺ: من المسائل الثابتة في عقيدة المسلمين، أن الله تعالى أيّد النبي ﷺ بآيات حسّية، رآها الناس،وشهدوا على وجودها، فأما المؤمنون فقد إزدادوا إيمَانًا مع إيمانهم، وأما المعاندون والمشركون فلم يكن لهــم مــن ســبيل لإنكارها رغم إصرارهم على الجحود واستمرارهم على الكفر، ومن الواجــب في هذا المقام التأكيد على أن هذه الآيات الحسّية لم تكن هي مناط التصديق لنبــوّة محمد ﷺ، وإن كانت جزءًا من ذلك، فالآية الكبرى التي تكفــي لإثبــات الــوحي هي القرآن الكريم، لأنها لا تفنى ولا تنصرم أبد الدهر، بدليل قوله تعــالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾[20]، وعلى هذا الأساس فإن التطرق لباقي الآيات الحِسّية الأخــرى سيأخذ منحى التأكيد على تعظيم منزلة النبي محمد صلى الله عليــه وســلم بمــا خصه رب العالمين من لدن سائر الأنبياء والمرسلين بالمكرمات التي جعلته يتبــوأ

منزلة المقام المحمود واللـواء المعقـود والحـوض المـورود، فهـو ﷺ سـيد الأولين والآخرين، وصاحب الشفاعة يوم المحشر، وقدأخذ الله تعالى الميثاق علـى كل من سبقه من النبيين أن يؤمنوا به وينصرونه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[21]، وغيرها من الفضائل التي اختص بها نبينا ﷺ من لدن سـائر الأنبياء والمرسلين، وذلك أمر الله تعالى الذي قضى فيه بتفضـيل بعضـهم علـى بعض، قـال الله تعـالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[22].

والتطرق إلى الآيات الحسية من شأنه أن يعطي صورة أكثر وضـوحًا لمكانـة نبينا ﷺ، الذي ختم الله تعالى به الرسالات، ولا عجب، فقد جُمعت له آيات الأولين، ولننظر في هذا الأمر بتدقيق وتحقيق، ونؤكد بأننا لا نورد من الروايات إلا ما صح لكونه يندرج ضمن باب العقائد، والآيات الحِسّـية كثيـرة، ذكـر النـووي فـي مقدمة "شرح صحيح مسلم" أنها تزيد على ألف ومائتين، وسوف نقتصر على بعض منها، للذكر لا الحصر.

الماء يتفجر من بين أصابعه عليه الصلاة والسلام: هذه الآية تضاهي ما حدث لموسى عليه السلام عندما استسقاه قومه، فضرب بعصاه الحجر، فـانفجرت منـه أنهار من الماء، وسقى الناس، ولئن كان هذا من خوارق العادات، رغم تعود الناس مشاهدة الماء يخرج من بين الصخور، إلا أن أعجب العجب أن يرى الناس المـاء ينهمر من بين أصابع نبينا ﷺ، وقد تكرر هذا المنظر أمام الصحابة مرات عديدة.

فمن ذلك شهادة الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما علـى مـا حدث يوم الحديبية، فقال: (عطش الناس يوم الحديبية، والنبي ﷺ بين يديه ركـوة –

إناء من جلد-، فتوضأ، فجهش-يعني: أسرع الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ قالوا ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا) ولما سئل جابر رضي الله عنه عن عددهم في ذلك اليوم، قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة"[23].

وشهد الصحابي الجليل أنس رضي الله عنه بما حصل في الزوراء – وهو مكان قرب السوق في المدينة، حيث قال: "أُتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضّأ القوم، وبيّن رضي الله عنه أنهم كانوا قرابة ثلاثمائة رجل"[24].

ويروي الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما حدث لهم في أحد الأسفار مع النبي ﷺ، فقد كاد الماء أن ينفد ويهلكوا في الصحراء، يحدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن ذلك فيقول: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرٍ، فقلّ الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: (حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله)، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهويؤكل"[25].

وشهادةٌ رابعةٌ يقدّمها ابن عباس رضي الله عنهما، وذلك في قوله: "أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم وليس في العسكر ماء، فأتاه رجل، فقال: يا رسول الله، ليس في العسكر ماء، فقال له: هل عندك شيء؟ قال: نعم، شيء؟ فقال له: فاتني به، فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، فجعل رسول الله ﷺ أصابعه

في فم الإناء وفتح أصابعه، فانفجرت من بين أصابعه عيون، وأمر بلالا فقال: نـــاد في الناس الوضوء المبارك"،[26].

وقد ذكر الإمام السيوطي معاني نبع الماء من بين أصابعه فقـــال فـــي شـــرحه لصحيح مسلم: "قيل معناه أن الماء يخرج من نفس أصابعه وينبـــع مـــن ذواتهـــا، وقيـــل معنـــاه: أن الله كثَّـــر المـــاء فـــي ذاتـــه، فصـــار يفـــور بـــين أصـــابعه لا من ذاته، والأول قول الأكثرين"[27].

تسليم الحجر عليه وحنين الجذع إليه: إذا كانت الجبال والجمادات والعجماوات أنطقها الله تعالى لداوود وسليمان عليهما السلام، فإن الحجر أحب نبينا محمـــدا ﷺ والحيوان اشتكى إليه والشجر أطاعه وحنَّ إليه، وسبّح بين يديه الحصى.

فعـــن جـــابر بـــن ســـمرة رضـــي الله عنـــه قـــال: قـــال رســـول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً يُسلّم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن)،[28]، قال النووي: فيه معجزة له ﷺ، وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات، وهو موافق لقوله تعالى في الحجـــارة: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[29]، وقولـــه تعـــالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾،[30]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شـــجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله)[30].

وعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأعرف حجرا بمكـــة كـــان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن"[31]. وعن علي بن أبي طالب رضـــي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبـــل ولا شـــجر إلا وهـــو يقـــول: الســـلام عليـــك يـــا رســـول الله[32]، قـــال الســـهيلي:

"وهذا التسليم الأظهر فيه أن يكون حقيقة، وأن يكون الله أنطقه إنطاقاً كما خلق الحنين في الجذع".

إنشقاق القمر: مما لا ريب فيه أن الله تعالى أيد نبيه محمدا بآية انشقاق القمر، حتى رأى الصحابة جبل حراء بينهما، وكان وقوع هذه المعجزة قبل الهجرة النبوية عندما طلب منه كفار مكة آية تدل على صدق دعوته، ففي الحديث: (أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقّين حتى رأوا حراء بينهما) [33]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا)[34]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لقد رأيت جبل حراء من بين فلقتي القمر[35].

وقد أثبت القرآن الكريم هذه الآية في بداية السورة التي سماها بالقمر، قال الله تعال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾[36]، يقول الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي الأستاذ بجامعة الأزهر رحمه الله تعالى: من الأمور المتفق عليها أن انشقاق القمر وقع في عهد رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام، وأنه كان إحدى الآيات، وقد تحدثَت عن ذلك كتب السنة النبوية الصحيحة[37].

إخباره عليه الصلاة والسلام بأمور غيبية: إذا كان عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قد أيّده الله تعالى بآية إخبار الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم، فإن نبينا ﷺ قد أكرمه رب العالمين بمثل ذلك من الآيات التي شهد واقع الناس على حدوثها، مثل ما أخبر به النبي ﷺ، بدقة متناهية، في كثير من الأحداث، مما ليس فيه من سبيل إلا الوحي الإلاهي، ومنها ما أخبر به عليه الصلاة والسلام من غيبيات جاءت مثل فلق الصبح، من مثل ما ذكره عندما كذّبته قريش ليلة الإسراء والمعراج،

بخصوص قدوم القافلة التي مر بها، وكذا بيان أوصاف المسجد الأقصى عندما طلبوا منه ذلك، وغيرها من المشاهد التي تحققت من خلال إخبار الوحي[38].

الآية العظمى: مهما ذكرنا من أنواع الآيات التي أيّد الله تعالى بها نبيه محمدا ﷺ، إلا أن الحقيقة الثابتة بإجماع السلف والخلف، تؤكد بأن أعظم آية تثبت صدق النبي ﷺ هي القرآن الكريم، إذ أن باقي الآيات التي ذكرها العلماء، قد اندرست وطواها الزمان، ودخلت في طَي النسيان، رغم تدوينها ممن شاهدوها وعاصروها، ولقد كانت لذلك الزمان مصدرا إضافيًّا لزيادة الإيمان وترسيخه، وكان هذا خاصًّا بالصحابة رضوان الله تعالى عليهم، الذين أكرمهم الله تعالى برؤية من هو أفضل من تلك الآيات الحِسّية، وهو النبي محمد ﷺ، فكانت الآيات تترا أمامهم ليتبوّأوا منزلة خير القرون، وقد كانوا أحق بها وأهلها، فلما انقضى زمانهم، دخلت تلك الآيات في ذاكرة التاريخ، وأصبحت روايات تتلى مثل آيات السابقين من المرسلين، ولمّا كان الإسلام دين البشرية جمعاء إلى يوم الدين، فإن من حق الأجيال المتلاحقة أن ترى بأعينها ما يثبت وجود الوحي، ويصدّق نبي الإسلام في ما أخبر به عن رب العالمين، ولأجل هذا جعل الله تعالى القرآن الكريم آية التصديق لنبيه محمد ﷺ، على مَمَرّ العصور والدهور، وهي الآية التي لم ترتبط بحياته، ولا تزول بوفاته عليه الصلاة والسلام، قال ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[39].

إن القرآن الكريم هو حجة الله على العالمين، وآيته الظاهرة إلى يوم الدين، إنه الكتاب الذي غيّر الله تعالى به مجرى التاريخ، ولم يكن للإنس والجن مجتمعين

أن يأتوا بمثله، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[40].

ما أغبى المشركين الذين كانوا على زمن النبي ﷺ عندما صرّحوا بأن محمد بن عبد الله ﷺ قد ألّف القرآن الكريم وافتراه، وما علِم هؤلاء عِظَم المسؤولية الملقاة على عاتق النبي ﷺ، فهو بموجب تكليفه بالرسالة، قد تحمّل أعظم مسؤولية في التاريخ، ولم يكن على علم بها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[41]، ولولا رحمة الله تعالى بعباده بإنزال القرآن الكريم لهم، لكان مصيرهم الهلاك، لأن الله تعالى لا يعجزه أن يُذهب الباطل، ويُظهر الحق، ويُعمِّم الخير، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ (42)، وكم ناداهم النبي ﷺ بأنه لا يستطيع أن يكذب على الله بعد أن ترك الكذب على الناس طيلة أربعين سنة قضاها بينهم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾[43].

إن الافتراء على الله تعالى ليس بالأمر الهيّن كما كان يظن الناس على زمن النبي ﷺ، فمنذا الذي يستطيع التقول على الله تعالى ما لم يقله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[44].

إن الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ لم يكن من تأليفه، ولا من إنشاء أحد من البشر، مثل ما ادّعى بعض الأعراب، عندما رأوا النبي ﷺ ذات مرة إلتقى بأحد الرهبان، فقالوا هذا هو من يلقّنه القرآن، واختلقوا من

أذهانهم رواية ظهر زيفها، وانكشف حيفها، من حيث لا يشعرون، إذ تبين بأن الذي جعلوه معلم النبي ﷺ كان أعجميا لا يعرف لغة العرب، وقد أثبت القرآن الكريم هذه الأحداث بدقة متناهية، قال الله تعالى: **(وُلَقَدْ نَعْلَمُ أَنّهُمْ يَقُولُونَ إنّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَر، لِسَانُ الذِي يُلْحِدُون إلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)**[45].

إن القرآن الكريم الذي ظل النبي محمد ﷺ يُقرئه للصحابة طيلة ثلاث وعشرين سنة، لم يكن لأحدمن البشر أن يؤلّفه، فهو على امتداد هذه الفترة الطويلة التي زادت عن العِقْدين من الزمان، حافظ على مستواه البياني الذي انطلقت منه البداية، واستمر في منتهى التناسق وحُلّة النظم البديعة إلى آخر ألفاظه وتراكيبه، ممايجعل علماء اللغة والبيان، وفطاحلة الفصاحة واللسان، يوقنون بأنه من مشكاة واحدة، ولا يوجد فيه أثر النزعةالبشرية، التي تعتريها عوارض النقص والتحول، إذ أن الفطرة الإنسانية جُبلت على التغيير والتبديل، وبالتالي فقد استقرت قواعد التأليف لدى العلماء في القديم والحديث على المراجعات الفكرية، وكثيرا ما سخِر المؤلِّفون منمصنفاتهم التي كتبوها وقت شبابهم، أو في مراحل محددة من حياتهم، وهاهي كل الكتب بدون استثناء تخضع للتصحيح والتنقيح من طرف أصحابها أو من غيرهم، إلا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

حق لا ريب فيه: أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم ليكون مهيمنا على كل الكتب السماوية الماضية، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[46]، وقد تجسدت هذه الهيمنة في كونه ناسخا لكل الشرائع التي سبقته، ولما كان الأمر قد توجه إلى رسالات الأنبياء،

كالزبور والتوراة والإنجيل وغيرها، فمن باب أولى التسليم بظهوره على باقي المؤلفات البشرية.

إن النظم الذي جاء به كلام الله تعالى لم يثبت في التاريخ أن وُجد له مثيل من جميع الأوجه، ولننظر في هذا الحسم الذي جاء في أول ما افتتح به الكلام المقدس، حيث قطع كل تردد، بقوله ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾[47]، وهي أقوى عبارة تدفع الشك، وتجزم باليقين، أن هذا الكتاب لا يعتريه النقص، فهو متصف بالكمال، وهل يستطيع أحد غير الله تبارك وتعالى أن يقدم هذه البراءة من كل عيب، والسلامة من كل ريب، وليس هذا فحسب، بل من يستطيع أن يقتحم دياجير الغيب، فيعلن ضمان حفظه، ببقاء لفظه، وخلود نظمه، واستمرار رسمه، فاستحال الوصول إليه بالتزييف والتحريف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[48]، وبين هذا وذاك، جاء الحسم بمسح فكرة التناقض والاختلاف بين سطوره وسوره، قال الله تعالى: **(أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)**[49].

كتاب ليس كباقي الكتب: لا يوجد كتاب فوق الأرض حظي بالعناية من مختلف الجوانب مثل القرآن الكريم، فمن حيث عدد النسخ المطبوعة والمستنسخة، إحتلّ هذا الكتاب المقدّس الصدارة بكل جدارة، فهو منذ الزمن الأول سبق كل الكتب التي سبقته، سواء، تلك التي جاءت من الوحي، كصحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل، أم ما جادت به قرائح المفكرين والمؤلفين من مختلف الثقافات والحضارات.

تروي كتب السيرة، أنه بعد إكمال الدين، وإتمام النعمة، جاء الإعلان عن قرب انتهاء الوحي بنعي النبي ﷺ، فعندما أنزل الله تعالى سورة النصر، قال النبي ﷺ، نُعيَت لي نفسي، وكان ذلك إيذانا بتنبيه المسلمين للاستعداد لتوديع النبي ﷺ، باستلام آخر

الكلمات من فمه، لتدوينها قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى، ورغم هذا الإعداد الرباني للصحابة رضوان الله تعالى عليهم لتقبُّل الفاجعة العظمى بفراق النبي ﷺ، إلا أن خبر موته كاد أن يكون عاصفة تجرف أكابر القوم، فقد وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجعل ينادي ويقول : من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات، أضرب عنقه، فقيّض الله تعالى للأمة أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فقام خطيبا، وعمر بن الخطاب يصول ويجول، فقرأ قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[50]، وعندئذ استفاق عمر رضي الله عنه، فسقط على ركبتيه يبكي، وخمدت جذوة العاصفة الهوجاء لدى جموع المسلمين، والسبب الأساسي في هذا كله، هو ارتباطهم بالقرآن الكريم الذي ظلوا طيلة ثلاث وعشرين سنة يتلقونه من لسان النبي ﷺ، فهم قد أصابتهم الصدمة، وذهلوا لِهَوْل المشهد بإنقطاع مشاهدة هذا اللسان المبارك الذي استمر طوال فترة الوحي يمدّهم بالتذكير والتبشير، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾[51]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[52].

لقد كان موت النبي ﷺ من أعظم المصائب التي وقعت على المسلمين، فقد أظلمت الدنيا في عيون الصحابة رضي الله عنهم عندما توفي عليه الصلاة والسلام.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)[53].

قال ابن حجر في الفتح، مُعلّقا على حديث أنس بن مالك: (يريد أنهم وجدوها تغيرت عما عهدوه في حياته من الألفة والصفاء والرقة، لفقدان ما كان يمدهم به من التعليم والتأديب)[54].

فبموته ﷺ انقطع الوحي من السماء، كما في جواب أم أيمن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم عندما زاراها بعد موت النبي ﷺ فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[55].

وقبيل مفارقة النبي ﷺ للحياة، كانت كلمات آخر آية مما نزل من القرآن الكريم قد تلقاها كتبةُ الوحي، فدوّنوها مثل ما سمعوها، مع باقي السور والآيات، بترتيبها وشكلها الذي عليه الآن، وبمجرد إعلان الوفاة النبي ﷺ، كان القرآن الكريم قد أغلقت سوره وآياته، وانتهى عدد حروفه وكلماته، وانطلق هذاالكتاب في الانتشار عموديًّا وأفقيًّا، وخلال سنوات قلائل بدأت الأعداد لمستنسخة من مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه في تزايد غير مسبوق، رغم قلة وسائل الكتابة، وبدائية الطبع والنشر للكتاب في ذلك الزمان.

إن الحقيقة العلمية التي سجّلها التاريخ، تثبت أن الأعداد التي كُتبت من المصحف الشريف تعدّ الأعلى على الإطلاق، وهذا على ممر العصور والأحقاب الزمنية، ومنذ زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى قُبيل وجود المطابع العصرية، ظل القرآن الكريم أكثر الكتب انتشارا من حيث العدد، وأجودهم من حيث العناية بالمظهر والجوهر، وبظهور الثورة العلمية، وما صاحبها من تطور الفنون المطبعية، وصولا إلى استخدام الوسائل الرقمية، ققفزت أعداد

المصاحف المطبوعة من أرقام الملايين إلى آلاف الملايين، وقد أثبتت المراكز المتخصصة في مجال الإحصاء، طبع أكثر من ثلاثة مليارات من المصحف، وبهذا جاء القرآن

الكريم متصدرا قائمة الكتب الأكثر طباعة في العالم، متبوعا بالإنجيل، ويضاف إلى هذه العظمة من حيث تحقيق التفوق العالمي من حيث الاهتمام بالطبع، كمًّا وكَيْفًا، نجد أن هذا الكتاب العزيز قد بلغت ترجمته أغلب لغات بني آدم، مما لم يصله أي كتاب آخر على وجه الأرض.

إن كتابا قد حُظي بهذه المنزلة المرموقة لدى البشرية، لهو جدير بأن يكون دليلا قاطعًا على نبوة محمد الأمي ﷺ، هذا دون أن نلج في ما احتواه هذا الكتاب الخالد من ثوابت المعارف، وأصول النظريات، وأمهات الحقائق العلمية والأسرار الكونية، رغم أنه كتاب هداية وبيان.

عندما ألف المؤرخ الأمريكي الشهير كتابه حول أعظم مائة شخصية في التاريخ وأعظمها تأثيرا أمضى ثمانية وعشرين سنة من عمره وهو يعد هذا الكتاب حتى انجزه، وقد اختار سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام على رأس قائمة المائة شخصية التي ضمنها كتابه المذكور، وبينما كان يلقي محاضرة في لندن، تمت مقاطعته والاحتجاج عليه، وكان الحضور يشتكون لماذا وضع محمدا ﷺ في رأس قائمة أعظم مائة شخصية، أجابهم قائلا: النبي محمد وقف في وسط مكة في611 م، وقال للناس: "أنا نبي الله " فآمن به أربعة من الناس أقرب أصدقائه، وزوجته، وطفلين، الآن بعد 1400 سنة ارتفع عدد المسلمين الى مليار نسمة وما يزال يزداد، وهو لا يمكن أن يكون قد كذب، لأن الكذبة لا يمكن أن تستمر 1400 عام، كما أنك لا تستطيع خداع مليار انسان مرة واحد، ثم أضاف قائلا: شيء آخر عليك أن تفكر

به، وهو أنه على الرغم من مرور كل هذا الوقت، ملايين من المسلمين لن يترددوا في التضحية بأنفسهم بسبب كلمة واحدة يمكن أن تؤذي النبي محمد عليه السلام، فهل هناك مسيحي واحد عنده الاستعداد بنفسه دفاعا عن عيسى اليسوع عليه السلام؟.

بعد ذلك ساد القاعة صمت رهيب.

مما سبق بيانه يتبين لنا أن القرآن الكريم هو أصل الأصول ومفتاح الوصول، فهو الملاذ الوحيد الآمن والملجأ الفريد الذي يحفظ الأمة من كل خطر يحدق بمقوماتها وثوابتها الإيمانية، وبالتالي فإن خدمته والعناية به وبلغته سُنّة محمدية تالدة، وسيرة للصلحاء خالدة، ورغم الحملات الاستعمارية التي قام بها أعداء الأمة لمحو الهوية العربية الإسلامية ممثلة في كتابها ولغتها، إلا أن الشعب الجزائري المسلم اندفع بكل فئاته المثقفة وغير المثقفة إلى الدفاع عن مبادئ دينه، ومصادره الصافية.

ويأتي في مقدمة هذا الحصن المدافع عن القرآن الكريم واللغة العربية أهل العلم الذين أيقنوا أنه قول الله تعالى، فجعلوا منابرهم وأقلامهم تصدح بالذود عن الحياض، ولم يتركوا سبيلا إلا وتم تسخيره لهذا الهدف الذي انتدبوا أنفسهم لتحقيقه، ومن أبرز المؤسسات التي يتم التركيز عليها في هذا المجال مخابر البحث في الجامعات ومؤسسات التعليم العالي، وبخاصة في زمن العولمة الذي أصبحت كل المعارك ضد الإسلام تدار من خلال المخابر العالمية، فكان من الواجب على الكفاءات العلمية والنخب الجامعية أن يجابهوا هذه التحديات بنفس الهيئات من مخابر البحث التي لها أهلية الرد بالمثل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لما تتوفر عليه من إمكانات الخبرة العلمية والرصيد المعرفي الذي تزخر به كفاءاتها وكذا رصيد باحثيها، لكونها قاطرة المجتمع.

ولا شك أن تخصيص الجهد لخدمة القرآن الكريم ولغته وعلومهما يعتبر من أهم المهمات التي ينبغي أن يضطلع بها أهل العلم والمختصون، بما يستوجب العمل الدؤوب من أجل الدراسة المعمقة والمستفيضة لهما على حد سواء، تجميعا وتقعيدا وبيانا وتوضيحا وتحقيقا، وهذا من أولويات البحث الجاد الذي يخدم تراث الأمة.

وعلى هذا الأساس، فإن بعض المخابر الجامعية شقّت طريقها للإبداع في هذه المجالات بعقد المؤتمرات العلمية والملتقيات الفكرية من أجل إثراء التراث العلمي الذي يدعو إلى العناية بالقرآن الكريم واللغة العربية، وهذا من القرارات الصائبة والخطوات الحميدة التي يجب تثمينها والإشادة بها والدعوة لتعميمها ونشرها لتصبح ثقافة مجتمع يدافع عن ثوابته ويحمي هويته.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد، أن جهود المخابر العلمية والهيئات الجامعية ينبغي أن تتوجه للعناية بالقرآن الكريم تفسيرا وبيانا، من خلال إبراز الجهود المتعلقة بتفسير القرآن الكريم كتابة ومشافهة، وتخصيص حيز معتبر للمطبوعات والمخطوطات في علم التفسير، وما أكثرها في ربوع الجزائر المحروسة، وذلك بالإعتماد على أهم الفهارس المعاصرة للزوايا والمكتبات، كمخطوطات زوايا ولاية أدرار، وزاوية أحمد بوزيد بسريانة، وزاوية الشيخ بالموهوب، وزاوية الهامل، ومكتبة الشيخ التهامي صحراوي، ومخطوطات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، وجامعة الأمير عبد القادر، كما أنه يتوجب توجيه الباحثين وتأطير الأعمال الأكاديمية التي تسهم في إثراء علم التفسير بما يتلاءم مع لغة العصر ومتغيرات الأحوال في إطار الأصول والقواعد العامة التي يقوم عليها هذا العلم، كما أن العناية ينبغي أن تتوجه لكل ما يتعلق بالتلاوة والأداء والإقراء بالاعتماد على الأساليب العصرية والاستفادة من التجارب الحديثة في مجال التلقي

والإجازات في علم القراءات، وكذا أسانيد القراء، مع التأكيد على إبـــراز جهـــود علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم واللغة العربية، فقد أسهم علماء الجزائر في مختلف العلوم، وهذا بشكل عام، وفي خدمة علوم الشريعة وعلوم القـــرآن واللغـــة العربية على وجه الخصوص، وعلى وجه أخص ما أبدع فيـــه الجزائريـــون فـــي المصنفات في علم القراءات تعريفا وتوصيفا، فقد كان لهم الســـبق بمصـــنفات ذاع صيتها، وعمّ نفعها، في القراءات السبع والعشر جمعا وإفـــرادا، وعلـــم التجويـــد، وعلمي الرسم والضبط، فيجب التعريف بتلك المصنفات وتوثيق نسبتها لأصحابها، وذكر أهم المعلومات حولها، وإقامة الدراسات الميدانية لجهود مشايخ الإقراء سواء في الجانب المتعلق بالتعليم أم التأليف، وكذا من حيث الإنتاج للحُفَّاظ كمّا ونوعـــا، والعمل على تعزيز وتطوير المناهج في التعليم والتأليف في مجال الإقراء، وعـــدم الاكتفاء بالطرق التقليدية التي أصبحت لا تتناسب مع العصر والثورة المعلوماتيـــة والإلكترونية، واستغلال المخترعات والمكتشفات الحديثة فـــي خدمـــة القـــراءات القرآنية بما في ذلك إنشاء المكتبات الافتراضية والعنكبوتية وغيرها من منصـــات التواصل بمختلف أنواعه، لمواكبة الجيل بجعله يستفيد من هذه الخدمات، بما يُمَكّن الإفادة منها بلغة هذا الزمان، وهذا في إطار مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

ومن أبرز المجالات التي تم التركيز عليها في العمل الميداني مجال المـــدارس القرآنية الرسمية من حيث الواقع والمأمول، ودراسة العوائق التي تعاني منها، وهذا بالنظر إلى العجز الرهيب والنقص الفادح لحفظة القرآن الكريم، الأمر الذي تعاني منه معظم المساجد عندما تبدأ رحلة البحث عن أئمة المحاريب في التراويح، الذين يبلغون كلام الله تعالى حفظا وتطبيقا، قولا وفعلا.

فرغم أن أعداد المدارس القرآنية يتزايد سنويا، إلا أن حالة المجتمع في مجملها لم تتأثر إيجابيا بهذه الفئة التي تدفعها لتصدر المجامع وقيادة الأمة، فينبغي البحـــث في ما تقدمه هذه المدارس لحُفّاظ كتاب الله تعالى من حيث التعلم والتلاوة والفهـــم والتطبيق، إذ أن الهدف يتمثل أساسا في بناء الإنسان المسلم الذي يكون متوازنا في حياته، مستقيما في أخلاقه، وهذا ما يأمله المجتمع ويمليه الدين من هذه المـــدارس القرآنية، ويمكننا في هذا الصدد أن نشير إلى أن المدارس القرآنية أصبحت تعـــاني من عزوف الذكور عن التعليم القرآني، فالكثير من تلك المدارس قد تأنث، كمـــا أن بقاء هذه المدارس تنتظر نفقات المحسنين إن وُجدوا، مع استمرار تخلي الدولة عن تمويلها، يُضعف الجهود المبذولة من طرف المعلمـــين والقـــائمين علـــى التعلـــيم القرآني، كما أن طرق التحفيظ المعمول بها في معظم المدارس القرآنية لا تســـاعد على الحفظ الجيد، وغيرها من الأسباب التي أسهمت في تقليص دورها المنوط بها، مما يستوجب الدعوة إلى سنّ منظومة قانونية تعالج كل الثغرات وترتقي بالمدرسة القرآنية لتصبح تتمتع بالتمويل الحكومي وتخضع للتنظيم الإداري المشابه للمدارس التربوية، وهذا من شأنه أن يسهم في خدمة كلام الله تعالى وحسن نقله للأجيال.

الـهوامش:

[1]سورة آل عمران، الآية: 164

[2]سورة المائدة، الآية: 19.

[3]سورة المائدة، الآية: 3.

[4]سورة آل عمران، الآية: 144.

[5]سورة الأحقاف، الآية: 9.

[6]سورة الإسراء، الآية: 101.

[7]سورة آلِ عمران، الآية: 49.

[8]سورة الشعراء، الآية: 154.

[9]سورة هود، الآية: 53.

[10]سورة الحديد، الآية: 25.

[11] سورة المدثر، الآيةــ9.

[12] انظر تفسير الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 11/1.

[13] سورة الأعراف، الآية: 158.

[14] سورة يونس، الآية: 15.

[15] سورة يسن، الآية: 69.

[16] سورة العنكبوت، الآية: 48.

[17] سورة العلق، الآيات: 1 – 2– 3– 4– 5.

[18] انظر: سيرة ابن هشام: (308/3)، وزاد المعاد: (286/3).

[19] سورة الأعراف، الآية: 157.

[20] سورة العنكبوت، الآيانان: 50– 51.

[21] سورة آل عمران، الآية: 81.

[22] سورة البقرة، الآية: 253.

[23] متفق عليه، واللفظ للبخاري.

[24] متفق عليه واللفظ للبخاري.

[25] رواه البخاري.

[26] رواه أحمد.

[27] انظر: أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، للسيوطي.

[28] رواه مسلم.

[29] سورة البقرة، الآية: 74.

[30] رواه الترمذي.

[31] رواه مسلم وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة وانظر حديث رقم: 2487 في صحيح الجامع.

[32] رواه الترمذي.

[33] متفق عليه.

[34] متفق عليه.

[35] رواه البخاري.

[36] سورة القمر، الآية:1.

[37] انظر: أيسر التفاسي، أبو بكر جابر الجزائري، (170/4).

[38] انظر البداية والنهاية، لابن كثير، ج 3.

[39] رواه البخاري.

[40] سورة الإسراء، الآية: 88.

[41] سورة القصص، الآية: 86.

[42] سورة الشورى، الآية: 23.

[43] سورة الأحقاف، الآية: 8.

[44] سورة الحاقة، الآيات: 44-45-46-47.

[45] سورة النحل، الآية: 103.

[46] سورة المائدة، الآية: 48.

[47] سورة البقرة، الآية: 1

[48] سورة الحجر، الآية: 9.

[49] سورة النساء، الآية: 82.

[50] سورة آل عمران، الآية: 144.

[51] سورة الدخان، الآية:58.

[52] سورة مريم، الآية: 98.

[53] رواه الترمذي.

[54] انظر الفتح لابن حجر: (149/8).

[55] رواه مسلم.

استخدام التقانات الحديثة
في القرآن الكريم واللّغة العربيّة وأثرها على المتلقي

د. براهمي فطيمة
جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

الملخّص:

يعرف العالم اليوم تطورًا هائلاً لا نضير له على جميع الأصعدة من اجتماعية، ودينية، وثقافية، وسياسية، واقتصادية، وغيرها، وهذا التّط ورمَّس أيضــا قطبــين مهمين من أرقى الأقطاب ألا وهما القرآن الكريم واللّغة العربيّــة، نظــرا لوجــود وشائج متينة بينهما تربطهما، لذا كان لزامًا أني واكبا ويتكيفا ويتأقلما مع هذا الرقيّ التّكنولوجي والاستفادة من آلياته المتّطورة بشكل مغري، وهذا التّواصل مع مختلف الوسائط المتّعددة ترك أثره القويّ على جمهور المتلقين.

وعليه يمكن طرح الإشكالية الآتية: كيف ساهم استخدام التقانات الحديثــة فــي القرآن الكريم واللّغة العربيّة؟ وكيف أثرت على المتلقي؟ هذه الإشــكالية وغيرهــا سيتم معالجتها من خلال هذه المداخلة.

الكلمات المفتاحية: التقانات الحديثة، القرآن الكريم، اللّغة العربيّــة، اســهامات التكن ول وجيا، أثرها على المتلقي...

مقدمة:

تشهد السّاحة العالمية اليوم تطورات هائلة علــى مســتوى جميــع الأصــعدة، وتغيرت الكثير من المفاهيم والآليات التي تحكم حركة البشر اتجاه بعضهم البعض، ولعل مفهوم التقانات الحديثة أو التكنولوجيا يعتبر أحد أكثر المفاهيم والعمليات دقةً،

التي تأثرت تأثرًا كبيرًا ومباشرًا بالتّطور الحاصل في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات المتقدمة.

تعتبر التقانات الحديثة أيضا بمثابة الطاقة المحركة لتنمية البشر، لأنها تهدف إلى تحقيق التّقدم البّشري، من خلال التكوين الأمثل لقدرات المواطنين ومعارفهم ومهاراتهم بما يمكنهم من التفاعل المباشر والمستمر مع البيئة المحيطة بمكوناتها المادية والمؤسساتية والبشرية أيضا. ومن هذا المنطلق لم تعد قوة أي دولة تقاس بثرواتها الطبيعية والمادية فحسب، بل صارت تقدر قوتها بثرواتها من المعرفة المكتسبة، والتي يتعامل معها المواطنين في كل أوجه حياتهم.

لا يختلف اثنان حول تأثيرات التقانات على مختلف صنوف المعرفة، والذي لا ريب فيه أن هذا التّأثير مسّ أيضا القرآن الكريم بكل مكوناته، واللّغة العربيّة لم تكن بمنأى عن هذا التّطور الرقي التكنولوجي، ولأنّ القرآن الكريم نزل بلساني عربي فكان اندماج وانصهار بين الإثنين لما يتميّز به من بلاغة وإعجاز وبيان وحكمة.

وعليه يمكن طرح الإشكالية الآتية: كيف ساهم استخدام التقانات الحديثة في القرآن الكريم واللّغة العربيّة؟ وكيف أثرت على المتلقي؟ هذه الإشكالية وغيرها سيتم معالجتها من خلال هذه المداخلة.

1- الإطار المفاهمي:

أ-اللّغة العربيّة:

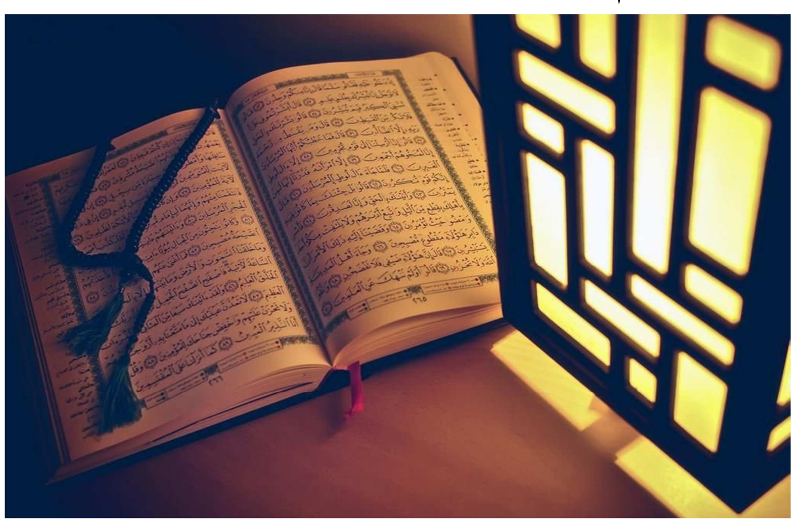


الشّائع الذي لا ريب أنّ اللّغة العربيّة هي لغة حضارة ولغة ثقافة ولغة تواصل وفكر: «فقيمة الكلام الإنساني ليست مودعة في موروث قدسي ثابت لا ينال منه الزمن، رغم أهمية هذا الموروث في بناء الهوية وغناها، بل يجب تلمّسها في قدرة هذا الكلام على تجديد النظر والفكر داخله....ذلك أن طبيعة المدنيّة الحديثة لا تدع وإلى تحصين الذات بما يفتي بانزوائها داخل زمنية تتحرك التاريخ الكوني، بل تقتضي تأهليها بما يمكّنها من استيعاب ما يأتيها من خارجها استنادا إلى ممكنات لغتها وخصوصية ما أنتجته إرث حضاري داخلي»[1]. يشكل العصر الذي نحياه حاليا: «عصر التدفق المعرفي فهو يتميز بالتغيرات المتسارعة والمتلاحقة نتيجة للتطور التقنني والمعلوماتي في كافة مجالاته.... وهو ما يعد انعكاسا للانفجار المعرفي الكبير في كل فروع العلم. فكثير من التحديات طرأت وستطرأ وتحتاج من الفرد أن يكون قادرا على مواكبتها ومواجهتها والتكيف معها، إذ أراد البقاء والتميز، بحيث يكون لديه من المهارات والقدرات ما يمكنه من التكيف مع

المهارات والقدرات.... وهذا لا يكون لا باستثمار اللغة بشكل جيد، وتعزيزها في نفوس أبنائها، فاللغة هي أساس الرقي وعنوان الثقافة..»[2].

يعتبر (**محمود تيمور**) أنّ اللّغة العربيّة هي: «لغة الأم عنوان ثقافتها وحضارتها، ولذلك تعنى الأمم كافة بلغاتها وتعمل على ترقيتها.....»[3]. كما أنّ اللّغة العربيّة استطاعت أن: «تستوعب الحضارات المختلفة بالعربية والفارسية واليونانية، والهندية المعاصرة لها في ذلك الوقت، وأن تجعل منها حضارة واحدة، عالمية المنزع، إنسانية الرؤية، وذلك لأول مرة في التاريخ....»[4]. لم تعد اللّغة العربيّة: «تقصر على ما بدأت به من الاسم والصفة والفعل، بل توسعت وتعمقت وضمت في ثناياها وتحت أجنحتها عناصر من كل أنظمة التعبير والاتصال الكونية الأخرى لقد احتوت... لغة الجسد، خاصة لغة العيون، وتفاعلت مع الأرقام نفسها حتى حولتها إلى عنصر من عناصرها الأساسية ....إنّ الإنسان لم يعد يستخدم لغته للتعبير عن وعيه الذي هو انعكاس للعالم الخارجي، بل صار يستخدمها لغته للتعبير عن وعيه الذي هو انعكاس للعالم الخارجي، بل صار يستخدمها لجعل العالم الخارجي يتحول انعكاس لوعيه وإدراكه»[5]. وهي في كل هذا لغة القرآن الكريم، وحامية له، ونطق بها سيّد الخلق: «فهي لغة القرآن الكريم التي نزل بها جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم على مدى ثلاثة وعشرين عاما، لم يخترم منها حرف، ولم ينل التحريف منها كلمة واحدة، وهذه الحماية الإلهية تمتد إلى اللّغة العربيّة الفصحى، لأنها وعاء القرآن، ولا حفظ للمحتوى إلا حفظ الوعاء الذي يحويه....»[6]، لذا وجب العناية بها، والرفع من مقامها، ووجب أيضا اقحامها في مجال التكنولوجيا والتقانات الحديثة، فصارت هذه الأخيرة أكثر من ضرورة، ولا يمكن الاستغناء عنها.

ب- القرآن الكريم:



إنّ الحديث عن القرآن الكريم تبقى الأقلام والأيادي عنه قاصرة في بلوغ مراميه والإلمام بكل ما يتعلق به، فهو أسمى وأرقى أن نفيه حقه، لكنها تبقى محاولة من ملايين المحاولات التي تحاول أن تقف عنده، والذي لا شك فيه أنّه لا يمكن الحديث عن القرآن الكريم بمعزل عن اللّغة العربيّة، حيث توجد بينهما أواصر كبيرة، يتضح من خلال ذلك أنّ: «لغة العرب هي وسيلة التخاطب بين أبنائها من أفراد البشر. فإن القرآن الكريم هي وسيلة التخاطب بين أفراد البشر وبين جل علاه، ولذلك نرى لغة القرآن قد اختلفت من هذه الناحية عن لغة العرب كثيرا، من حيث أسلوبها، وطريقة تركيبها، واختيار ألفاظها، الأمر الذي من أجله عجزت الخلائق جميعا عن مضاهاتها أو الإتيان بأقصر سورة منها، ولازالت تحمل هذين هذا الإعجاز بين طياتها.....»[7]. بالإضافة إلى هذا: «اللغة العربية، لسان الإسلام والمسلم، لسان الحق في هذه الحياة الدنيا، لسان الدعوة الإسلامية في الأرض، فمعركتها تمثل جزءًا رئيسًا من معركة الإسلام......»[8]. علاوة على

هذا: «ومنذ عصور الإسلام الأولى انتشرت العربية في أرجاء المعمورة وبلغت ما بلغه الإسلام، وارتبطت بحياة المسلمين، فأصبحت لغـــة العلـــم والأدب والسياســـة والحضارة، فضلا عن كونها لغة الدين والعبادة.....»[9].

يجمع الكثيرين على أنّ اللّغة العربيّة بلغت: «ذروة نضجها وتطورها لما نـــزل بها الوحي، بعد ان استقرت بيانا وقواعد، نثرا وشعرا، وحتى تظل لغـــة القـــرآن الكريم ثابتة القواعد والبيان، غنية كل الغناء ليظل القرآن الكريم ميســـرا للـــذكر، مفصلا بينا مدى الدهر كله للعالمين..........، ولذلك تميزت اللغة العربيـــة بهـــذه الخصائص من الاستقرار والصفاء، حتى يظل القرآن الكـــريم يحمـــل خصـــائص إعجازه على مر العصور، وخصائص بيانه، وقوته وحجتـــه»[10]. ســـاهم القـــرآن الكريم مساهمة في الرقي باللّغة العربيّة وسموها: «ففي ظل القرآن الكريم أصبحت اللغة العربية عالمية، واللغة الأم لبلاد كثيرة ومع تغير الظروف المحيطة بها مـــن آن لآخر لم تفقد ضرورتها......»[11] .

ت- مفه ومالتقانات الحديثة:



المعروف عن التكنولوجيا أنّها ذات أصل يوناني والمشتق من الكلمة اليونانيـــة TECHNE التي تعني الفن أو المهارات، وبذلك فإنّ مصطلح التّقنية يعنـــي علـــم المهارات أو الفنون، وهي بهذا تعني دراسة المهارات بطريقة منطقية للقيام بوظيفة محددة[12]. تمثّل كل من التكنولوجيا والتقدم العلمي: «عصب تطور البشرية ورقيهـــا وتوسيع إمكانياتها وطاقاتها ولقد انعكست مختلف النتاجات التقنية العالمية الســـريعة على المجتمع العالمي ككل كعامل أساسي في حركة البشر خلال القـــرن الحـــالي وأصبح الإنسان يعـــيش علـــى أوتـــار حركـــة هـــذا التقـــدم وتقنياتـــه وأنغامـــه المتواترة...»[(13)].

ما من شك أنّ: «للتكنولوجيا مفهوم واسع تعددت معانيها واختلفت تعاريفها تبعا لاهتمامات الباحثين.... وهناك من ينظر إلى التكنولوجيا كمصدر للآلات والمعدات الحديثة التي تتوافر بها المنازل والمكاتب كالراديو والتلفاز........ وغيرهـــا مـــن وسائل ومعدات الية يستخدمها الإنسان لرفاهيته، وقد ينظر إليهـــا الـــبعض نظـــرة معيارية تجعلها شيئا يتعارض مع طبيعة الحياة الروحية. والتكنولوجيا مـــن هـــذا التّطور أدت إلى المزيد من النفع المادي للحياة الإنسانية..»[(14)].

إنّ التكنولوجيا: «ترتبط أساسا بتعريف كلمة تكنولوجيا وهـــي كلمـــة إغريقيـــة الأصل مشتقة من كلمتي تكنى (**Techne**)أ وتكنـــو (**Techno**) ومعناهـــا الفـــن أو المهارة في أداء عمل وكلمة لوجوس (**Logos**) أو لوجي (**Logy**) ومعناها الدراســـة أو العلم. وبذلك فكلمة تكنولوجيا لغويا تعني المعالجة العلمية فـــي أداء المهـــارات الفنية....»[(15)].

التّحديد الشّائع في القاموس الخطابي وفي وسائل الاعلام الجماهيرية أيضـــا إذ بمجرد ذكر عبارة تكنولوجيا يتبادر إلـــى الأذهـــان: «العتـــاد الأجهـــزة والبنيـــة

المتمظهرة في هذه السلعة الإنتاجية أو تلك. من هنا فإن هذا التحديد إنما يتعامل مع عبارة "التكنولوجيا" وفق معيار المخرج ولا يضعها في سياقها التاريخي الذي أفرز هذا المخرج كنتاج تجارب وتراكمات لازمت هذا النظام الإنتـاجي أو واكبتـه أو تجاوزته»[16].

يذكر **(عبيدميل ودمنقور)** في مقال له **(نظرية الاتصال في التعليم)** بحيث يتطـرق إلى مفهوم التكنولوجيا على أنها: «ليست فقط الآلات بل هي تنظيم متداخل من الأفكـار والإجراءات والتنظيم...»[17]. ويتضح أنّ الثورات في الغرب التـي كانـت متـواترة أوصلت: «المجتمع الإنساني إلى العولمة، حالّ كل ثورة تقنية بامتياز، بـين وضـوح الوسائل وعدم وضوح الأهداف، منتهية إلى عولمة مجزوءة، تحتفي بالمعلومات، فـي عالم بعض أطرافه لا يحسن القراءة والكتابة، ويعمل أكثر....»[18]. هذه بعض المداخل حول اللّغة العربيّة والقرآن الكريم والتقانات الحديثة.

2- استخدام القرآن الكريم للتقانات الحديثة وأثرها على المتلقي:

أولا- استخدام القرآن الكريم للتقانات الحديثة: نظرًا لما يشهده العالم من رقيّ وتقدم علمي من جهة ونوعيّ من جهة أخرى، وقد تم ذلك في فترة ليست بالطويلة عبر وسائل الاتصالات والتكنولوجيا بكل ركامها الذي لا حصر له، وبطبيعة الحال انعكس هذا التّقدم على القرآن الكريم، حيث كان للتقانات الحديثة أثر وتأثير واسـع عليه، حيث صارت الاستعانة بها أكثر طلبا إلحاحا، ومطلبا أساسيا.

أنعم الله سبحانه وتعالى على عباده العقل ليفكر ويبدع ويخترع وهو مـا نـراه اليوم من تقانات وبرمجيات كلها مسخرة لخدمة الإنسان ومي ولاته، فكان القـرآن الكريم هو أحد أجل الكتب السماويّة، لذا اتجه عديد الباحثين والمختصين إلى تسهل عملية طرق تحفيظ وتعليم كتاب الله عز وجل نحو الاسـتعانة بمختلـف الوسـائل

التّعليميّة المتاحة لكل الأعمار، ونظرا لما تشهده من سرعة تدفق التكنولوجيا ومع انتشار الحاسب الآلي على نطاق واسع، وظهور تطبيقات مختلفة تتنوع استخداماتها، لجأت مختلف المدارس والمراكز القرآنية إلى هذه التكنولوجيات، فقد كانت فضاءً رحبًا لتيسير دراسة ومدارسة القرآن الكريم والسّعي لنشر علومه وأحكامه على الشابكة.

لا يمكن نكران ما للتقانات الحديثة من أهمية كبيرة في تحقيق الغايات والأهداف والرقيّ في أي ميدان من الميادين، وكلما كانت هذه الوسائل متاحة ومتوفرة بشكل كبير وخضع أصحابها للتّربصات التّقنيّة التّطبيقيّة من طرف متخصصين في مجال البرمجيات والحوسبة، وذلك من أجل إتقانها، فقد تعددت التّقنيّات بتعدد وظائفها، فأصبحت أكثر تنظيما وتنسيقا، وتعددت أيضا مجالاتها بين ما هو متعلق بقراءة القرآن الكريم وترتيله يطلق عليه بـــ: النقل الصوتي للقرآن الكريم وتفسيره، ووجود القراءات العشر لكبار المشايخ وغيرها من الأمور التي يحتاجها المسلم الكبير والصغير، كذلك وجود ترجمة للقرآن الكريم باللغة الإنجليزية.

ثانيا- نماذج من تطبيقات على القرآن الكريم: عرفت التقانات الحديثة عدة تطبيقات مختلفة، مما جعل الباحثين والمتخصصين وغير المتخصصين يذهبون إلى اكتشاف هذه التطبيقات والبرامج، محاولين بذلك تطبيقها على القرآن الكريم سيتم توضيح ذلك من خلال مجموعة صور.

أ- **النموذج الأول:**

- **المصحف الذهبي**(19)**:**

***الشكل الأول:** المصحف الذهبي



التعليق:

يضم المصحف الذهبي أحدث البرامج القرآنية التي استفادت من التقانات الحديثة، وقامت بتطوير كل ما يتعلق بالمصحف الشريف وهو برنامج متخصص ذو جودة عالية.

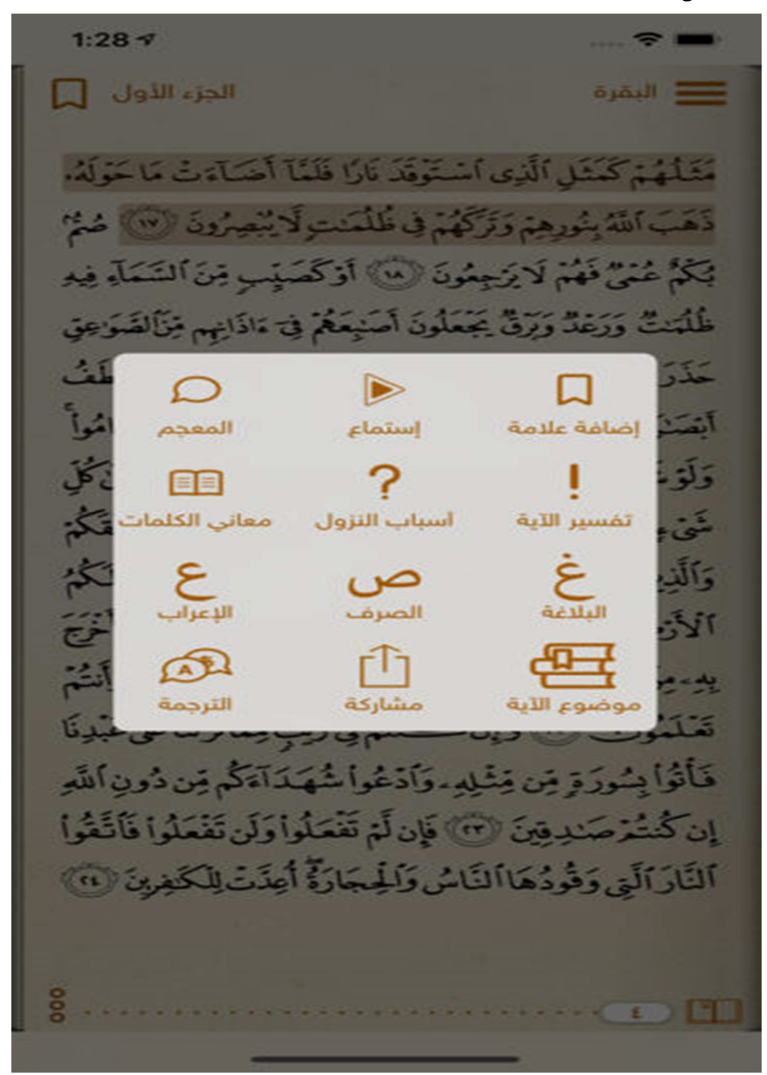
***الشكل الثاني:**



التعليق:

اختيار اللّغة لسماع القرآن الكريم كما هو مبين على الصّورة تم اختيار عربي، وتظهر الروايات: رواية حفص، رواية قالون، رواية ورش، للتوضيح يظهر الجزء الأول من سورة البقرة.

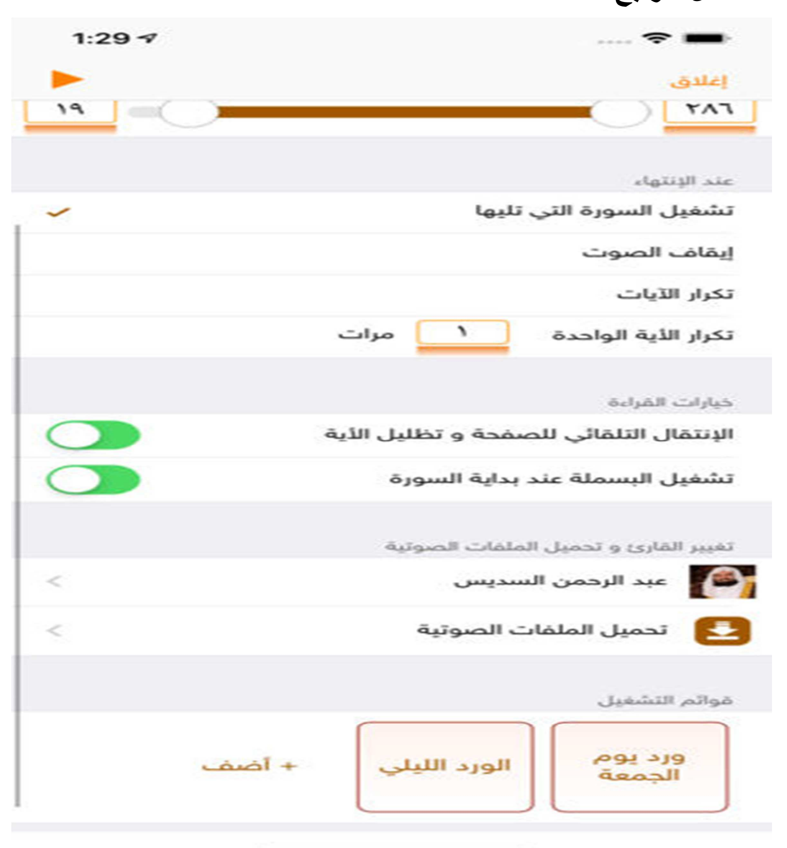
***الشكل الثالث:**





التعليق: يساعد هذا التّطبيق على قراءة القرآن الكريم، وذلك بالاعتماد على الضغط على عدة أيقونات مهمة يحتاجها القارئ والمستمع من بينها: إضافة علامة – استماع – تفسير آية – أسباب النزول – معاني الكلمات – البلاغة – الصرف – الإعراب – موضوع الآية – مشاركة، وأخيرا الترجمة، وبجانبها تظهر قائمة تضم وردت معنونته بـ: ورد الكرب والهم، تضم أوقات الصلاة، الاشعارات، إضافة إلى(40) الأربعون النووية، دعاء ختم القرآن، الإحصائيات، أذكار من القرآن، علاوة على هذا يقدم البرنامج أذكار القرآن الكريم، يقدم البرنامج خدمات الصحف الشريف تنطوي تحتها قائمة السور، العلامات المرجعية، البحث، مشغل الصوت، تظليل الآيات حسب موضوعاتها، مع الترجمة.

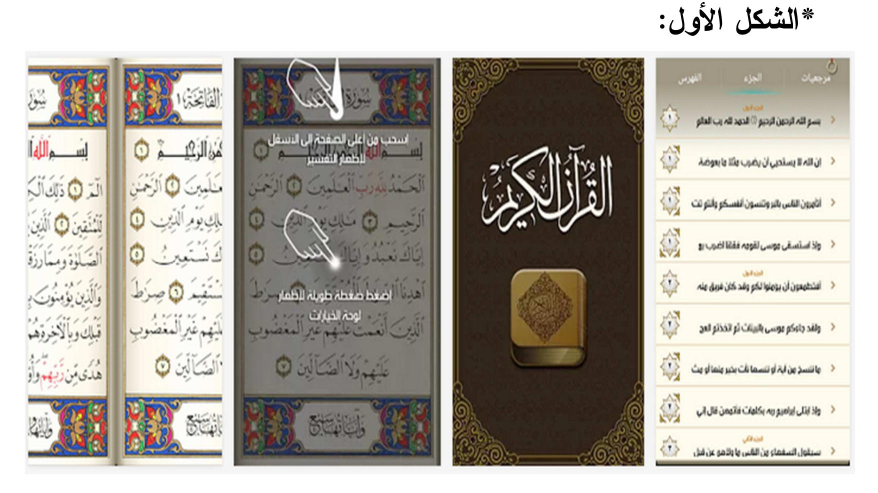
***الشكل الرابع:**



التعليق: يضم هذا الشكل عدة خصائص من التقانات، كما هو مبين تشغيل السورة التي تليها، إيقاف الصوت، تكرار الآيات إما مرة واحدة أو عدة مرات، ثم الانتقال إلى خيارات القراءة، والانتقال للصفحة وتظليلها، تشغيل البسملة عند بداية السورة، وهذا البرنامج بالإمكان المستمع له أن يغير أو يختار القارئ الذي يريده، وتحميل الملفات الصوتية، هنا تم اختيار القارئ **(عبد الرحمن السديسي)**، وتوجد أيضا قوائم التّشغيل لعدة أمور مثل تخصيص أوقات للورد، مثال عن ذلك ورد يوم الجمعة، الورد الليلي.

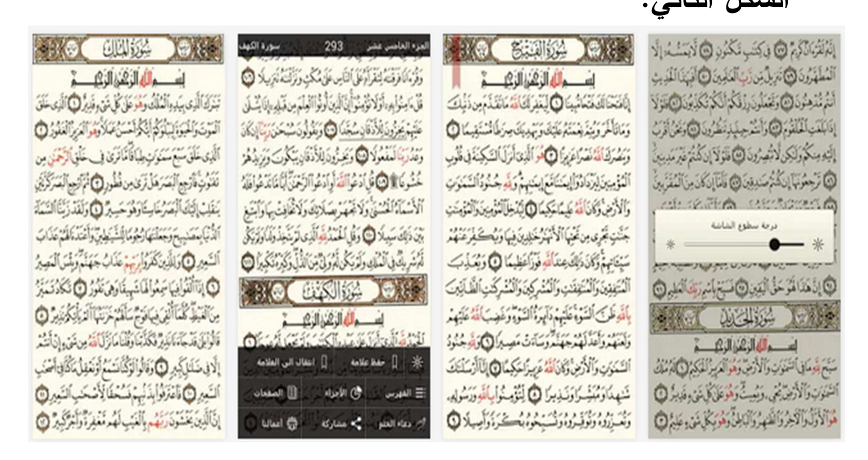
ب- النموذج الثاني[20]:

***الشكل الأول:**



التعليق: يتوفر هذا التّطبيق على برنامج مميّز يمكن تحميله على هاتف به خاصـــية الأندرويد نسخة كاملة من المصحف بالخط العثماني، حيث تتضح قراءة القرآن الكريم.

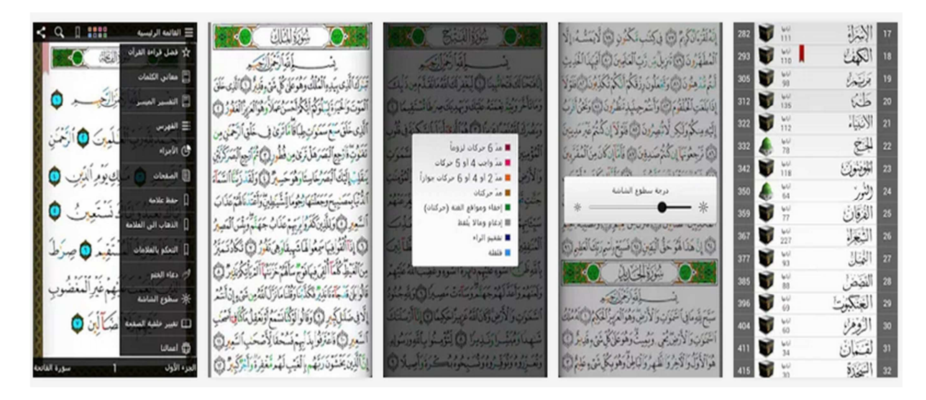
***الشكل الثاني:**



التعليق: هذا التّطبيق يشبه التّطبيق السابق ذات الخط العثماني، لكنه يتميّز مجموعة سمات من بينها: إغلاق البرنامج عند صفحة ما، وفتحه مرة أخرى سيذهب تلقائيا إلـــى

الصفحة التي تم الإغلاق عندها، التّحكم في درجة إضاءة الشّاشة، يضم كذلك فهــرس الأجزاء والصفحات، دعاء ختم القرآن، وهو لا يحتاج إلى الأنترنيت.

***الشكل الثالث:**



التعليق: يساعد قراءة القرآن الكريم، وهو تطبيق بسيط يحتوي على النّســخة الكاملــة بالخط العثماني، تتيح البحث عن الآيات أو الأجزاء أو الصفحات يشتغل بدون أنترنيت.

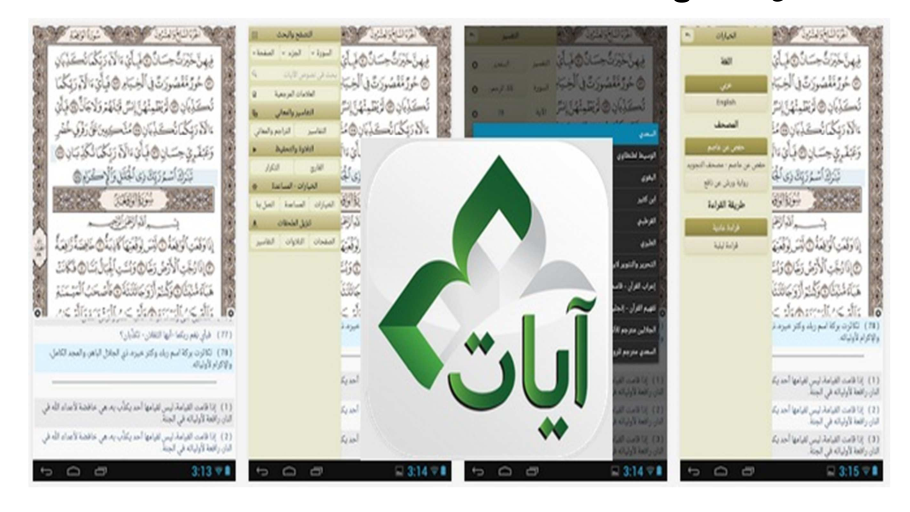
***الشكل الرابع:**



التعليق: يعتمد هذا التطبيق على الأندرويد، كما يتطلب أنترنت، ومــن ســماته المميّزة الخط العثماني الاستماع بـــــــ: 17 قارئ يضم أشهر القراء فـــي العــالم

العربي والإسلامي، فهرس متطور للبحث عن السور والآيات، تلاوات متواصلة، وجود التفاسير لأشهر المفسرين مثل (**ابن كثير**) وغيره، تظليل الآيات خصوصا في الليل، جودة الصور والتحميل للمصحف الشريف، يتوفر على البرنامج الترجمة للقرآن الكريم إلى أكثر من 20 لغة الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الأندونسية، الإسبانية، التركية، وعدد من لغات العالم.

***الشكل الخامس:**



التعليق: إلى جانب التطبيقات السابقة، يوجد تطبيق يطلق عليه بـ: آيات مميز بالأندرويد، وهو عبارة عن نسخة من مشروع المصحف الشريف الإلكتروني لجامعة (**الملك سعود**)، يشتغل هذا التّطبيق بلغتين العربية والإنجليزية مقروء ومسموع، ومصحف التّجويد الملون وفق قواعد معينة، وغيرها من المزايا.

ثالثا- أثر التقانات الحديثة على المتلقي:

كان التّوسل بالتقانات الحديثة في القرآن الكريم واللّغة العربيّة الأثر البالغ على المتلقي، وذلك لما لها من خصائص وسمات يمكن ذكرها فيما يلي:

– الاستعانة بهذه التقانات المتطورة، فقد ساهم مساهمة فعالة في الإقبال عليها من طرف المتلقي.

– تنوعت التقانات مما سهلت على جمهور المتلقين التّعامل معها أكثر سهولة، وبراعة المتّخصصين في البرمجيات في إعداد التّطبيقات المتنوعة المختلفة.

– حرص المتلقي على تطوير مهاراته القرائية في حفظ كتاب الله تعالى.

– الحرص على مسايرة كل تحديث وتجديد في التقانات الحديثة وتطبيقها على المصحف الشريف.

خاتمة:

– اكتسبت التقانات الحديثة أهمية وقيمة في تطوير ودعم كل مناحي الحياة.

– اللّغة العربيّة والقرآن الكريم بحاجة إلى كل هذه التقانات من أجل تطوير الأساليب التقليدية بطرقة أكثر رقيا ورقمية.

– لغة الضاد لغة طيعة وسلسة في استقبال والإقبال على هذه التقانات.

– لغة القرآن الكريم لغة عربية قمة أصيلة، لذا كان سهل عليها مواكبة ومعايشة هذا التّقدم التّكنولوجي.

– يسرت التقانات الحديثة كتاب الله تعالى مقروء، والصوت المسموع، والصور مشاهدة في أي وقت.

– أتاحت التقانات الحديثة للقرآن الكريم أن يوصل رسالته إلى العالم ولو أنها وصلت قبل التكنولوجيا، لكن أرادت ايصالها وفق ما هو مزدهر ومتطور بجودة عالية.

– انفتح العالم الإسلامي على العالم من خلال فتح عدة نوافذ تكنولوجية تشتمل على القرآن الكريم من شرح وتفسير وغيرها.

- التّفاعل مع خطوط المصحف الشريف من بينها الخط العثماني.
- خاصية الاستماع للقرآن الكريم، ساعد على الحفظ السريع.
- الرجوع إلى صفحات الآيات في أي موضع في المصحف الشريف.
- أهمية اللون مما ساهد على اختيار اللون المناسب في قراءة القرآن الكـــريم، والشّعور بالراحة.
- التّحكم في الإضاءة شيء مهم بين الليل والنهار.
- تكبير وتصغير حجم صفحات المصحف الشريف.

الهوامش:

(1) سعيد بن كراد، فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية، نهضة الشـــرق العربي وموقفه إزاء المدنيّة الغربيّة، مرجع سابق، ص 07.

(2) أكرم صالح محمود خوالده، اللغة والتفكير الاستدلالي، دار الحامد للنشر والتوزيـــع، الأردن، 2016م، ص 19– ص 20 .

(3) محمود تيمور، مشكلات اللغة العربية، المطبعة النموذجية، مصر، دون تاريخ، ص 2018 .

(4) سمير عبد الرحمن الشميري، استخدام التقنية الحديثة في تعليم اللغة العربية وتعلمهـــا ونشرها وأثره في التواصل الحضاري، مجلة جامعة الناصر، مكتبة البحـــوث والنشـــر، العدد يوليو – ديسمبر، صنعاء، اليمن، 2013م، ص 133 .

(5) عمر ظاهر، تأملات في فلسفة اللغة، خصوصية اللغة العربية وإمكاناتهـــا، دار الرافـــدين، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1،1429هـــ –2008م ص 207 – ص 2018.

(6) جابر قميحة، أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في اللغة العربية، نادي المدينة المنورة الأدبي، الظهران، غرة محرم 1415ه، ص 5.

(7) عبد الرحيم عبد الجليل، لغة القرآن الكريم، كتبة الرسالة الحديثـــة، الأردن، عمـــان، ط1401،1هـــ –1981م، ص 08 .

(8) عدنان بن علي، اللغة العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء !، دار النحـــوي للنشـــر والتوزيع، الرياض، السعودية ط1429،1هـــ – 2008 م، ص 25–ص 26 .

(9) سمير عبد الرحمن الشميري، استخدام التقنية الحديثة في تعليم اللغة العربية وتعلمهـــا ونشرها وأثره في التواصل الحضاري، ص 133.

(10) عدنان بن علي، اللغة العربية بين مكر الأعداء وجفاء الأبناء! مرجع سبق ذكره، ص 34.

(11) سمير عبد الرحمن الشميري، استخدام التقنية الحديثة في تعليم اللغة العربية وتعلمهـــا ونشرها وأثره في التواصل الحضاري، ص 133.

(12) ينظر الحيلة محمد، تكنولوجيا التعليم من النظرية والتطبيـــق، درار المســـيرة للنشـــر والتوزيع، عمان، الأردن،2004م،ص 21 .

(13) هاني شحاذة الخوري تكنولوجيا المعلومات على أعقاب القرن الحـــادي والعشـــرين، مدخل تعريفي مركز رضا للكمبيوتر، دمشق، سوريا، ط1 ،1998،1، ص 13.

(14) لطفي بركات أحمد، التربية والتكنولوجيا في الوطن العربي دار المريخ للنشر الرياض المملكة العربية، دط،1399ه–1979م،ص09.

(15) محمد عطية خميس تطور تكنولوجيا التعليم دار قبـــاء للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع القاهرة، مصر،2001،ص299.

(16) يحى اليحياوي العرب وشبكة المعرفة دراسة في الموقع والواقع دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2008،1م،ص14.

[17] عبيد ميلود منقور نظرية الاتصال في التعليم، (محفزات ومثبطـــات)، مجلـــة اللغـــة والإتصال مختبر اللغة العربية الاتصال كلية الآداب واللغات والفنون جامعـــة وهـــران، الجزائر، العدد10، رمضان1426ه–2005م، ص113.

[18] فيصل دراج، هل هناك من حضارة إنسانية؟، مجلة يتفكرون، مؤمنـــون بـــلا حـــدود للدراسات والأبحاث، العدد التاسع، الرباط، المغرب،2016م، ص 40.

[19] بتصرف، تطبيق المصحف الذهبي والأشكال المرفقة مأخوذ من الموقع الآتي:

https://apps.apple.com/us/app/golden-quran-%D8%A7%D9%84%D9%85% D8% B5%D8%AD%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%87% D8%A8%D9% 8A/id852497554

[20] بتصرف، يتضمن النموذج الثاني عدة تطبيقات مختلفة.

https://www.arabefuture.com/2015/05/Top-10-apps-for-reading-and-hearing-the-Quran-on-Android.html

بلاغة أسلوب الحوار في القرآن الكريم

د. حياة بناجي
ملحق البحث. مركز البحث.
في اللّغة والثّقافة الأمازيغية، بجاية.

مقدمة: بسم الله الذي نوّرَ بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البُلغاء وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الفصحاء.

القرآن الكريم كتاب الله، ومعجزته الخالدة، تحدّى به المثقلين من الإنس والجنّ أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله، فعجزوا وما استطاعوا، وما استحقّوا على عجزهم لوما ولا عتابا، فأنّى لهم أن يأتوا بكلام القرآن، كلام حُفّ بالهيبة، وامتاز بالسّمو، وتكامل فيه الشّكل والمضمون، وتآلفا فكلّ منهما يخدم الآخر ويُقويه... فكان ذلك إعجازا بعد إعجاز، وواضح لنا جميعا أنّ التّحدّي بالإتيان بمثل القرآن لم يكن المقصود به الإعجاز العلمي أو نحوه، وإنّما قصد به إعجاز اللغة والبيان والبلاغة، والعرب الأوائل هم أهل ذلك، لكنّهم أمام القرآن وقفوا عاجزين يقلبون أكفهم من الحيرة، فيمتاز القرآن الكريم –عن غيره من الكلام– بميزات عدّة ومن بينها أسلوب الحوار، الذي تشبّع به هذا الكتاب، فجاء القرآن الكريم ليعرض الحوار بشكل متميّز يستدعي الانتباه ويلفت الأنظار، ويترك للعقول المجال الواسع لاستنباط العِبَر والعظات التي حفل بها القرآن العظيم، والتي جاءت في سور عدّة وجاءت تلك المحاورات لتتحدّث عن مواضيع مختلفة تهم كافة النّاس، وقد جرت تلك المحاورات بين أطراف متعدّدة، كلّها تعطي لنا دروسا كثيرة وجمّة، وتُشعرنا أنّ هذا الكتاب لم يأت به الله –عبثا– بل لفائدة عظيمة جليلة، ففي القرآن محاورات

عدّة، منها محاورات كان أحد طرفيها الله مثل حوار الله مع الملائكة، ومع إبليس، ومحاورات بين الرّسل وأقوامهم، أو المؤمنين مع الطّواغيت... فموضوع الحوار في القرآن الكريم من الموضوعات الهامة التي تدور –أساسا– حول الإيمان بالله وملائكته ورسله، وعلى وحدانيته وأحقيته بالعبادة دون غيره، والإيمان بالبعث والجزاء، وهذه العناصر الثلاثة من أهم قضايا القرآن الكريم، ولهذا كانت موضع جدل وحوار. جاء القرآن الكريم لغاية واحدة وحيدة، وهي هداية الناس للصّواب والحق، وأن يسلكوا وينتهوا الطّريق السويّ الصّحيح، ألا وهو طريق الحوار العقلي المجرّد من اتباع الهوى؛ لأنه أقرب طريق يوصل إلى الحق ويبعدهم عن طريق التعصّب واستخدام القوّة في تسوية الخلافات العقائدية والاجتماعية، كما يُعتبر الحوار العقلي قاعدة وأصلا لحلّ القضايا بعيدا عن القوّة، عرف العرب منذ الجاهلية في تراثهم القصصي، إلاّ أنّه لم يرق إلى المستوى الذي جاء به القرآن الكريم، فصار بذلك مصدرا لا يُضاهيه نظير، تفتّحت من خلالها مواهب العرب وسجاياهم، إذ لو لاه لما كان لهذه اللغة عزّ ولا شأن.

1- **الاعجاز اللّغوي القرآني:** إنّ القرآن الكريم معجزة للبشر، يؤدّي بدوره إلى التّسليم بأنّه من الله تعالى، وهذا يؤدّي –بدوره– إلى التّسليم بأنّ كلّ ما تضمّنه حقّ خاص، لا سبيل للباطل إليه، وأنّه الصّراط المستقيم، وحبل الله المتين، وأنّ العصمة والنّجاة في الاحتماء بحصنه، لقد بعث الله تعالى رسوله محمدا بالرّسالة الخاتمة، فكان خاتم الأنبياء والمرسلين، فأنزل الله عليه القرآن بلسان عربيّ مبين في أمّة أميّة لها باع طويل والقِدح المعلى في البيان والفصاحة وروعة الأسلوب، حتّى كانت لهم الأسواق ومنابر ومواسم يعرضون فيها أنفس البضائع، وادقّ وأجود وأبرع صناعتهم البيانيّة، إنّها بضاعة الكلام من الشّعر والنّثر والخطابة، وكان النّقد

والمناظرة حتّى يختاروا أروعها، وأحسنها في جوّ من التّنافس الشّديد ليتفاخروا بما قدّموه، ولتتناقله العرب بعد ذلك، تذوّقا للّغة التي تهذّبت كلماتها وأساليبها واختيرت ألفاظها أحسن اختيار، فنزل القرآن على سيّدنا محمّد وهي معجزته الكبرى، ودليله على النّبوّة، وأنّه لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، وقد وقف أئمّة اللّغة من العرب عاجزين أمام القرآن أن يحاكوه أو يُماثلوه في أزهى العصور للامّة العربية بيانا وفصاحة وبلاغة، فكان التّحدي بألفاظ القرآن وكلماته في فصاحته وبلاغته وبيان أسلوبه.

2- **الحوار في القرآن الكريم:** من أبرز الأساليب الحكيمة البليغة التي استعملها القرآن الكريم، في إقامة الأدلّة على وحدانيّة الله –تعالى- وعلى صدق الرّسل الكرام –عليهم السّلام- أسلوب الحوار من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتا لا يُنازعه ريب، ولا يخالطه شك، ومن الأدلّة على ذلك: أنّ مادة "القول" وما اشتق منها كقال، ويقول...هذه المادة التي تدلّ على التّحاور والمراجعة بين النّاس في أمور معيّنة قد تكرّرت في القرآن الكريم اكثر من ألف وسبعمائة مرّة[1]

يعتبر الحوار من وسائل الاتّصال الفعّالة، وتزداد أهميّته في الجوانب التربويّة، لأنّ الخلاف صبغة بشريّة، فإنّ الحوار من شأنه تقريب النّفوس وترويضها، وكبح جماحها بإخضاعها لأهداف الجماعة ومعاييرها، أولى القرآن الكريم أهميّة بالغة للحوار في مواقف الدّعوة والتربية، وجعله الإطار الفنّي لتوجيه النّاس وإرشادهم، إذ فيه جذب لعقول الناس وراحة لنفوسهم، كون الحوار القرآني بعيد عن كلّ الفلسفات المعقّدة، إنّ لغة القرآن حواريّة بكلّ تفاصيلها، ومحتوياتها ومقاصدها ومستوياتها. لم يرد لفظ حوار في القرآن الكريم بل ورد الفعل "حاور" والمصدر

"التحاور" ثلاث مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: 34] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف:37] وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[المجادلة:1]

تعريف الحوار: لغة: من الفعل (حاور) الرّباعي، يُحاور محاورة، حوارا، جاوبه/جادله[2] فالحوار في اللّغة مأخوذ من الحور؛ أي: تراجع الكلام[3]، وهو: الرّجوع عن الشّيء وإلى الشيء، والمحاورة: هي المجاوبة، والتحاور: هو التجاوب، وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام يقال حار إلى الشّيء وعنه حَوْرا ومحارا ومحارة رجع عنه وإليه، وكلّ شيء تغيّر من حال إلى حال، فقد حار يحور حورا، قال لبيد: ما المرء إلاّ كالشّهاب وضوئه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع[4] وقال الراغب الأصفهاني: "المحاورة والحوار: المراودة في الكلام ومنه التحاور"[5] وقد وردت المعاني المذكورة لكلمة الحوار في سياق الآيات الكريمة التي تضمّنت مادة "حور": قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق 14]، قال الإمام القرطبي في تفسيره للآية: "أي: لن يرجع حيّا مبعوثا فيحاسَب أو يُعاقب... فالحور في كلام العرب الرّجوع"[6] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:34] قيل في تفسير الآية: "أي يراجعه في الكلام ويجاوبه، والمحاورة المجاوبة، والتحاور: التجاوب"[7] كما جاءت مادة الحور في الأحاديث النبويّة الشّريفة بمعنى الرّجوع ومن ذلك قوله: "من دعا رجلا ﷺ بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك، إلاّ حار عليه"[8]، أي: "رجع عليه الكفر"[9] وقد ورد في حديث آخر أنّ النبي ﷺ كان يستعيذ من: "الحَوْر

والكوْر"[10] ومعنى الحديث أنه ﷺ كان يستعيذ من الرّجوع إلـــى النّقصـــان بعـــد الزّيادة[11] فتيّضح أنّ المعنى اللّغوي لكلمة الحور يدور حول:

- الرجوع عن الشّيء وإلى الشّيء، والمتحاورون قد يرجع أحدهم إلـــى رأي الآخر أو قوله أو فكره رغبة في الوصول إلى الصّواب والحقيقة.

- التّحوّل من حال على حال، فالمحاور ينتقل في حواره من حالة إلى أخرى، فمرّة يكون مستفسرا وأخرى يكون مبرهنا، وثالثة يكون منفذا، وهكذا.

- المراجعة في الكلام بين شخصين أو طرفين أو أكثر، والمحاورة هي تداول الكلام بين طرفين أو أطراف.

اصطلاحا: يقترب التّعريف الاصطلاحي للحوار من اللّغوي، وقد عُرِّف بأنّـــه: "مراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر دون وجود خصـــمة بيـــنهم بالضّـــرورة"[12]، وعُرّف أيضا بأنّه: "مناقشة بين طرفين أو أطراف ويُقصد بها تصـــحيح كـــلام، أو إظهار حجّة، وإثبات حق، ودفع شبهة، ورد الفاسد من القول والرّأي"[13] وممّا قيل كذلك في تعريف الحوار: "أنّه محادثة بين شخصين أو فريقين، حـــول موضـــوع محدّد لكلّ منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبـــر قدر ممكن من تطابق وجهات النّظر بعيدا عن الخصـــومة أو التعصّـــب، بطريقـــة تعتمد على العلم والعقل، مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة، ولو ظهرت على يد الطّرف الآخر"[14]، وقيل: "الحوار هو تبادل المعلومات والأفكار والآراء ســـواء كانت تبادلا رسميّا أم غير رسمي، مكتوبا أم شفويا، وينعقد الحوار بمجرّد التعرّف على وجهات نظر الآخرين، وتأمّلها وتقويمها، والتّعليق عليها..."[15]، كما عرّف ا. د صالح بلعيد أنّه: "فتح قنوات للحوار تبادل الأفكار، المحاورة والجدال"[16] يتبـــيّن من هذه التّعريفات أنّ المحاورة هي تجاذب الكلام بين مختلفين.

مصطلحات قريبة من الحوار: ثمّة مصطلحات قريبة مــن الحــوار مثــل "الجــدل" و"المناظرة" و"المحاجة" و"المناقشة" و"المباحثة" وقد تُستخدم بعض هذه المصطلحات مكان الحوار، أو معناه الأصلي، وقد فرّق بعض أهل العلم بين الحوار وهذه المصطلحات:

الجدل: لعلّ من المفيد أن نُفرّق بين الحوار والجدل تفريقــا واضــحا، يوضّــح مدلول كلّ منهما، فالحوار والجدال يلتقيان في أنّهما حديث أو مناقشة بين طــرفين، لكنّهما يفترقان بعد ذلك، عُرّف الجدل أنّه: "إظهار المتنازعين مقتضــى نظرتهمــا على التّدافع والتّنافي بالعبارة أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدّلالة"[(17)]، وعُــرّف بأنّه: "دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة"[(18)] وعرّفه ابــن منظــور بمعنى المخاصمة والمناظرة قائلا: "هو اللدد في الخصومة والقدرة عليهــا، يقــال: جادله مجادلة وجدالا: أي خاصمه، والاسم الجدل، وهو شــدّة الخصــومة، وقيــل الجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلــة: المنــاظرة والمخاصــمة"[(19)] أمّــا فــي الاصطلاح: "فهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيــل: الأصــل فــي الجدال الصّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالة وهي الأرض الصّلبة"[(20)] وقد ورد لفظ الجدل في القرآن الكريم والسنّة النّبويّة الشّريفة، وقد يكــون محمــودا أو مذموما، والمحمود فيه مرادف للحوار أو قريب منه، إنّ الحوار يتحوّل إلى جــدل مذموم إذا تخلّله اللّذة في الخصومة والمعارضــة والمنازعــة والتمسّــك بــالرّأي والتعصّب له دون وجه حق، فالجدل هو حوار بــين طــرفين يســوده المنازعــة والتعصّب للرّأي، وقد ورد الجدال في القرآن في تسعة وعشــرين موضــعا كلّهــا جاءت بالمعنى المذموم إلاّ في أربعة مواضع هي: - قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل 125]

وقولــه تعــالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة1] فقد فُسّرت المجادلة بالمراجعــة، وهــي المحاورة.

وقوله تعــالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود 74]

فالجدل لم يؤمر به ولم يمدح في القرآن الكريم، بل جاء مقيّــدا بالحســنى فــي الموضعين الثاني والثالث مجردا منها بمعنى الحوار الهادئ في الموضــعين الأوّل والرّابع، يمكننا التّمييز بين الجدل المذموم وبين الجدل الهادئ من خلال الغاية، فإن كانت حقّا فالجدال محمود لأنّه بمعنى الحوار الهادئ، وإلاّ فهو مذموم.

المناظرة: والمناظرة –أيضا– صورة من صور الحوار، وهــي تُفيــد النّظــر والتفكّر والبحث عن الحق عبر المحادثة وتبادل الرّأي مع الآخرين، ولذلك عرّفهــا الجرجاني بأنّها: "النّظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بــين الشــيئين إظهــارا للصّواب"[21]، وعرّفها محمّد أمين الشّنقيطي بقوله: "المحاورة فــي الكــلام بــين شخصين مختلفين يقصد كلّ واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قــول الآخــر، مــع رغبة كلّ واحد منها في ظهور الحق"[22].

البيان في الحــوار: إنّ قوّة التّعبير وفصاحة اللّسان وحسن البيان مــن أركــان المناقشة الجيّدة والحوار النّاجح، فينبغي على المحاور البــارع أن يضــبط كلامــه ويتقن لغته لأنّ الكلام المحكم الجميل الذي يخلو من الخطأ، والــذي تتّضــح فيــه مخارج الحروف، والذي يتوالى بانتظام وترتيب، يترك أحسن الأثر فــي السّــامع الذي يفهمه ويجعله يخترم قائله، فها هو ذا موسى –عليه السّلام –يدعو ربّه –عــزّ وجلّ– أن يحقّق له جملة من أشياء تعينه على محاورة فرعون، حيث قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: 25–28] ربط عليه السّلام جوهر اللّسان برسالته كلّها في فهم النـاس عنـه "يفقهوا قولي". فإذا كان مقصود الحوار هو الوصول إلى الحق فإنّ هذا لا يتأتّى إلاّ باستعمال الواضح من الألفاظ واجتناب المجمل منها، لأنّ المجمل يزيـد الخـلاف وربّما أدّى إلى انصراف الحوار عن مقصوده، وكان سـببا للحيـدة عـن أصـل المسألة، وليس من البيان استخدام الغريب من الألفاظ. ومن حسن البيان مخاطبـة الطّرف الآخر بما يعرف ويفهم، فلا يُطالب بأكثر منه.

نماذج الحوار في القرآن: قدّم لنا القرآن الكريم نماذج كثيرة من الحوار، منها ما دار بين الله ﷻ وملائكته في موضوع خلق آدم –عليه السّلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البقرة:30–32] ومنها ما دار بين الله سبحانه وتعالى وبين إبراهيم –عليه السّلام– عندما طلب من ربّه أن يريه كيف يحي الموتى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة:260] وبين موسى –عليه السّلام– حين طلب من ربّه أن يسمح له برؤيته حين قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿١٤٣﴾﴾[الأعراف:143] وبين عيسى عليه –عليه السلام– حين يسأله ربّه عما إذا كان طلب من الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة:116] ومنها الحوار في قصّة أصحاب الجنّتين في سورة الكهف حيث قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾﴾[الكهف34] وفي قصّة ابراهيم –عليه السّلام– حين همّ أن يذبح ابنه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾[الصّافات:102] وفي قصّة قارون مع قومه حيث قال تعالى: ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[القصص:76] وفي قصّة داود –عليه السّلام– مع الخصمين في قوله تعالى: ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾[ص:21–22] وفي قصّة نوح مع قومه حيث قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف:59] وفي قصّة شعيب –عليه السّلام– وقومه في قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾﴾[هود:84]

والأمثلة على ذلك كثيرة في الكتاب العزيز، وكلّها تدلّ على أهميّة الحوار، فـــالقرآن قد حفل بالشّواهد والأمثلة التي تبيّن معنى الحوار وأهميّته، وهذا إن دلّ علـــى شـــيء فإنّما يدلّ على ضرورة تفعيل الحوار بين الآخرين في كلّ وقت وحين، ومنها:

أ- الحوار الذي كان الله ﷻ طرفا فيه:

حوار الله سبحانه وتعالى مع الملائكة: هذا الحوار بدأ من اللحظة الأولى التي أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل في الأرض خليفة، ويقوم بدور الخلافة على الأرض، فأراد أن يخلق الإنسان تناط به هذه المهمة الصّعبة فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾[البقرة:30-32] في هذا النّموذج الحواري الذي يدور بين الله والملائكة، حكمة وأسلوبية، تتمثّل الحكمة في حوار اللّه الخالق الجبّار المتعالي مع مخلوق خلقه ليعلّمنا كيف نتحاور مع من نغلب درجة، فكان الحوار بين طرفين مختلفين في الدّرجة، فالله أعلى منزلة من الملائكة لكنّه تحاور معها، وليشرح لنا أهميّة الحوار في عزّ الحياة اليوميّة قبل أن يفعل الإنسان أي شيء فالله ﷻ وجلّ كان بإمكانه خلق الإنسان دون أن يُخبر الملائكة بذلك، لكنّه لم يفعل، ففي الحوار تربية أمّا الحكمة الأسلوبية تتمثّل في الحوار ذاته، فلو استعمل السّرد لما كان للآية ذلك الرّونق ولمّا أدّت وظيفتها البلاغيّة، فلو استعمل أسلوب السّرد المباشر يستطيع الإنسان أن يقرأها دون أن تثير انتباهه، لكن بأسلوب الحوار لا يمكن للإنسان أن يمرّ عليها مرور الكرام، دون أن يتأمّلها، يقرأها ويعيد قراءتها، وكأنّه يعيش داخل ذلك الحوار.

حوار الله ﷻ مع الرّسل: حوار الله مع الأنبياء والرّسل الذين كان يرسلهم لأقوامهم، سواء كان معهم كتاب سماوي، أم بعض الصّحف والألواح، ولكن في هذا النّموذج الحواري بين الله وأحد الرّسل يكون هدفه إظهار مقدرة الله تعالى الفاعلة في كلّ شيء، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة 260] سأل إبراهيم عليه السّلام ربّه كيف يحي الموتى، لكّن لم يسأله سكّا أو تعنتا، لكنّه ليترقّي من بذلك من علم اليقين إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة بعد أن رآه إيمانا ويقينا، فسأله الله ﷻ "أو لم تؤمن؟" فأجابه بالإيجاب، وبيّن إبراهيم سبب السّؤال وهو: ليزداد سكونا وطمأنينة[23] نلاحظ –كذلك– جماليّة وبلاغة الحوار في هذه الآية، فكان بإمكانه سبحانه وتعالى أن يستغني عنه ويسرد الأحداث سردا مباشرا مثل طلب إبراهيم من ربّه أن يراه، ليطمئنّ قلبه، فطلب منه تعالى أن يأخذ أربعة طيور ويتركها في الجبال ثم ينادي عليها فتأتيه، لكنه ﷻعمد إلى أسلوب الحوار، لما يتضمّنه هذا الأخير من إقناع وتأثير في نفس القارئ والسّامع، ومن الفوائد والأحكام المستنبطة من هذا الحوار:

- إثبات قدرة الله على إحياء الموتى، مهما تلاشت أجزاؤها، وتطاول الزّمـــان على موتها.
- حرص إبراهيم –عليه السّلام– على الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين.

فجسّدﷻ معجزاته، في إعجاز لغوي وبلاغي.

حوار الله ﷻ مع إبليس: ويُعتبر هذا النّموذج من أخطر النّماذج الحواريّة في القرآن الكريم، حيث أنّ هذا النّموذج هو الذي يمثّل فيه سبحانه وتعالى رمز الحق

المطلق والخير المطلق فيحاور رمز الشرّ المطلق والباطل المطلق؛ ألا وهو إبليس عليه لعنة الله، وكأنّ الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع فلسفة مهمة لبني الإنسان، تقضي إلى إمكانية الحوار، والتّفاهم بالطريقة الحوارية مع الآخر، أو إقامة الحجّة عليه ولو كان يمثل النقيض لفلسفة الخير، وهذه هي معجزة الحوار في القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف11–18] فما أعجز هذا الأسلوب حوار بين الله وإبليس، لكنّ الله سبحانه وتعالى لم يستعمل ضمير المتكلّم "أنا قلت" بل استعمل ضمير الغائب "قال" لجذب انتباه القارئ والسّامع فهي آية من آيات الإعجاز القرآني.

ت– حوار لم يكن فيه الله ﷻ طرفا:

الحوار بين الرّسل –عليهم السّلام– وأقوامهم: اقتضت حكمة الله تعالى، ورحمته بعباده، أن يختار بمحض فضله وكرامته من يصطفيهم من خلقه، ممن ميّزهم بخصائص لا يشاركهم فيها غيرهم رسلا في كلّ أمّة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36] إنّ أهمّ أهداف الرّسل أن يُحرّروا البشريّة من عبادة العباد، وتأليه الأشجار والأشجار والكواكب، وأن يوصلوها إلى عبادة الله وتوحيده، وبيان أسمائه وصفاته، وأن يُبيّنوا لهم الحقائق الأخرى التي يمكن للإنسان أن يُدركها بعقله، كالبعث والحساب

والجزاء على الأعمال في اليوم الآخر، حتى يؤمنوا ويُصدّقوا بها، ثمّ بيان طــرق الخير والشّر، ووضع قواعد الحق والعدل ليســود الأمــن والاســتقرار المجتمــع الإنساني وقد استخدم الرّسل -عليهم السّلام- أسلوب الحوار في دعوتهم أقــوامهم، لما لهذا الأسلوب من نتائج طيّبة وآثار إيجابيّة في الدّعوة على الله تعالى.

الحوار بين نوح عليه السّلام وقومه: أرسل الله تعالى نوحا -عليه السّلام- إلى قومه قال تعــالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: 59] فها هــو ذا نــوح -عليــه السّلام- يطلب من قومه عبادة الله وحده، ولا يدخّر وسعا في سبيل دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى دون سواه، قــال تعــالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: 25-26] فرسالة نوح رسالة كلّ نبي في الدّعوة إلى الإيمان باللّه تعالى وتوحيده، وإفــراده بالعبــادة والخضوع والطّاعة.

قام نوح بواجبه في دعوة قومه إلى عبادة الله وحده، وبلّغهم الدّعوة كما أمره تعالى، وقد سلك معهم مختلف الأساليب والوسائل في الدّعوة، بهدف إقناعهم والتّأثير فيهم، ليتخلّوا عن باطلهم، ويتّبعوا الحق ويتمسّكوا به، "فمن أسلوب الترغيب، إلى أسلوب التّحبيب، إلى أسلوب التّهييب، إلى أسلوب البرهان، إلى الدّعوة في كتمان، ثمّ في إعلان، إلى الدّعوة في اللّيل، إلى الدّعوة في النّهار"[24] وهذا بؤرة الإعجاز وسُرّة المعجزة في القرآن الكريم، فها هو ذا يتحبّب إليهم بقوله ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59] فقوله يا قوم تقرّب منهم وتحبّب لهم، ليقبلوا دعوته، وفي قوله "إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم" إشعار برحمته لهم وشفقته عليهم، فمن أجل ذلك يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته

وحده لا شريك له، وهو يرغّبهم بنيل الخير والبركة إن استجابوا لدعوته: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: 10-12] أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرّزق عليكم، وأسق لكم من بركات السّماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وانبت لكم الزّرع، وأدرّ لكم الضّرع، وأمدّكم بأموال وبنين أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنّات فيها أنواع الثّمار، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها، فهذا مقام الدعّوة والتّرغيب، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالتّرهيب[25] فهذا المزج من الأساليب يهدف إلى الإقناع. كما دار الحوار بين نوح -عليه السلام- والملأ من قومه، الذين كانوا يقودون أتباعهم الكافرون، ويُوجّهونهم لمواجهة نوح. وتخبرنا آيات القرآن العظيم في قصّة نوح -عليه السّلام- أنّ هؤلاء الملأ هم الذين قادوا قومهم في مواجهته، وهم الذين أثاروا الشّبهات ضدّه، وضدّ أتباعه ودعوته، وقدّموا طلباتهم، ووجّهوا تهديداتهم إليه، "وقد واجه نوح هؤلاء الملأ وفنّد شبهاتهم، ولم يستجب لطلباتهم، ولم يرضخ لتهديداتهم، وإنّما تحدّاهم، وحاربهم، واستعلى عليهم بإيمانه، متوكّلا على الله ربّه"[26] وها نحن نسير مع آيات القرآن الكريم لنقف على أهمّ محطّات الحوار التي دارت بين نوح -عليه السّلام- وبين الملأ من قومه، قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣﴾ [الاعراف: 60-63] هذا ردّ نوح -عليه السّلام- على اتّهام قومه له، حيث حاورهم قائلا: أنّي لست ضالا كما تزعمون، ولكنّي رسول من ربّ العالمين، وجاء الحوار في أسلوب بسيط هادف ومُقنع.

- **الحوار بين نوح –عليه السّلام– وابنه الغريق:** ركب نوح –عليه السّلام– والمؤمنون السّفينة وحمل معه زوجين اثنين من كلّ الأحياء، ولما دخل نوح السّفينة قال: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: 28–29] ولمّا أركب نوح –عليه السّلام– أتباعه المؤمنين في السّفينة وسارت السّفينة في وسط الأمواج، ونظر نوح فرأى ابنه الكافر من بعيد، فدعاه لركوب السّفينة، ولكنّه أبى ليبدأ حوار آخر، عندما تتدخّل عاطفة الأبوّة لدى نوح –عليه السّلام– وهو يرى ابنه يغرق في الطّوفان، فتوجّه إلى الله بأن ينجي له ابنه، فقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: 45–47] فجاء الحوار للإقناع وتثبيت العقيدة، ففي هذه الآيات حكمة تتمثّل في سواسية الناس عند الله، رغم أنّه ابن نوح له يستطع أن ينجّيه، فدائرة القرابة في الدّعوة تتجاوز الرّابطة الدّمويّة، وأسلوب بلاغي يتمثّل في الحوار الذي دار بين نوح وابنه، كما يتضمّن الحوار تخويفا، لا عاصم اليوم، تذكير بالعقاب وتخوف، فالقارئ يُدرك قدرة اللّه، فكان بإمكانه ﷻ أن يسرده مباشرة "طلب نوح من ابنه الرّكوب فأبى..." كما لم يستعمل الله سبحانه وتعالى ضمير المتكلّم.

- **حوار هود – عليه السّلام مع قومه–:** دعا هود قومه إلى إفراد العبادة لله واتّباع أوامره سبحانه وتجنّب نواهيه، ثمّ حرص على التحبّب إليهم بأسلوب التّرهيب والتّرغيب، فقال: تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: 52].

– **حوار إبراهيم –عليه السّلام– مع والده**:كان أبو الأنبياء إبراهيم –عليه السّلام– نبيّا ورسولا وطلب الله تعالى منه أن يدعو الناس إلى التوحيد، ومن المنطقي أن يبدأ بدعوة أقرب الناس إليه، ولذلك كانت الخطوة الأولى في خطوات تبليغه الرّسالة هي أن يدعو أباه إلى الله عزّ وجلّ[27]. كان عليه السّلام في منتهى التعقّل والهدوء واللّين وهو يدعو أباه، إنّه لم ينس لحظة واحدة أنّه أبوه، وهو يعرف له حقه، ولذلك لم يكن جافيا قط في مخاطبة أبيه –على الرّغم من كفره وعناده– ولكن الأب كان على عكس الابن تماما فقد قابل إبراهيم بكلّ عنف ونكران قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: 41–47] فنلاحظ أسلوب الحوار في هذه الآية، يشخّص لنا خوف الابن على أبيه، ومحاولته هدايته إلى الطّريق المستقيم، فالهداية يمكن أن تكون من الصّغير للكبير.

– **إبراهيم –عليه السّلام– يهدي قومه بالحوار**: كانت المحطّة الثّانية لإبراهيم –عليه السّلام– بعد دعوته لأبيه، انتقاله إلى قومه، ليدعوهم إلى التّخلّي عن الكفر، وترك عبادة الأصنام، والإيمان بالله وحده وكان أبوه من جملة المدعوين من قومه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي

بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾[الأنعام: 76–79] بدأ بمحاورة قومه عندما جنّ اللّيل عليه، وستره الظّلام، فرأى كوكبا ممّا يعبدون، وهو بين جماعة منهم يتحدّثون ويسمرون، فقال "هذا ربي" طريق في الحوار حكيم ومنهج في الكلام قويم، انظر غليه يحاكيهم في اعتقادهم، ولا يعلن مخالفتهم، ولا يسفه أحلامهم، فذلك أدعى إلى إنصاتهم لقوله، وتفهّمهم لحجّته، ثمّ لم يلبث على قولهم ينقضه، ورجع إلى مذهبهم يريّفه، ولكن من طريق خفيّ، ينبئ عن سداد رأي، ونقاء بصيرة، فلمّا أفل هذا الكوكب، تفقّده فلم يجده، فقال: لا أحبّ الآلهة المتغيّرين من حال إلى حال، ثمّ عرّض بآلهتهم وأعلن بغضه لها وتبرّأ من حبّها، ولمّا رأى القمر بازغا، وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب، وأكبر منه حجما، وأكثر نفعا قال: "هذا ربّي" استدراجا لهم واستهواء لقلوبهم، فلما أفل واختفى نوره قال: ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾ [الأنعام] تأكيدا على أنّ الله مصدر الهداية، ومانح التّوفيق عند الشّك والحيرة، ثم رأى الشّمس بازغة يتألّق نورها وينبعث شعاعها، وقد كست الدّنيا جمالا، ملأت الأرض حياة وبهاء، فقال: "هذا ربّي" فلمّا أفلت مثل غيرها، وغابت عن عبّادها رماهم بالشّرك، ووسمهم بالكفر، فقال إنّي بريء ممّا تُشركون، فهذه الكواكب تنتقل من مكان إلى مكان، وتتحوّل من حال إلى حال، لا بدّ لها من خالق يدبّرها ويُحرّكها، فهي لا تستحقّ عبادة ولا تكريما ولا تعظيما[28] فنلاحظ التدرّج في الحجّة والإقناع، واتّخاذ المنطق السّليم والحكمة فقد استعمل عليه السّلام، الحوار لبلوغ غايته المرجوة لتقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى في أذهان قومه الذين يعكفون على عبادة الأصنام، كما نلاحظه يخاطب العقل صاحبا معه الدّليل الواضح لأثبات بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل، فاستدرجهم بعد

أن أقام عليهم الحجة، حين خاطب القلب والفطرة، وبذلك قطع عليهم زيغهم وكشف نواياهم بدقّة.

- **حوار شعيب -عليه السّلام- مع قومه:** إنّ موضوع المحاورة بين شعيب وقومه هو الإصلاح، وهي تختلف عن محاورة نوح -عليه السّلام- مع قومه، المنصبّة كلّها على العقيدة، لأنّه إذا نجح في إقناع محاوريه بوحدانية الله تعالى، فتغيير السّلوك سياتي بطبيعة الحال تبعا لذلك، حيث إنّ المؤمن سيبحث من تلقاء نفسه عمّا يرضي ربّه من السّلوك، وأمّا محاورة شعيب -عليه السّلام- فكانت شاملة للسّلوك والعقيدة، لأنّه يرى أنّ الموضوع متكامل لا داعي لتجزئته، وربّما كان لاختلاف نوعيّة المحاورين أثر في ذلك، فإنّ انحرافات السّلوك وظهور المساوئ في سلوك العامة، وهم محاورو شعيب أوضح منه في سلوك السّادة وهم محاورو نوح، فإنّ السّادة أقرب إلى تجنّب مساوئ السّلوك أو إلى إخفائها، وإذا لم يكن حبّا في الاعتدال، فللمحافظة على السّيادة، وبناء على ذلك يكون أوضح مساوئ محاوري نوح العقيدة، فركّزة في المحاورة عليها، أمّا محاورو شعيب فكانت مساوئهم شديدة الوضوح في العقيدة والسّلوك معا، ففي الحوار الذي دار بين شعيب وقومه قال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾[هود: 84-86] فبدأ حواره معهم بدعوتهم إلى عبادة الله ووحدانيّته، ثمّ أعقبه بالنّهي عن مظلمة كانت متفشيّة فيهم وهي خيانة المكيال والميزان، فقال: "ولا تنقصوا المكيال والميزان..." ثم واصل حواره معهم،

بأمرهم بوفاء المكيال والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثو في الأرض مفسدين، فقد أرشد عليه السّلام قومه إلى ما يصلحهم في عقائدهم ومعاملاتهم، وفي صلاتهم بعضهم ببعض، وفي سلوكهم الشّخصي، بأسلوب حكيم جامع لكلّ ما يسعد ويهدي إلى الحق[29] وسلك في نهيهم عن الفساد مسلك التدرّج، فابتدأه بنهيهم عن نوع من الفساد استشرى بينهم وهو التّطفيف، ثم ارتقى فنهاهم عن الجنس الأعلى للفساد الشامل لجميع أنواع المفاسد وهو الإفساد في الأرض، وهذا من أساليب الحكمة في تهيئة النّفوس بقبول الإرشاد والكمال.

- **ردّ قوم شعيب –عليه السّلام– على دعوته:** إنّ القوم قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد وسوء الاستغلال فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87] وهو ردّ واضح التهكّم، بين السّخريّة في كلّ مقطع من مقاطعه –وإن كانت سخريّة الجاهل والمعاند بلا معرفة ولا فقه– فهم لا يدركون، أو لا يريدون أن يدركوا. وأنّ الصّلاة من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبوديّة، وأنّ العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله تعالى، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنّها لا تقوم إلاّ بتنفيذ شرائع الله في التّجارة وفي تداول الأموال، وفي كلّ شان من شئون الحياة والتّعامل، فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصّلاة وعن شرائع الحياة. وهنا نلاحظ أنّ قوم شعيب لم يقولوا له أئلهك أو أدينك يأمرك، وإنّما قالوا أصلاتك...لماذا؟ لأنّ الصّلاة هي الرّكن الدّائم الذي لا يسقط أبدا، والله تعالى يقول عنها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت 45] وما دام الشّيء له نهي فله أمر فإذا كانت الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بدّ أنّها تأمر بالإيمان وبالالتزام وبالمعروف، ولا بدّ أنّها تأمر بالخير والبرّ. وقولهم: "إنّك

لأنت الحليم الرّشيد" الحليم العاقل الكامل في أناته وترويه، فلا يتعجّل بــأمر قبــل الثّقة من صحّته، والرّشد الرّاسخ في هدايته وهديه، فلا يأمر إلاّ بما استبان له مــن الخير والرّشد، ووصفه بهما مؤكّدا صريح في الاستهزاء بـــه، والتعــريض بمــا يعتقدون من اتّصافه بضدّهما، وهو الجهالة والسّفاهة في الرّأي والغواية في الفعل، فلسر شعورهم بالهزيمة وانعدام الحجّة للرّد عليه، لجأوا إلى الشّتم، فلجوء الخصــم إلى الشّتم في أي مناظرة أو محاورة معناه الهزيمة، أو بدايـــة الشّــعور بهــا، لأنّ الحجج والبراهين هي سلاح المحاورة.

– **موقف شعيب عليه السّلام– من ردود قومه على دعوته:** تلطّف شعيب مع قومه تلطُّف صاحب الدّعوة الواثق من الحقّ الذي معه، وأعرض عن تلك السّخريّة التي لا يُبالي بها، وهو يشعر بقصورهم وجهلهم، يتلطّف في إشعارهم أنّه على بيّنة من ربّه، وأنّه على ثقة ممّا يقول لأنّه أوتي من العلم ما لم يؤتوا، وأنّه إذ يدعوهم إلى الامانة في المعاملة سيتأثّر بنتائجها لأنّه مثلهم ذو مال وذو معاملات، فهــو لا ينبغي كسبا شخصيّا من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلــو له السّوق، إنّما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس، وليس في ما يــدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهّمون، فها هو ذا يواصل حواره معهــم: قــائلا: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود 88]. ثم يواصل حواره معهم، وينتقل بهم إلـــى تــذكيرهم بمصارع السّابقين، محذّرا إيّاهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظّالمين من قبلهم فيقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود 89]، ثم فتح لهم باب الأمل في رحمــة

الله تعالى، إن هم تـــابوا فقـــال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود 90] نلاحظ روعة الآية الفنّية فالقارئ تسوقه الأحداث وكأنّه يعيش داخل القصّة، حيث نجد شعيب –عليه السّلام– يلوّن لقومه نصيحته، وينـــوّع لهـــم العظة، ويطوف بهم في مجالات التّرغيب والتّرهيب، ويحاورهم بشتى الأســـاليب لإقناعهم.

– **نتيجة المحاورة بين شعيب –عليه السّلام– وقومه:** إنّ قوم شعيب –عليـــه السّلام– بلغوا النّهاية في الفساد –كما حكى القرآن عـــنهم– ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١﴾ [هود 91] فانتقل شعيب –عليه السّلام– في أسلوب محاورته لقومه من اللّـــين إلـــى الشدّة، ومن التلطّف إلى الإنكار، فيقول لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ۝٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ۝٩٣﴾ [هود 93] فذكّرهم شعيب –عليه السّلام– بمن هـــو أقـــوى، أي إنّكم تخافون عشيرتي وعائلتي وهم عدّة أفراد، فتمتنعون عن إيذائي خوفـــا مـــنهم، ولكنّكم لا تخافون الله القادر على أن يُهلككم، ثم يستعمل عليه السّـــلام مـــع قومـــه التّهديد والوعيد حين قال: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامـــل﴾ فهـــذا أمـــر وتهديد ووعيد من واثق بربّه سبحانه وتعالى.

– **هلاك قوم شعيب عليه السّلام:** قـــال تعـــالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ۝٩٤﴾ [هود 94] وهكذا نرى أنّ شعيبا قد جادل قومه بالتي هـــي أحســـن، وحاورهم وناقشهم بأسلوب جمع ألوانا من الهدايات ووضع كلّ كلمة قالها لهم فـــي

الموضع الذي يناسبها ، وخاطبهم بأحكم منطق وأبلغ بيان، ولكنّهم قابلوا كلّ ذلك بالكلام القبيح، وبالتّطاول والغرور، وبالتّهديد السّاخر، والوعيد الظّاهر، فكانت عاقبتهم الخسران، وممّا يلفت النّظر في هذا الحوار –أيضا– أنّ شعيب –عليه السّلام– لم يرد الدخول معهم في صراع القوّة بإثارة شعور العصبية العائليّة لدى رهطه، ليقفوا معه في لعبة العصبيات التي لا علاقة لها بدعوته إنّما حاول أن يثير فيهم فكرة الانطلاق بالصّراع في خطوات سليمة، ليأخذ الفكر مجاله الهادئ بين المؤمنين وغير المؤمنين، لأنّ الصّراع الفكري فائدته لدى جميع الأطراف، وفيه هذا حكمة وإعجاز.

– **الحوار في قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف:** هي قصّة الرّجل الكافر صاحب الجنّتين الذي بطر بسبب النّعمة، وأنكر لقاء الله تعالى، فعاش لدنياه وشهواته فحسب، وقصّة الرّجل المؤمن الصّابر، الذي أنفق ماله ابتغاء وجه الله، وقدّم من العمل الصّالح لآخرته وما يُقرّبه من ربّه عزّ وجلّ، وقد جمعت بينهما الأيام بهذا المكان الذي جرى فيه ذلك الحديث، وتلك المحاورة التي قصّها علينا القرآن الكريم(30) حيث قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: 32–36] هذه بداية القصّة، قصّة الثريّ، صاحب الجنّتين والحديقتين الواسعتين المحفوفتين بالنّخيل، وسائر أنواع الأعناب، وفيهما الثّمار الزّاهية، والأنهار الجارية، والفواكه المتنوعة، وقد أغدق الله عليه بالعطاء، وأفاض عليه

النعمة، فبدل أن يشكر ربّه على نعمه وإفضاله، جحد وكفر، واستكبر على عبادة خالقه، وأنكر الآخر وأخذ يجادل صديقه المؤمن بأسلوب فيه الزّهو والافتخار والتّعالي والاستكبار وهكذا شأن عبيد الدّنيا، يُخدعون بأموالهم وتفتنهم الحياة ببهجتها وزينتها، ثمّ تكون النّتيجة الهلاك والدّمار[31] فبدأت مرحلة التمرّد والطّغيان التي تكون بدايتها الإحساس العميق بالأفضلية والتّعالي على الآخرين، ثم يتضخّم هذا الإحساس تدريجيا، حتى وصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظنّ معها أن هذه الثّروة والجاه والمال والنّفوذ إنّما هي أمور أبديّة، ثمّ يقبل عليه شريكه المؤمن ناصحا ومذكّرا، وداعيا له إلى الإيمان، على ما أعطاه الله من الفضل والإحسان، ويحاوره ويجادله بالحكمة والموعظة الحسنة، فيبيّن له أنّ الله تعالى لما قدّر الابتداء وجب أن يقدر على الإعادة، فقال: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف:37–38] ففي هتين تلميح إلى خلق الإنسان في الابتداء، كما أنّه لما خلقك هكذا فلم يخلقك عبثا، وإنّما خلقك للعبوديّة، وإذا خلقك لهذا المعنى، وجب أن يحصل للمطيع الثّواب وللمذنب العقاب، ثم قال المؤمن "ولا أشرك بربّي أحدا" وهذه لها عدّة معانٍ:

– أنّي أرى الفقر والغنى إلاّ منه عزّ وجلّ فأحمده إذا أعطى وأصبر إذا ابتلى، ولا أتكبّر عندما ينعم عليّ، ولا أرى كثرة المال والأعوان من نفسي، وذلك لأنّ الكافر لمّا اعتزّ بكثرة المال والجاه، فكأنّه قد أثبت لله شريكا في إعطاء العزّ والغنى.

– لعلّ ذلك الكافر مع كونه منكرا للبعث كان عابد صنم، فبيّن هذا المؤمن فساد قوله بإثبات الشّركاء[32] ثم واصل المؤمن في محاورته للكافر فنصحه قائلا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ

رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف39-41] حيث يوضّح المؤمن للكافر أنّ الأشياء مقدّرة بمشيئة الله إن شاء أفقر، وإن شاء أغنى وإن شاء نصر، وإن شاء خذل ثمّ تمنى الرجل المؤمن أن تذهب أشجار صاحبه ونباته، ويبقى له أرض ذهبت منافعها، حتى منفعة المشي فيها فهي وحل، ولا تُنبت ولا تثبت فيها قدم، وأن يُصبح ماؤها ذاهب في الأرض لا يُستطاع تناوله، ثم ينتهي الحوار حين تطالعنا السّورة الكريمة بالمفاجأة المدهشة، فيتحقّق رجاء المؤمن، بزوال النّعيم عن ذلك الكافر المتغطرس، وفجأة ينقلها السّياق من منظر البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدّمار ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف:42-43] ومعنى قوله تعالى: "أحيط بثماره" أهلك الله أمواله المعهودة من جنّتيه وما فيهما، ففي هذا الحوار إعجازا بلاغيّا ولغويّا، حيث نلاحظ تجسيدا حيّا لما نطلق عليه اسم غرور الثّروة، فهذا الغرور خاتمته الشّرك والكفر فعندما يصل الأفراد الذين يعيشون حياتهم بلا غاية أو هدف إيماني، إلى منزلة معيّنة من القدرة المالية أو الوجاهة الاجتماعيّة، فإنّهم في الغالب يُصابون بالغرور. فالحوار هنا لم يأت عبثا بل بهدف إقناع القارئ وتذكيره بالله، وحثّه على الإيمان بالواحد القادر على كلّ شيء.

- **الحوار بين السّادة والأتباع الذين أضلّوهم (يوم القيامة):** التبعيّة قضيّة خطيرة، ومسالة حياتيّة هامّة، من أهمّ وأخطر القضايا التي يعيشها النّاس دائما، ويتفاعلون معها، سلبا أو إيجابا، لا تنفك عنهم ولا تنفصل عن حياتهم، مهما كان مستواهم الحضاري، في أيّ زمان أو مكان، الأتباع والمتبوعون موضوع قرآني،

من الموضوعات البارزة التي عرضها القرآن وناقشها وعالجها، موضوع عرضه القرآن الكريم عرضا حيا، وناقشه نقاشا علميّا موضوعيّا، وعالجه علاجا ناجحا محدّدا، وللتبعيّة آثار ونتائج خطيرة ووخيمة، على المستوى الفردي والجماعي، والسّياسي والاقتصادي، والأخلاقي والمحلّي والدّولي لقد كان لوجود الأتباع والمتبوعين عند الأمم السّابقة، أثر مباشر على ما أصاب تلك الأمم من عقاب ودمار وعذاب وهلاك، ولوجود الأتباع والمتبوعين عند الشّعوب والدّول المعاصرة، أثر مباشر على واقع هذه الشّعوب والدّول، وعلى المستوى الذي تعيشه في حياتها، وله أثر مباشر على ما ينتظر هذه الأمم والشّعوب من أحداث وتطوّرات في مستقبلها[33] فالآيات القرآنية التي عالجت الحوار الذي يدور بين الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، تكشف خفايا المتبوعين وسرّ انحرافهم، وندم الأتباع يوم القامة حيث لا ينفع النّدم. حيث قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾[البقرة: 165–167] نقلت لنا هذه الآيات حوارا حيّا بين الأتباع والمتبوعين، حيث تبرّأ المتبوعون من أتباعهم، وندم الأتباع على فعلتهم، حيث أغرّهم المتبوعون، فندموا على ما فرط من أعمالهم الرّديئة عندما رأوا العقاب عليها، ومصيرهم النّار مخلّدون فيها، بسبب كفرهم، وندمهم وحسرتهم لا ينجيهم من الخلود في النّار.

– **حوار أهل النّار وتخاصمهم:** قال تعالى ينقل لنا حوار أهل النّار وتخاصمهم: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ

أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٣٩﴾[الأعراف: 38–39] ففيه إعجار بلاغي ولغوي، كونه يهدف إلى الموعظة والإرشاد، فاستعمل وسائل تخاطب العقل والعاطفة، لتزيد المؤمن إيمانا بعد إيمان وتهدي الكافر إلى الطّريق المستقيم، بهذا الترهيب والتّخويف، والتّذكير.

– **الحوار بين الضّعفاء والمستكبرين:** إنّه مشهد مؤثّر، يصوّر الأتباع والمتبوعين يوم القيامة، يرينا الأتباع الضّعفاء، وهم يذوبون حسرة وندما، ويرينا المتبوعين المستكبرين وهم يتبرّؤون من أتباعهم، فقال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ۝٢١﴾ [إبراهيم: 21] فكأنّه مشهد حيّ للاعين.

– **المناظرة بين الشّيطان وأتباعه:** قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٢﴾ [إبراهيم:22] فبعد أن ذكر الله المناظرة التي وقعت بين الرّؤساء والأتباع من كفرة الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشّيطان وأتباعه من الإنس، "فلمّا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة وأهل النّار في النّار ، أخذ أهل النّار في لوم إبليس وتقريعه، فيقوم في النار في ما بينهم خطيب ويقول: إنّ الله وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفّى لكم بما وعدكم، ووعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم الوعد، ولم يكن حجة

عليكم ولا قدرة، ولكن دعوتكم إلى الضّلالة بوسوستي وتزييني، فكان من الواجب عليكم ألاّ تغترّوا بقولي ولا تلتفتوا إلى حجّتي الواهية"[34]

– **الحوار بين الأتباع والمتبوعين استكبار وندامة:** سجّلت لنا بعض آيات من سورة سبأ مناظر الحوار بين الأتباع والمتبوعين وسط جهنّم، ومواقف التلاوم والنّدامة[35]؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾[سبأ31–33] نقلت لنا هذه الآيات صور حيّة عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وبما أخبر به من أمر المعاد، كما عرضت تهديد الله لهم مخبرا عن مواقفهم الذّليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاورهم بين الاتباع (المستضعفين) والمستكبرين وهم القادة، لم يقبل المتبوعون المستكبرون الاتّهام، فيرجعون القول للأتباع، ويُحمّلونهم مسؤولية ما جرى لهم، أي: "إنّكم دخلتم في الكفر ببصائركم، وأجرمتم بنظر منكم، ودعوتنا لم تكن ملزمة لكم، يتواصل الحوار بين الأتباع والمتبوعين، ويردّ الأتباع على سادتهم مرّة أخرى بعد أن لم يقتنعوا بما قاله السّادة الكبار، وينتهي الحوار بين الأتباع والمتبوعين، بعد أن كشف كلّ فريق ما عند الآخر، وبيّن لنا سبب انحرافه، وأطلعنا على حقيقة الصّلة بينهما، وفي نهاية هذا الحوار يظهر النّدم والحسرة على الفريقين. أضمر الفريقان النّدامة، المتبوعون لأنّهم ضلّوا وأضلّوا، والأتباع لأنّهم

اتّبعوا المستكبرين، وحاول كلّ فريق إخفاء النّدامة عن الآخر مخافة الشّتامة، وسيقوا إلى العذاب والأغلال في أعناقهم لزيادة الحسرة في نفوسهم، هذه هي النّهاية المخزية لاستضعاف المرذول أما الاستكبار المقيت.

– **الحوار بين الخير والشّر في قتل النّفس:** من صور المحاورات التي حدثت بين الأخيار والأشرار، ما قصّه القرآن الكريم علينا في قصّة ابني آدم –عليه السّلام– في إطار الحوار، فقد استخدم القرآن الكريم الحوار لتصوير شخصيتين في وضعيتين متقابلتين، وذلك بأن تقف الشّخصيتان في حادثة معيّنة موقفين متباينين، ثمّ ينطلق الحوار ليعبّر عن المعاني التي تجيش في نفس كلّ منهما، قال تعالى: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة:27–31] ففي هذه الآيات: "يأمر الله تعالى نبيّه محمّدا ﷺ أن يتلو على بني إسرائيل خبر ابني آدم –عليه السّلام– وكان هابيل صاحب غنم فنظر إلى خير كثير فتقرّب إلى الله تعالى، ونظر قابيل إلى شر قمحه فتقرّب به إلى الله، فقبل الله تعالى قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل، فحسد قابيل هابيل وهمّ بقتله، ولكنّ هابيل قال لأخيه: لئن بدأتني بالقتل فما أنا بالذي أبدئك بالقتل، لأنّي أن ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي من أجله بم يتقبّل قربانك، وشجّعته نفسه على قتل أخيه وزيّنت له القتل ففعل، فخسر الدّنيا والآخرة، فبعث الله تعالى غرابا يثير

التراب من الأرض ليعلّم قابيل كيف يستر جيفة أخيه، وهكذا شعر بالنّدم على فعلته النّكراء"[36] فبدأ الحوار بين الأخوين حين توعّد الأخ الظّالم أخاه بالقتل، دون أن يُقيم للإخوة التي بينهما وزنا، ودون أن يهتمّ بحرمة الدّماء وحقّ غيره في الحياة، والذي حمله على ذلك الحسد له على مزية قبول قربانه عند الله –عزّ وجلّ– وقد أكّد تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوى في الكلام، وهنا يردّ الأخ المظلوم بقوله: "إنّما يتقبّل من المتّقين" أي "لم تقتلني وأنا لم أجن شيئا، ولا ذنب لي في قبول الله تعالى قرباني؟ وأنت أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التّقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاقب نفسك، ولا تحملها على تقوى الله تعالى التي هي السّبب في القبول، وفي هذا جواب حكيم جامع لعدّة معان، وفيه دليل على أنّ الله تعالى لا يقبل طاعة إلاّ من مؤمن تقيّ"[37] ثم انتقل الاخ التقي من وعظ أخيه بتطهير قلبه، إلى تذكيره بحقوق الأخوّة وما تقتضيه من برّ وتسامح، أي إذا مددت يدك لتقتلني فما أنا بالمجازي لك على السيّئة بسيّئة مثلها، فذاك لا يتّفق مع صفاتي وشمائلي، ولست ممّن يتّصف بهذ الصّفة المنكرة التي تُنافي تقوى الله والخوف من عذابه، ثمّ نهاه ، إنّي أريد أن ترجع من صفقة قتلي بأن تحمل إثم تلك الفعلة وتنال عقوبتها، وكذلك تحمل الإثم الذي كان من أجله أنّك أردت قتلي، لأنّك تمرّدت على المنهج، حين لم يتقبّل ربّنا تعالى قربانك، فقد أثمت مرّتين: الأولى عند رفضك وعدم قبولك حكم الله تعالى ومنهجه، وهو الذي من أجله لم يقبل الله تعالى قربانك، والثانية: هو قتلي وأنا لا دخل لي في هذه المسألة لأنّ الظّالم لا بدّ أن يأخذ جزاءه[38] والأخ المظلوم لا يحبّ أن يعصي الله تعالى ولا يحبّ أن يعصي أخوه الظّالم ربّ العالمين أيضا. فقد سلك الأخ المظلوم في حواره وعظته للأخ الظّالم مسالك عدّة منها: أنّه تبرّأ من كونه سببا في حرمانه من تقبّل القربان، لأنّ سبب

التقبّل عند الله تعالى هو التّقوى، وأرشده إلى أنّه لا يمنعه من بسط يده إليه إلاّ الخوف من ربّ العالمين، وذكّره بحقوق الأخوّة وما يترتّب عليها من تسامح، وبيّن له أنّ المتعدّي يحمل إثم نفسه وإثم من تعدّى عليه، ثمّ إلى تذكيره بعذاب النّار لأنّها مثوى الظّالمين. فجسّد لنا هذا الحوار الصّورة الحيّة لشخصية الإنسان الشّرير، مقابل شخصيّة الإنسان الصّالح لتربطنا بفكرة الخير وتبعدنا عن فكرة الشّر، في موقف يوحي للناظر والمستمع بفظاعة موقف الشّرير إزاء روعة موقف الصّالح، حيث نرى الجريمة خالية من كلّ مبرّراتها التي تجعل منها عملا عادلا، لأنّها نشأت في حالة نفسيّة معقّدة بالحسد، فليس للضحيّة فيها أيّ ذنب، ولعلّ قيمة هذه القصّة، تتمثّل في ما تخلّفه في نفس القارئ أو المستمع من تأثير نفسي ضدّ الجريمة والمجرم، وتعاطف روحي مع الضّحيّة، مما يترك آثاره على السّلوك الإنساني العام.

قواعد الحوار والإقناع في القرآن الكريم: إنّ الغرض من الحوار هو البحث عن الحق ليتّضح، فالحق مطلوب والتعاون على النّظر فيه مفيد ومؤثر، وحتى نميّز الحوار عن الجدل المذموم أو السّفسطة أو المراء البعيد عن نشدان الحقيقة، ولأجل تحقيق الحوار مقاصده، والمنع له من أن يتحوّل إلى خصومة ومشاحنات أنانيّة ومشاغبات ومغالطات ونحو ذلك ممّا يُفسد القلوب، ويهيج النّفوس ويورث التعصّب ولا يوصل إلى الحق، وحتى لا يُصبح الأمر انتصارا وإعجابا لكلّ ذي رأي رأيه، فلا بدّ من وضع قواعد للحوار الهادف بلوغا إلى الصّواب فمن بين قواعد الحوار في القرآن:

- **الاحترام المتبادل:** بيّن القرآن الكريم لأتباعه المسلمين أنّ هناك طريقتين للحوار الفكري، أو للصّراع في جميع مجالاته، فهناك طريقة العنف التي تعتمد

مواجهة الخصم بأشدّ الكلمات والأساليب وأقساها، بحيث يركّز الاختيار على كلّ ما يسهم في إيلامه وإهانته وإهدار كرامته... وهناك طريقة اللّاعنف، أو الطّريقة السّليمة التي تعتمد اللّين والمحبّة أساسا للصّراع... والداعية الناجح هو الذي يحترم الأطراف الأخرى التي يحاورها، مسلمة كانت أو غير مسلمة، فالمحاور يعامل النّاس بما يجب أن يعاملوه، فينصت لحديثهم ويتواضع لهم ويشعرهم بتقديره لهم بحيث يقوم الحوار بينهم على:

- الإنصاف.

- عدم الاستعجال بالرّد على الخصم: حيث قال ﷺ: "ليس الشّديد بالصرعة، إنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب"(39) وينبغي كذلك أن يتكلّم بعلم قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يُجادل في الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير**﴾ [الحج: 8] فإن لم يعرف بما يجيب لقصور علمه يجب أن يقول الله أعلم...

- المحاورة بأفضل الأسماء والالقاب وأجمل ألوان الخطاب قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ﴾[الحجرات 11]

- الهدوء أثناء الحوار: لا شكّ أنّ الهدوء والغضّ من الصّوت فيه أدب مع الله ومع الناس، وثقة بالنفس، واطمئنان إلى صدق الحديث وقوّته، ومن هنا كان توجيه (لقمان) لابنه بغض الصّوت وتقصيره، كما قال على لسانه: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾[لقمان 19].

- بسط الوجه: إنّ من أخلاق المحاور النّبيل ذي المروءة والأدب: التودّد والتلطّف وبسط الوجه لمن يحاوره، وذلك في غاية نبل النفس وصفاء المعدن، قال

تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان 18] وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[الشعراء 215]

– التزام الموضوعيّة والبعد عن التعصّب: وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى الأخذ بهذه القاعدة إذ علّم الرسول ﷺ المسلمين أن يقولوا في حوارهم: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ 24]

الخاتمة: بعد هذه الدّراسة التي قمنا بها وهذه الجولة الروحانية في كتاب الله تعالى، واستشفاف معانيه وروائعه، لا يسعنا إلاّ أن نقول: أنّ القرآن الكريم اتّخذ من الحوار وسيلة ناجعة لتبليغ مقاصده، ومراميه المتمثلة أساسا في الهداية والدعوة إلى الإيمان، الحوار يعمل أوّلا واخيرا على الإقناع العقلي والاطمئنان القلبي، وهي معجزة من معجزات القرآن الكريم، فالقرآن الكريم زاخر بالعجائب مملوءة بالدّرر والجواهر يُطالعنا بين حين وآخر بما يُبهر العقول ويحير الألباب، لما فيه من الاشراقات الإلاهية والتّحفات النّورانيّة، ولا يمكن لأيّ كان أن يحيط بكلام ربّ العزّة جلّ وعلا، وأن يُدرك أسراره ودقائقه وإعجازه، إنّ الحوار كأسلوب أدبي عرفه القدماء منذ القدم، لكن اسلوب الحوار كفن بما تحمله هذه الكلمة من معان لم يُعرف إلاّ من خلال القرآن الكريم، فلغة القرآن حواريّة، فمهما بلغ هذا الأسلوب من الرّوعة في كلام البشر فإنّه لم ولن يرق إلى ما جاء به القرآن الكريم في هذا الصّدد، سواء من ناحية الشّكل أم المضمون، إذ احتوى على تعابير وصيغ بالغة الرّوعة دقيقة التّصوير، وغيرها من الفنّيات والجماليات، لا نكاد نجد لها نظيرا التي تعبر عن المنحى الإعجازي فيه، وفي ختام رحلة هذا البحث، أرصد أهمّ النّتائج التي توصّلت إليها؛ وهي:

- الحوار حديث بين شخصين أو أكثر، يتم فيه تداول الكلام بينهم بطريقة مـــا، فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة؛

- الحوار أوسع مدلولا من الجدال: كون الجدال يتضمّن معنى الصّراع، بينمـــا الحوار يتّسع له ولغيره؛

- أسلوب الحوار غالبا ما يؤدّى بصيغة: قل ، قال، قالوا، ولكن هذا لا ينفـــي أنّه أحيانا يأتي بطريقة غير مباشرة يكشف عنها السّياق؛

- اتّخذ القرآن الكريم أسلوبا بعيدا عن التسلّط والعنف، أو التّكفير في الحوار؛

- في الحوار الذي دار بين الرّسل –عليهم السّلام– مع أقوامهم، دلالات كثيرة منها:

أ– اهتمام القرآن بالحوار اهتماما بالغـــا، ويحـــرص علـــى استخلاصـــه مـــن الشّوائب؛

ب–أهداف الحوار وغاياته متعدّدة، فهو يستهدف الحقائق ويقيم عليها البـــراهين والحجج الدّالة على الإيمان.

ت–اشتمال الحوار في القرآن الكريم أقوم الطّرق وأفضل المناهج، وهو قـــادر على إقناع الناس جميعا إذا احتكموا إليه؛

ث–تربيةّ الحوار القرآني العقل على سعة الأفق، وحبّ الاطّلاع، والاســـتدلال لمعرفة الحق، فقد تبيّن من خلال البحث أنّه رتّب النّتائج علـــى مقـــدّمات جعلـــت الخصم يستسلم، لوضوحها للعيان وقوّتها في البرهان؛

ج–تركيز الحوار في القرآن الكريم على أركان الإيمان، وذلك عن طريق إقامة الحجّة والبرهان على البعث والنّشور والجزاء؛

ح-محاورة الانبياء -عليهم السّلام- أقوامهم في عبـــاداتهم للأصـــنام، ولفتـــوا أنظارهم إلى التأمّل والتّدبّر، ودعوهم إلى الاعتبار بالأمم السّابقة؛

خ-دلالة الحوار في القرآن على أنّ الأنبياء -عليهم السّلام- جاؤوا بكلمة واحدة هي: لا إله إلاّ الله، وقضيّة واحدة وهي: عبادة الله وحده؛

- في الحوار القرآني تحذير من الاغترار بالثّروة، لأنّ فيه هلكا للمغرور، كما جاء في صاحب الجنّتين؛

- بيّن الحوار الذي جرى بين الأتباع والمتبوعين أنّ هناك أسبابا للتبعيّة منها: الخوف على الأعمار والأموال، والفسق والانحراف، والرّغبة في الـــدّنيا ونســـيان الآخرة، والذلّ والهوان عند الأتباع؛

- إنّ عمليّة الحوار تتطلّب جملة من القواعد والضّوابط، ومن أهمّ هذه القواعد الاحترام المتبادل بين المتحاورين، وعدم الاستعجال بالرّد على الخصم، والمحاورة بأفضل الأسماء والألقاب، والهدوء في الحوار، والبعـــد عـــن التعصّـــب، وإبـــراز الحقائق الثابتة في الحوار، والرّفق واللّين؛

- إذا أردنا للحوار ان يبقى عذبا رقيقا، بعيدا عن المهاترة، فـــلا بـــدّ أن يـــرتبط بمجموعة من الآداب الفاضلة والأخلاق النّبيلة، من أجل أن يبقى الفكر متّقدا والعطـــاء موصولا، وابرز تلك الآداب: حسن الصّمت والإصغاء، وحسن البيان في الكلام...؛

- أباح الإسلام الحوار والجدال بالتي هي أحسن مع غير المسلمين، باعتبـــاره وسيلة ناجحة من وسائل الدّعوة إلى الله تعالى؛

- إنّ حوارات القرآن الكريم كلّها دروس وعبر؛

– جاء الحوار في القرآن الكريم بطرق متعدّدة، ومناهج مختلفة حتى نستلهم من خلالها العبر والعظات، التي تهدينا إلى الحق، والتي تزرع في قلوبنا الإيمان.

فالحوار ليس قاصرا على الكلمات اللّسانية المسموعة، إنّما قد يتجاوز ذلك إلى الإشارة الموضحة والبسمة المشرقة، والحسّ الخافق، والدورة المقبلة والعمل الصالح، حتى الصّمت لا يبعد أن يأتي حوارا. ولا شكّ أن اللّسان والسّيف كلاهما سلاح في الخصومة، ولكن إذا كان السّيف أشدّ رهبة، وأصلب جسدا، فإنّ اللّسان أنفذ طعنا، وأبعد أثرا، هذا عند الخصومة ، وذلك عند الغاية، والنّتيجة حين يحقّق كلّ منهم هدفه، فإنّ اللّسان حينئذ أشدّ سلطانا على أتباعه، وهم أشدّ طواعيّة له من طاعتهم للسّيف. فيجعل القرآن كلّ قضاياه سبيلها الحوار، ويجعل كلّ خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائما على الحوار ولا يجعل من القوّة سبيلا قط إلى التّعامل مع المخالفين، وإنّما يجعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق لتكون أيضا وسيلة إلى إعادتهم إلى الحق.

الهوامش:

---

(1) عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، بيروت: 1981. ص 554.

(2) الألكسو، المعجم العربي الأساسي، دط، تونس: 1989. مادة (ح و ر)

(3) محمد مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دك، بيروت: 1306 هـ، مادة ح و ر.

(4) ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة حور.

(5) أبو الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح محمد سيد كيلاني، بيروت: د تا، ص 135.

(6) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: 1967، طبعة دار الكتاب العربي، ج 19، ص 273.

(7)– محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 403.

[8] أخرجه مسلم بن الحجاج القيشري، صحيح مسلم بشرح النووي، باب حال من قال لأخيه المسلم يا طافر، القاهرة: 1995. طبعة دار أبي حيان، ج1، ص 325.

[9] الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النّووي، شرح صحيح مسلم، القاهرة: 1995. طبعة دار أبـــي حيان، ج1، ص 361.

[10] رواه الإمام محمد بن عيسى الترميذي، الجامع الصحيح، بيروت: د تا، دار إحيـــاء التـــراث العربي، ج5، ص 497.

[11] محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 19، ص 273.

[12] الندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الرياض: 1408 هـــ، طبعة الندوة العالميـــة للشباب الإسلامي، ص 9.

[13] صالح بن عبد الله بن حميد، أصول الحوار في الإسلام، جدّة: د تا. ص 3.

[14] بسام داود عجك، الحوار الإسلامي المسيحي، طبعة دار قتيبة، 1418 هـــ، ص 20.

[15] منقذ بن محمود السقا، الحوار مع أتباع الأديان –مشروعيته، وآدابه– مكّة المكرّمة، ص 4.

[16] صالح بلعيد: هموم لغويّة، الجزائر: 2012. منشورات مخبر الممارسات اللّغوية في الجزائر. ص 164.

[17] أحمد سيف الدين التركستاني، الحوار مع أصحاب الأديان مشـــروعيته وشـــروطه، نســـخة الكترونية موجودة ضمن برنامج المكتبة الشاملة، ص 10.

[18] علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، بيروت: 1992. طبعة دار الكتاب العربي، ص 102.

[19] ابن منظور، لسان العرب، مادة ج د ل.

[20] أبو القاسم الحسن بن محمد الاصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ط1، 1997، ج1، ص 117.

[21] الجرجاني، التعريفات، ص 289.

[22] محمد الأمين الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، القاهرة: د تا. طبعة مكتبة ابن تيمية، ج2، ص 3.

[23] حوّى سعيد، الأساس في التّفسير، ط1: القاهرة: 1985. مج1، 611.

[24] الخالدي صلاح عبد الفتاح، القصص القرآني "عرض وقائع وتحليل أحـــداث" ط1، دمشـــق: 1998. دار القلم، ج1، ص 167.

[25] حوّى سعيد، الأساس في التّفسير، ط1، القاهرة: 1985.دار السّلام، مج 11، ص 6155.

[26] الخالدي صلاح عبد الفتاح، القصص القرآني، ج1، ص 171.

[27] النشرتي حمزة وآخرون، موسوعة القصص القرآني، القاهرة، د تا، مج 1، ص 198.

[28] المولى محمد أحمد جاد وآخرون، قصص القرآن، ط1: بيروت: 1969. دار الفكر، ص 50.

[29] طنطاوي محمد سيد، أدب الحوار في الإسلام، القاهرة: 1996. ص 160.

[30] الصابوني محمد علي، قبس من نور القرآن الكريم، ط1997،1. دار السّلام، ج7، ص 29.

[31] الصّابوني محمد علي، قبس من نور القرآن الكريم، ج7، ص 29–30.

[32] الرازي، التفسير الكبير، ج21، ص 126.

[33] الخالدي صلاح عبد الفتاح، الأتباع والمتبوعون في القرآن، ط1، عمان: 1996. ص 11– 12– 13.

[34] الرازي محمد بن عمر بن الحسين، التفسير الكبير، دط، بيروت: 1993. ج5، ص 232.

[35] الخالدي صلاح عبد الفتاح، الأتباع والمتبوعون في القرآن، ط1، عمان: 1996. ص 128.

[36] النيسابوري أبو الحسن علي بن أحمد، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تح عادل أحمد وآخرين، ط1، بيروت: 1994. ج2، 176–178.

[37] أبو حيان محمد بن يوسف، البحر المحيط، تح عادل أحمد وعلي معوض، ط1، بيروت: 1993. دار الكتب العلمية، ج3، ص 476.

[38] الشعراوي محمد متولى، تفسير الشعراوي، ج5، ص 3076.

[39] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحد من الغضب، ر ح 6114، ج8، ص 34.

الاستشهاد بالقرآن الكريم وأثره
في تجريد قواعد النّحو العربيّ

د. نورالدّين قُفّي
جامعة الجزائر2.

الحمد لله وحده لا شريك له، أنزل الكتاب بالحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصلّى الله وسلّم على صفوته من خلقه، محمّد رسول الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا، بلّغ الرّسالة، وأدى الأمانة، وترك النّاس على المحجّة البيضاء الواضحة بنور القرآن الذي لا يخبو، وضياء السّنّة الذي لا يخفت. وبعد:

فالقرآن الكريم كلام الله عزّ وجلّ أفصح الكلام كلّه وأعلى درجات البيان، وهو المصدر الأوّل من مصادر الاستشهاد في النّحو العربيّ لتواتره الذي استحقّه لإحاطته بالعناية والنّقل الصّحيح، وتحقّق شرط التّواتر لا مجال للشّك فيه، ولا نزاع حوله، والنّحويّون لا يختلفون في ذلك[1]؛ يقول أبو البركات ابن الأنباري: "اعلم أنّ النّقل ينقسم إلى قسمين: تواتر وآحاد.

فأمّا التّواتر فلغة القرآن وما تواتر من السّنّة وكلام العرب، وهذا القسم دليل عقلي من أدلّة النّحو يفيد العلم."[2]

أمّا شرطه ــ أي: التّواتر ــ، فقد ذكر ابن الأنباري أنّ أكثر العلماء ذهبوا إلى بلوغ عدد النّقلة حدّا لا يجوز فيه على مثلهم الاتّفاق على الكذب كنقلة لغة القرآن وما تــواتر من السّنة وكلام العرب؛ فإنّهم انتهوا إلى حدّ يستحيل فيه الاتّفاق على الكذب. [3]

والقراءات القرآنيّة شأنها في الاستشهاد شأن القرآن الكريم؛ يقــول السّــيوطي: "أمّا القرآن الكريم فكلّ ما ورد أنّه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربيّــة ســواء أكان متواترا أم شاذّا، وقد أطبق النّاس على الاحتجاج بالقراءات الشّاذّة في العربيّة إذا لم تخالف قياسا معروفا، بل ولو خالفته يحتجّ بها في ذلك الحرف بعينــه، وإن كان لم يجز القياس عليه كما يُحتَجّ بالمُجمَع على وروده ومخالفته القياس في ذلــك الوارد بعينه ولا يقاس عليه نحو استحوذ ويأبى وما ذكرته من الاحتجاج بــالقراءة الشّاذّة لا أعلم فيه خلافا بين النّحاة."[4]

وعلى ذلك، فالقرآن الكريم حجّة في العربيّة بقراءاته المتواترة وغير المتواترة، كما هو حجّة في الشّريعة، والقراءات التي قيل بأنّها شاذّة فقدت شرط التّواتر هــي قراءات لا تقل شأنا عن أوثق ما نقل إلينا من ألفاظ اللّغة العربيّة وأســاليبها، وقــد أجمع العلماء على أنّ نقل اللّغة يُكتفَى فيه برواية الآحاد.[5]

نشأة النّحو العربيّ في رحاب القرآن: نشأ النّحو العربيّ في رحــاب القــرآن الكريم خادما له، وذائدا عنه ، وحاميا لذماره، ذلك أنّ الهدف الأسمى الذي أدى إلى نشوئه هو صون القرآن الكريم من أن يدركه اللّحن الذي تفشّى بعد ظهور الــدّين الإسلامي وإقبال أجناس كثيرة من الأعاجم فيه وفساد السّــليقة السّــليمة؛ فــانبرى علماء العربيّة للذّود عن لغة الكتاب العزيز وحمايتها ممّا قد يتسرّب إليها من هــذا اللّحن، ويكفي للدلالة على ذلك أن نقف عند رواية واحدة من الرّوايات الكثيرة التي ذكرت في هذا السّياق، فقد روي أنّ أعرابيا وفد إلى المدينــة علــى عهــد أميــر

المؤمنين عمر ابن الخطّاب ليقرأ شيئا من القرآن، فأقرأه أحدهم سورة "براءة"، فلمّا بلغ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التّوبة:03] قرأ كلمة رسوله بالجرّ، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟! فإن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمرَ مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّي قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة "براءة"، فقال: (أنَّ اللهَ بريءٌ منَ المشركين ورسولِه)، فقلت: أو قد برئ الله من رسوله؟! إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال: كيف يا أمير المؤمنين، فقال: (أنَّ اللهَ بريءٌ منَ المشركين ورسولُه) ـــ وأرشده إلى الرّفع ـــ، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممّن برئ الله منه، فأمر عمر ألّا يقرئ الناس إلا عالم باللّغة، وأمر أبا الأسود الدّؤلي فوضع النّحو. (6)

إنّ هذه الرّواية وكثير من الرّوايات التي لم يسعفنا المقام لبسطها توضّح أنّ اللّحن بدأ في القرآن الكريم مبكّرا؛ يقول مصطفى صادق الرّافعي: "إنّ الألسنة الضّعيفة القاصرة لا تستطيع الصّعود إلى مستواه العالي في بلاغته وأسلوبه، والقرآن ـــ فضلا عن نزوله بغير اللّغات الضّعيفة واللّهجات الشّاذة ـــ قد انطوى على أسرار من سياسة الكلام لا تتعلّق بها إلا الطّبيعة الكاملة، ولذا كان أكثر اللّحن فيه بادئ ذي بدء." (7)

ونستطيع من خلال ذلك أن نتبيّن بأنّ القرآن الكريم كان السّبب الأوّل في نشأة النّحو، وأنّ اللحن في قراءاته كان الباعث الحقيقي الذي دفع النّحويين إلى التّفكير في تجريد قواعد النّحو وصياغتها صياغة محكمة للحفاظ على العربية، فقد كان النّحو "كابحا لجموح التّفاعل بين المؤسّسة اللّغويّة، وناموس الزّمن الطّبيعي، فحافز

تنظيم اللّغة في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلامية هو عقائـدي حضـاري، فكـان النّحو منذ نشأته امتثالا دينيا أكثر ما كان تطلّعا من تطلّعـات الفكـر نحـو (عقلنة) الحدث اللّساني."[8]

وقد ذكر بعض الباحثين ما يؤيّد ذلك، واعتبروا أنّ نشأة النّحو في رحاب القرآن الكريم كان لها أسباب خاصّة وعامّة [9]:

أمّا الأسباب العامّة، فيمكن حصرها في النّقاط الثّلاث:

الأولى: نماذج اللّحن في بعض الآيات الكثيرة التي كانت داعيـا مـن دواعـي وضع النّحو في روايات كثيرة؛

الثّانية: جاء في بعض الرّوايات دعوة زياد ابن أبيه أبا الأسود الدؤلي لوضـع النّحو مخاطبا إيّاه: "اعمل شيئا تكون فيه للنّاس إماما وينتفع النّاس به وتعرب بـه كتاب الله؛"

الثّالثة: نقط المصحف وتمييز ضبط حروف كلمات القرآن فيـه كـان خطـوة بارزة في نمو النّحو ووضوح معالمه، وقد اجتمعت أكثر الرّوايات أنّ أبا الأسـود هو من قام به، وكان الباعث عليه صون كتاب الله تعالى من التّحريف والتّصحيف واللّحن فيه.

أمّا الأسباب الخاصّة فيمكن حصرها ــ كذلك ــ في النّقاط الآتي ذكرها:

الأولى: الحفاظ على لغة القرآن واجب ديني أملته العقيـدة، فـانبرى العلمـاء لتأسيس قواعد النّحو خوفا على كتاب الله من أن يدركه اللّحن؛

الثّانية: توثيق نص القرآن الكريم لحفظه من الخطأ في قراءاته ومـن اخـتلال اللّحن في ضبطه بدأ مبكرا ـــ كما سبقت الإشارة ـــ ؛ فقد منع النّبي صلّى الله

عليه وسلّم كتابة كلامه، وأمر أصحابه بحفظ القرآن في صدورهم كما أنــزل، ثــمّ اتّخذ كتبة للوحي منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية رضـــي الله عــنهم، وكان صلى الله عليه وسلّم يدلّهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبــون فيمــا تيسّر لهم إحضاره من العسب والرّقاع وقطع الأدم وغيرها، وقد كتب القرآن كلّــه في عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم ثمّ جمع في خلافة أبي بكــر رضـــي الله عنــه جمعا في غاية الدّقّة والحيطة والإتقان، وحفظت هذه الصّحف إلى خلافــة عثمــان رضي الله عنه حيث جمع القرآن الجمعة الأخيرة مقتصرا فيها على المستفيض من القراءات التي نزل بها القرآن، فكان مصحف عثمان المصحف الذي استقر على ما جاء فيه المسلمون وأحرّق ما عداه.

الثّالثة: لقد نشأت العلوم العربيّة الإسلامية كلّها بوحي من القرآن واكتملت فـــي رحابه خدمة له، والنّحو أخصّ ما يخدم به نص القرآن، ويحافظ به عليــه، ويفهــم به، فليس من العجيب إن كان هو الباعث الأوّل على نشأته في رحابه ابتغاء القدرة على النّطق به سليما من اللّحن، والقدرة على فهمه ابتغاء وجه الله بخدمته وخدمــة أتباع دينه.

لقد تبيّن من خلال هذا العرض السّريع لنشأة النحو في رحاب القرآن، انّه إنّمــا نشأ خادمًا لكلام الله تعالى فأكرم به مخدوما وأكرم به خادما، ولعلنا بذلك وقفنا عند أبرز أثر للقرآن في علم النّحو.

منهج النحويين في التّقعيد: انتهج النّحويون في تجريد قواعد النّحــو العربــيّ منهجا واضح المعالم منذ بداية التّقعيد، إذ قام على ما يعرف بالاســتقراء النّــاقص باعتباره "تتبّع أكثر الجزئيات للوصول إلى قواعد مطّردة أو شــبه مطّــردة." [(10)]؛ يقول ابن جني موضحا ذلك: "و لمّا كان النّحويون بالعرب لاحقين وعلــى ســمتهم

آخذين وبألفاظهم متحلّين ولمعانيهم وقصودهم آمّين جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه وشرع أوضاعه ورسم أشكاله أن يرى فيه نحوا ممّا رأوا، ويحذوه على أمثلتهم التي حذوا، وأن يعتقد في هذا الموضع نحوا ممّا اعتقدوا في أمثاله لاسيما والقياس إليه مصغ وله قابل وعنه غير متثاقل. فاعرف إذاً ما نحن عليه للعرب مذهبا." [11]، فالأمر إذاً مناطه على الاستعمال وعلى ما نطقت به العرب حقيقة، وليس الأمر أمر وضع معايير أو فرض مذاهب، بل وصف للّغة وملاحظة لنطوق أهلها ثمّ بناء القواعد على ما سمع منها، فكان رائد النّحويين في ذلك التّتبّع والاستقراء لكلام العرب في مظانّه المختلفة: القرآن الكريم، الأمثال والحكم، الشّعر والنّثر. [12]، ولذلك ألزم النّحاة أنفسهم بإجراء أقيستهم وفق مجاري كلام العرب، وذلك ما نصّ عليه سيبويه: في مواضع كثيرة من كتابه؛ يقول "فأجريتها على ما أجرتها العرب"[13]، و"فأجريته على كلام العرب"[14] و"فليس لك في هذه الأشياء إلا أن تجريها على ما أجروها ولا يجوز أن تريد بالحرف غير ما أرادوا"[15].

لقد قام استقراء النّحويين على دعامتين أساسيتين هما: السّماع والرّواية، أمّا السّماع فهو مباشرة النّاطقين باللغة، أي: من أفواه العرب الفصحاء بالذّهاب إليهم أو تلقّيهم في الحواضر، وأمّا الرّواية فهي عن طريق الحفظ والنّقل والإنشاد؛ وهما بذلك مصطلحان يفضي أحدهما إلى الآخر، فسماع الشّعر مآله إلى الرّواية التي هي سماع عن الرّاوي ورواية عنه فيما بعد. [16]

ويتّضح بذلك أنّ الكلام العربي المسموع أو المروي هو الكلام الذي يجب أن يقاس عليه غيره، والاستعمال العربي هو الذي يشهد له بالفصاحة أو العي، لأنّ "ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب وإن لم ينطقوا به." [17]

والقواعد أو الضّوابط التي يجرّدها النّحاة وفق هذا المنهج هي ثمرة هذه العمليّة القياسيّة التي تمكّن من إلحاق ظاهرة نحويّة بظاهرة أخرى في حكم من الأحكام لوجود علّة جامعة بينهما. ويمنحها القياس ــــ أي القواعد ــــ صفة القانون الذي يجب الرّجوع إليه عند الحاجة والأساس الذي لابدّ أن يراعى في تعليم اللّغة.

الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته في بناء القواعد النّحويّة:

بين الاستشهاد والاحتجاج: وممّا يجب بيانه أنّ للاستشهاد أهميّة كبيرة في التفكير النّحوي لأنّه الوسيلة التي تمكّن النّحويين من أن ينسبوا شيئا من اللّغة إلى أهل السليقة الصّافية والفطرة السّليمة أو أن يكون جاريا مجرى ما صدر عنهم في جملته وتفصيله، وعلى ذلك يؤتى بالشّاهد من القول المعتمد الموثّق من القرآن أو من كلام العرب لتجريد حكم يجعله قاعدة يقاس عليها في إثبات هذا الحكم أو ردّه. [18]

ويقترب مصطلح الاستشهاد بمصطلح آخر في الدّلالة هو مصطلح الاحتجاج، والحقّ أنّ بينهما فرقا دقيقا؛ ذلك أنّ الاستشهاد أخصّ من الاحتجاج، لأنّه يطلق في الغالب على الاستدلال بالشّواهد النّقليّة أي: السّماع، أمّا الاحتجاج فهو أعمّ منه لأنّه يطلق على مطلق الاستدلال سواء كان بالنّقل أم بالعقل. [19]

وقد يستخدم المصطلحان معا في الدّراسات النّحويّة للدّلالة على النّصوص اللّغويّة التي كانت مصدر التّقنين والتّقعيد. [20]

لغة القرآن الكريم: ذكرنا ــ فيما سبق ــ أنّ القرآن الكريم أعلى مراتب الاستشهاد النّحوي بقراءاته سواء أكانت متواترة أم شاذّة، لا خلاف في ذلك بين النّحويين، وقد رأينا أيضا كيف نال علم النّحو شرفه من شرف كتاب الله العزيز حيث نشأ في رحابه عزيزا مقدّما عالي المقدار إذ خُصّ بخدمته وتحليل آياته

وإعرابها وتوضيح معانيها، وقد بلغ به ذلك القدر أن وصل حدّ التّقديس، لأنّ من فاته حظّه منه لم يدرك حظّه من القرآن!

وقد أدرك النّحويّون هذه المكانة التي يتبوأها علم النّحو فأعطوا للغة القرآن من القداسة ما لا يستطيع أن يصفه واصف؛ سيبويه في باب "حروف أجريت مجرى حروف الاستفهام وحروف الأمر والنّهي": "وقد قرأ بعضهم ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت:17] إلا أنّ القراءة لا تخالف لأنّ القراءة السّنة"[21]، ويقول أبو إسحاق الزّجّاج "السّنة تتبع في القرآن، ولا يلتفت فيه إلى غير الرّواية الصّحيحة التي قرأ بها القرّاء المشهورون بالضّبط والثّقة." [22]، ويقول ابن خالويه: "وقد أجمع النّاس جميعا أنّ اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح ممّا في غيره لا خلاف في ذلك." [23]، وقال عبد القادر البغدادي: "... أمّا ربّنا تبارك وتعالى فكلامه عزّ اسمه أفصح الكلام وأبلغه." [24]... فهذه العبارات وغيرها كثير ممّا جرى على ألسنة العلماء في تقديس لغة القرآن وقراءاته والثّناء عليه دليل على علوّ المنزلة وشرف مقام كلام الله عند هؤلاء العلماء.

غير أنّ واقع الدرس النّحوي يشهد بأنّ كثيرًا من النّحاة قد ابتعدوا نوعا ما عن الاستشهاد بالقرآن في إثبات القواعد النّحوية، بل أكثر من ذلك قد ردّوا بعض قراءاته التي تخالف أقيستهم، فهل كان هذا الموقف منهم لغاية تخدم قداسته لإقرارهم بسموّ لغته أم كان لغاية أخرى؟

الجواب عن هذا السؤال يقتضي التّريّث وعدم الاندفاع في إطلاق الأحكام، فيجب علينا في البداية إلقاء نظرة موجزة حول القرآن الكريم وقراءاته ونستهل ذلك بالحديث عن الفرق بينهما.

القرآن "هو كلام الله المعجز المنزّل على النّبي ﷺ المكتـوب فـي المصـاحف المنقول عنه بالتّواتر المتعبّد بتلاوته." [25] والقراءات "علـم بكيفيّـات أداء كلمـات القرآن الكريم ونطقها من تخفيف وتشديد واختلاف ألفاظ الوحي في الحروف." [26]

لقد اختلف العلماء في التّفريق بينهما على مذهبين: مـذهب يؤكـد أنّ القـرآن الكريم وقراءاته حقيقة واحدة، وهو مذهب الإمام أبي سعيد الدّاني، والإمـام ابـن الجزري[27]، ومذهب يرى بأنهما حقيقتان متغايرتان، وهو مذهب الإمام الزّركشي؛ يقول: "اعلم أنّ القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الـوحي المنـزّل على محمّد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور فـي كتابة الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما..." [28]

وقد اختلف في ضبط شروط القراءة الصّحيحة ــ كذلك ــ إلى اتجاهين اثنين:

الأوّل: يرى أنّ القراءة الصّحيحة هي التي تتوفّر على الشّروط الثّلاثة الآتية:

ــ التّواتر: وهو صحّة سندها عن النّبي ﷺ؛

ــ موافقة العربيّة ولو بوجه من الوجوه النّحويّة؛

ــ موافقة أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالا.

يقول الإمام ابن الجزري مقرّرا هاته الشّروط: "كلّ قراءة وافقت العربيّة ولـو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانيّة ولو احتمالا وصحّ سـندها فهـي القـراءة الصّحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها، بل هي من الأحرف السّبعة التـي وجب على النّاس قبولها"[29]

وهذا الاتجاه هو الذي يجعل القراءات السّبع كلّها متواترة في كلّ فرد منها، ولا يجيز النّقاش في شيء منها وفق مذاهب العربيّة لتواترها. [30]

الثّاني: ويرى أن شوط القراءة الصّحيحة هي:

ـــ صحّة النّقل؛

ـــ موافقة خطّ المصحف؛

ـــ موافقة العربيّة.

وهذا الاتجاه يرى في القراءات السّبع النموذج الأمثل لتحقّق هذه الشّروط، وهي ما اجتمع عليه قراء الأمصار وأئمتها، وهي القراءة المقبولة المرضيّة، غير أنّه يجعل القراءة المتواترة منها ما اجتمعت عليه طرق قرائها أو مجموعة منهم، وما لم يكن منها على هذه الصّفة، فإنه يصحّ نقاشه والنّظر فيه في ضوء الضّوابط السّالفة خصوصا شرط موافقة العربيّة، مع اعتبار وجوب الإيمان بكونه منزلا عند الله تعالى. (31)

ولعلّ هذا الاتّجاه هو اتّجاه النّحويين الأقدمين، إذ هو ما تدلّ عليه كتبهم في التّفسير والمعاني والإعراب والعربية، وهو ما حافظ على منهجه من جاء بعدهم من النّحاة. (32)

وعلى أيّة حال؛ فلا بدّ للنّاظر في منهج النّحاة في الاستشهاد بالقراءات أن يدرك أنّه نابع من اجتهاد فريق من القراء الكبار والعلماء الأفاضل الذين رأوا بأنّ هذا النّظرة هي النّظرة الصائبة، ويدلّ على هذا أنّ هذا الاتّجاه كان هو الاتّجاه الشائع المعروف قبل اختيار ابن مجاهد القراءات السّبع حوالي سنة حيث لم يكن التّحديد معروفا قبله، ولم يكن ضابط يحتكم إليه في قبول القراءة أو ردّها سوى القياس. (34)

واتّضح ذلك بالوقف على أبرز وثيقة نحويّة قبل هذا العصر وهي كتاب سيبويه الذي يشهد بصحّة هذا الاتّجاه قبل هذه الفترة التي نتحدّث عنها، حيث "كان سيبويه

من أكثر النّحاة تمسّكا بالشّاهد القرآني، وإجلالا له، وكان يضعه في المرتبة الأولى لأنّه أبلغ كلام نزل، وأوثق نص وصل، ولأنّه يمثّل العربيّة الأصيلة، والأساليب الرّفيعة، ويخاطب العرب بلغتهم وعلى ما يعنون." [35]؛ يقول في (باب من النّكرة يجري مجرى ما فيه الألف واللام من المصادر والأسماء وذلك قولك، سلام عليك ولبّيك وخير بين يديك): "فهذه الحروف كلّها مبتدأة مبني عليها ما بعدها، والمعنى في أنّك ابتدأت شيئا قد ثبت عندك، ولست في حال حديثك تعمل في إثباتها وتزجيتها وفيها ذلك المعنى كما أنّهم لم يجعلوا سقيا ورعيا بمنزلة هذه الحروف... ومثل الرّفع: طوبى لهم وحسن مآب، يدلّك عل رفعها رفع حسن مآب. وأمّا قوله سبحانه: ويل للمطفّفين، وويل يومئذ للمكذبين، فإنّه لا ينبغي أن يقول إنه ادّعاء هاهنا، لأنّ الكلام بذاك واللّفظ به قبيح، ولكنّ العباد كلّموا بكلامهم وجاء القرآن بلغتهم وعلى ما يعنون." [36]

وهو ـ سيبويه ـ يعتبر القرآن الكريم الأساس الأوّل في الاستشهاد، والغالب على منهجه في تأليف الكتاب أن يضع عنوان الباب الذي يتحدّث عنه ويمثّل له بأمثلة يقيسها على القرآن ويذكر بعدها ما ورد من آيات في مضمون الباب، ثمّ بما ورد عن العرب من عبارات سمعها أو رواها عمّن سمعها من شيوخه ومن يثق به من الرّواة، ثمّ بالشّواهد الشّعريّة. [37] وربّما كانت شواهده كلّها من القرآن يشبّه بعضها ببعض ويحمل إحدى آياته على الأخرى، وقد يأتي بعدها بما سمعه من كلام العرب[38]، وإذا ورد من شواهد الشّعر ما يشبه الآيات القرآنيّة ذكره بعدها مكتفيا بهما[39]، وإن كثرت الشّواهد القرآنيّة في الباب أورد بعضها وعقّب عليها فيما بعد بكثرتها في القرآن[40]، ولم يقصر عنايته بالقرآن واهتمامه وتقديمه على غيره من كلام العرب وعلى اعتباره الأساس الأوّل في الاستشهاد فحسب، بل

يعتبره الأصل الذي يجب أن يقاس عليه[41]، وقد يقدّم عبارات ممّا يمثّل بـــه مـــن كلام العرب على ما يستشهد به من الآيات القرآنيّة مع تسوية بينهما[42] وقد يبـــدأ بالشّعر ثم يأتي بالآية، وإن أراد إثبات صحّة تعبير ورد في لغة من لغات العرب استدلّ على ذلك بآيات من القرآن[43]، ويأتي بالآيات تصديقا لما يقوله العرب مـــن غير إشارة إلى القبيلة التي تتكلّم به، ويستدلّ كذلك بالآيات على ما ورد من الشّعر، وإن عرضت في الكلام مسألة يجوز فيها أكثر من وجه استشهد لكلّ منها بما جـــاء في القرآن[44]، وإن ورد من الآيات ما ظاهره أنّه يجوز فيه أوجـــه متعـــدّدة مـــن الإعراب خرّجه على الأوجه الحسنة الجيّدة[45]، وهو يعتبر الآيات القرآنيّـــة قياســـا يقيس عليها الوجه الحسن الجائز الخالي من القبح من أوجه التّعبير، وإن احتملـــت الآية بعض وجوه الإعراب بعضها غير حسن جاء بها لينفي عنها هذه الأوجه، ولم يكثر في مجال مناقشاته النّحويين لإثبات قاعدة أو اســـتنباط حكـــم أو ردّه علـــيهم تشبيههم آية بآية أخرى في الإعراب وهو لا يرى بينهما وجهـــا مـــن الشّـــبه، أو توجيههم إعرابا لعبارة من كلام العرب أو لبيت مـــن الشّـــعر لأنّ القـــرآن أعلـــى أساليب الكلام العربي وأكثرها بلاغة وفصاحة[46]

ولم يكن سيبويه يعيب قارئا أو يخطّئ قراءة، بل كان يورد القراءة لبيان أحـــد وجوه العربيّة وتقوية ما ورد عن العرب، وإذا كانت من القراءات المفردة فإنّـــه لا يخطّئها ولا يخطّئ قارئها، ولكنّه يحاول تخريجها على إحدى لغات العرب لاعتقاده أنّ لغات العرب فصيحة صحيحة وإن قلّ من يتكلّم بها.[47]

ويلاحظ أنّه لا يعقّب على القراءة ذاتها، وإنّما يعقّب على اللّغة التي قـــرأ بهـــا القارئ، فيصفها أحيانا بالقلّة، وأحيانا بالضّعف، ومع كونها كذلك تبقى القراءة بهـــا صحيحة. [48] وقاس على القراءات، وحمل بعضها على ما يراه أساتذته القياس في كلام العرب ورأى بأنّها لغة جيّدة، ويحمل القراءة لسواد المصحف على اللّغـــات،

وإن خالفت القياس المشهور في لغة العرب لا يردّهـا أو يخطّئهـا ولا يعيبهـا أو ينكرها وإنّما يحملها على شواهد من كلام العرب خالفت القيـاس والمشـهور، أو يشبّه هذه الشّواهد بالقراءة ويحملها عليها، ويرى أنّه من السّماع الـذي لا يقـاس عليه[49]، ويقيس القراءة على ما سمعه من كلام العرب، أو على ما حدّثه به مـن سمعه من العرب ممّن يثق بهم من الرّواة، وقد ترد في الآيـة الواحـدة قراءتـان مختلفتان فيستشهد بهما معا ولا يفاضل بينهما، وقد يرجّح بينهما أحيانـا ويصـف إحداهما بأنّها أجود من الأخرى وإن كانت الأخرى من العربيّة، وربّمـا بـين أن إحدى القراءتين أقوى ولا يشير إلى حكم الأخرى[50]، أو يبـيّن وجـه كـلّ مـن القراءات ويذكر أنّ لكلّ منها وجها حسنا لأنّه عربي ورد على إحدى لغات العرب، وإن وردت القراءة على غير القياس فهو يفسّرها ويؤوّلها بما يردّهـا إليـه، وقـد يستشهد بقراءة بلغة ورودها في بعض المصاحف دون الإشارة إليه، ثمّ يؤكّد ذلـك بسماعه عن العرب. [51]

فهذا منهج سيبويه في التّعامل مع القرآن وقراءاته لم يكن فيه مـا يقـدح فـي منزلته العلميّة، فكان بفكره الهادئ يحسن التّخريج ويجيده، ويحسن التّوفيـق بـين السماع وما يخالفه من قياس، ولم يكن يعرّض لقراءة أو يطعن في مكانة قـارئ، فكان القرآن عنده مقدّسا بقراءاته، والقياس عليه وعلى ما صح من كـلام العـرب واجبا تمليه ضرورة المنهج.

وقد زادت حدّة التّشبّث بالقياس لدى شيوخ المدرسة البصريّة من بعده، فلم يعـد لهم في حيّز الاستشهاد بالقراءات القرآنيّة إلا القراءات المتواترة الموافقة للقيـاس، أمّا الاستشهاد بالقراءات الشّاذة فلم يكن من مـنهجهم، لأنّهـم لا يـرون ضـابطا للاستشهاد غير ما كان موافقا لأقيستهم وقواعدهم وأصولهم.

أمّا الكوفيون فقد أقبلوا على الاستشهاد بالقراءات السّبع وبغيرها من القـــراءات، يحتجّون بها فيما له نظير في العربيّة، ويجيزون ما ورد فيها ممّا خالف الوارد عن العرب، ويقيسون عليها ويجعلونها أصلا من أصولهم التي يبنون عليهـــا القواعـــد والأحكام، ثمّ إنّهم إذا رجحوا القراءات التي يجتمع عليهـــا الـــرّواة، لا يرفضـــون غيرها ولا يخطّئونها. [51]

قواعد نحويّة جرّدت وفق شواهد قرآنيّة: سنتعرّض في هذا المبحـــث لـــبعض القواعد النّحويّة التي بناها النّحويون على شواهد من كلام الله تعالى لبيان اعتمادهم على الشّاهد القرآني في التّجريد والتّقعيد، وينبغي أن يعلم أنّه أصـــل واســـع فـــي الاستشهاد؛ ذلك أنّه كثيرا ما تحتشد الشّواهد السّماعية المختلفة في إثبات القواعـــد النّحويّة، فيكون الاستشهاد بها وفق مطلق السّماع، وحينئذٍ تقوى درجتـــه للاتّفـــاق الحاصل بين الشّواهد ويكون الشّاهد القرآني أقواها درجة بطبيعة الحال.

وقد اخترنا لذلك نماذج من الشّواهد القرآنيّة من كتاب "الإنصاف فـــي مســـائل الخلاف" لنبرهن على التّقعيد وفق الشّواهد القرآنيّة:

فممّا استشهد به البصريّون هذه المسائل:

1ــ "كلا" و"كلتا" مثنّيان لفظا ومعنى أو معنى فقط[53]: ذهب الكوفيون إلـــى أنّ "كلا وكلتا" فيهما تثنية لفظيّة ومعنويّة، وأصل كلا كلّ، فخفّفت اللام، وزيدت الألف للتّثنية، وزيدت التّاء في كلتا للتّأنيث، والألف فيهما...

وذهب البصريّون أنّ فيها إفرادًا لفظيّا وتثنيّة معنويّة، والألف فيهما كالألف في "عصا" و"رحا".

واحتج البصريون بأن قالوا: الدّليل على أنّ فيهما إفرادا لفظيا وتثنية معنوية أنّ الضّمير تارة يردّ إليهما مفردا حملا على اللّفظ، وتارة يردّ إليهما مثنى حملا على المعنى.

فأمّا ردّ الضّمير مفردا حملا على اللّفظ فقد جاء ذلك كثيرا، قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف:33]، فقال "آتت" بالأفراد حملا على اللّفظ ...

2 ـ **القول في العامل في الخبر بعد ما النّافية النّصبَ**(54): ذهب الكوفيّون إلى أنّ ما في لغة أهل الحجاز لا تعمل في الخبر، وهو منصوب بحذف حرف الخفض.

وذهب البصريّون إلى أنّها تعمل في الخبر، وهو منصوب بها، قالوا: كان القياس يقتضي ألا تعمل إلا أنّه وجد بينها وبين ليس مشابهة، فاقتضت أن تعمل عملها، وهي لغة القرآن.

قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾[يوسف:31]، وقال تعالى ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ [المجادلة:02].

3ـ **القول في تقديم خبر ليس عليها**(55): ذهب الكوفيّون إلى أنّه لا يجوز تقديم خبر ليس عليها، وذهب البصريون إلى أنّه يجوز تقديم خبر ليس عليها.

واحتجّ البصريون بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:08]، وجه الدّليل من هذه الآية أنّه قدّم معمول خبر ليس عليه ليس، فغنّ قوله "يأتيهم" يتعلّق بمصروف، وقد قدّمه على ليس، ولولم يجز تقديم خبر ليس على ليس لما جاز تقديم خبرها عليها، لأنّ المعمول لا يقع إلا حيث يقع العامل.

4ـ **القول في تقديم معمول اسم الفعل عليه**(56): ذهب البصريّون إلى أنّه لا يجوز تقديم معمول اسم الفعل عليه، واحتجّوا بأنّ هذه الألفاظ فرع على الفعل في العمل، لأنّها عملت عمله لقيامها مقامه، فينبغي ألا تتصرّف تصرّفه، فوجب ألا يجوز تقديم

معمولاتها عليها، وصار هذا كما نقول في الحال إذا كان العامل فيها غير فعل، فإنّه لا يجوز تقديمها عليه لعدم تصرّفه فكذلك ها هنا إذ لو قلنا: إنّــه يتصــرّف عملهــا، ولا يجوز تقديم معمولاتها عليها لأدّى ذلك إلى التّسوية بين الفرع والأصل لأنّ الفروع أبدا تنحط عن درجات الأصول، ويردّ البصريّون على الكوفيين الذي جوّزوا ذلك محتجــين بقوله تعالى ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النساء:24] أن كتاب الله ليس منصــوبا بعلــيكم، وإنّما هو منصوب لأنّه مصدر. والعامل فيه فعل مقدّر، وإنّما قدّر هذا الفعل ولم يظهر لدلالة ما تقدّم عليه من قوله : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾ [النساء:23] فإنّ فيه دلالة علــى أن ذلــك مكتــوب عليهم، فلمّا قدّر الفعل، ولم يظهر بقي التّقدير فيه: كتاب الله علــيكم، ثــمّ أضــيف المصدر إلى الفاعل كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:88] فنصب صنع على المصدر بفعل مقدّر، وإنّما قدّر هذا الفعــل ولــم يظهر لدلالة ما تقدّم عليه من الكلام، والتّقدير فيه: صنع صنعا الله، وحذف الفعــل وأضيف المصدر إلى الفاعل كما يضاف إلى المفعول، وإضافة المصدر إلى الفاعل أكثر من أن تحصى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:251] فأضــاف المصدر إلى اسم الله تعالى وهو الفاعل.

5ــ حاشا في الاستثناء فعل، او حرف، أو ذات وجهين[57]: ذهب الكوفيون إلى أنّ حاش في الاستثناء فعل ماض.

وذهب البصريّون إلى أنّها حرف جرّ.

واحتج البصريّون بأن قالوا: الدّليل على انّه ليس بفعل ، وأنّــه حــرف أنّــه لا يجوز دخول ما عليه، فلا يقال ما حاشا زيدا، كما يقال ما خلا زيــدا، ومــا عــدا

عمرا، ولو كان فعلا كما زعموا لجاز أن يقال: ما حاشا زيدا، فلمّا لم يقولوا ذلك دلّ على فساد ما ذهبوا إليه...

وأمّا قولهم: إنّ لام الجرّ تتعلّق به، قلنا: لا نسلّم، فإنّ اللام في قولهم "حاشا لله" زائدة لا تتعلّق بشيء، كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:154]، واللام زائدة لا تتعلّق بشيء، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق:14]، أي: ألم يعلم أنّ الله، والباء زائدة لا تتعلّق بشيء، وكقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:01] أي: اقرأ اسم ربّك، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195] أي: ولا تلقوا أيديكم، وقوله تعالى :﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:20] أي تنبت الدّهن.

أمّا الكوفيّون فيمكننا أ نّ نذكر هذه المسائل:

1ـ ما يجوز من وجوه الإعراب في الصّفة الصّالحة للخبريّة إذا وجد معها ظرف مكرّر(58): ذهب الكوفيّون إلى أنّ النّصب واجب في الصّفة إذا كرّر الظّرف التّام وهو خبر المبتدأ، وذلك نحو قولك: "في الدار زيد قائما فيها"، وذهب البصريّون إلى أنّ النّصب لا يجب إذا كرّر الظّرف وهو خبر المبتدأ، بل يجوز في الرّفع كما يجوز فيه النّصب. وأجمعوا على أنّه إذ لم يكرّر الظّرف أنّه يجوز فيه الرّفع والنّصب.

واحتج الكوفيون بأن قالوا: الدّليل على أنّ النّصب واجب النّقل والقياس:

أمّا النّقل فقد قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود:108]، فقوله تعالى "خالدين" منصوب بالحال، ولا يجوز غيره. وقال تعالى:

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾[الحشر:17]، ووجه الدّليل في الآيتين أنّ القرّاء أجمعوا فيهما على النّصب، ولم يروَ عن أحدهم أنّه قرأ في واحدة منهما بالرّفع.

2ـ **هل تقع "من" لابتداء الغاية في الزّمان**[59]: ذهب الكوفيّون إلى أنّ "من" يجوز استعمالها في الزّمان والمكان.

وذهب البصريّون إلى أنّه يجوز استعمالها في الزّمان.

أمّا الكوفيّون فاحتجّوا بأن قالوا: الدّليل على أنّه يجوز استعمال "من" في الزّمان أنّه قد جاء ذلك في كتاب الله تعالى وكلام العرب، قال الله تعالى ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾[التوبة:108] و"أوّل يوم" من الزّمان.

3ـ **هل يقع الفعل الماضي حالا**[60]: ذهب الكوفيّون إلى أنّ الفعل الماضي يجوز أن يقع حالا، وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش من البصريين، وذهب البصريّون إلى أنه لا يجوز أن يقع حالا، وأجمعوا أنّه إذا كانت "قد" أو كان وصفا لمحذوف فأنّه يجوز أن يقع حالا.

أمّا الكوفيّون فاحتجّوا بأن قالوا: الدّليل على أنّه يجوز أن يقع الفعل الماضي حالا النّقل والقياس:

أمّا النّقل فقد قال الله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النساء:90]، فحصرت فعل ماض، وهو في موضع الحال، وتقديره: حصرة صدورهم، والدّليل على صحة هذا التّقدير قراءة من قرأ: (أَوْ جَاءوكُم حَصِرَةً صُدُورُهُمْ)، وهي قراءة الحسن البصري، ويعقوب الحضرمي والمفضّل عن عاصم...

4ـــ **القول في "إن" الشّرطيّة هل تقع بمعنى "إذ"**[61]: ذهب الكوفيّون إلى أنّ "إن" الشّرطيّة تقع بمعنى "إذ"، وذهب البصريّون إلى أنّها لا تقع بمعنى "إذ".

أمّا الكوفيّون فاحتجّوا بأن قالوا: إنّما قلنا ذلك لأنّ "إن" قد جاءت كثيرا في كتاب الله تعالى وكلام العرب بمعنى إذ، قال الله تعـــالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:23] أي: إذ كنتم في ريب؛ لأنّ إن الشّرطيّة تفيد معنى الشّك بخلاف إذ؛ ألا ترى أنّه لا يجوز أن تقول "إن قامت القيامة كان كذا" لما يقتضيه من معنى الشّك، ولو قلت:" إذ قامت القيامة" أو "إذا قامت القيامة" كان جائزا لأنّ إذ وإذا ليس فيهما معنى الشّك، وإذا ثبت أنّ إن الشّرطيّة فيها معنى الشّك؛ فلا يجوز أن تكـــون هاهنا شرطيّة؛ لأنّه لا شك أنّهم كانوا في شك، فدل على أنها بمعنـــى إذ، قـــال الله تعـــــــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة:278] أي: إذ كنتم مؤمنين، لأنّه لا شكّ في كونهم مؤمنين، ولهذا خاطبهم في صدر الآية بالإيمان.

5ـــ القول في العطف على اسم "إنّ" بالرّفع قبل مجـــيء الخبـــر[62]: ذهـــب الكوفيّون إلى أنّه يجوز العطف على موضع "أنّ" قبل تمام الخبر، واختلفـــوا بعـــد ذلك؛ فذهب أبو الحسن الكسائي إلى أنّه يجوز ذلك على كلّ حال، سواء كان يظهر فيه عمل إنّ ألم يظهر، وذهب الفراء إلى أنّه لا يجوز إلا فيما لم يظهر فيه عمـــل "إنّ"، وذهب البصريّون إلى أن ذلك غير جائز على كلّ حال.

واحتجّ الكوفيّون على جواز ذلك بالنّقل والقياس:

أمّا النّقل فقد قال الله تعـــالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة:69]، وجه الدّليل أنّه عطف "الصّابئون" على موضع "أنّ" قبل تمام الخبـــر، وقوله: (مَنْ آَمَنَ اللهِ واليَوْمِ الآخر)، وقد جاء عن بعض العرب الثّقاة:"إنّـــك وزيـــد ذاهبان"، وقد ذكره سيبويه في كتابه.

فهذه جملة من الشّواهد القرآنيّة التي استشهد بها البصريون والكوفيّون لتجريد قواعدهم على النّحو المبيّن في ما تضمنّته، واعتبروها أسسا في بنائها، غير أنّ ذلك لم يمنع من اختلافهما لاختلاف أسسهما المنهجيّة في إثباتها.

أمثلة من القراءات التي ردّها النحويّون لمخالفة القياس:

1ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ **[الأنعام:137]**: وهي قراءة ابن عامر، حيث قرأها بضمّ الزّاي وكسر الياء، و"قتل" بالرّفع، و"أولادهم" بالنّصب، و"شركائهم" بالجرّ، وقرأ الأئمة الباقون "زين" بالفتح، و"قتل" بالنّصب، و"أولادهم" بالجرّ، و"شركاؤهم" بالرّفع. وقد ردّها البصريّون للفصل بين المصدر المضاف إلى فاعله بالمفعول. (63)

2ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ **[النساء:01]**: وهي قراءة حمزة بن حبيب الزّيات الكوفي، يقول أبو جعفر النّحّاس: "فأمّا البصريّون فقال رؤساؤهم: لحن لا تحلّ القراءة به."، وسبب رفض هذه القراءة عدم جواز عطف الاسم الظّاهر على الضّمير في حال الجرّ. (64)

3ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ **[الأعراف:10]**: وهي قراءة نافع بن أبي نعيم، وقد ردّها المازني، وسبب رفضها الهمز في كلمة "معائش"، يقول: "أصل أخذ هذه القراءة عن نافع ولم يكن يدري ما العربيّة، وكلام العرب التّصحيح في نحو هذا".(65)

4ـ قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ **[إبراهيم:22]**: وهي قراءة يحي بن وثّاب والأعمش وحمزة، بكسر الياء من "مصرخيِّ"، وقد ردّها

البصريّون، وعدّوها وهما، ونعتوها بالشّذوذ لأنّهم يرون في المتكلّم لهجتين، الفتح والتّسكين فقط. (66)

5ــ **قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ **[النجم:50]:** قرأ نافع وأبو عمرو بن العلاء "عاد الولى" بالإدغام والوصل، وقد عدّه المبرّد من اللّحن. (67)

6ــ **قوله تعالى:** ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ **[النور:57]:**

قرأها حمزة وابن عامر بالياء وقرأها باقي السّبعة بالتّاء. وقد عدّها أبو حاتم السّجستاني لحنا لا تحلّ القراءة به. (68)

7ــ **قوله تعالى:** ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ **[طه:63]:** هذه القراءة من القراءات التي استشكلها النّحاة، وقيل فيها أقوال كثيرة، قال ابن هشام:" وقيل: هذان اسمها، ثمّ اختلف. فقيل: جاءت على لغة بلحارث بن كعب في إجراء المثنى بالألف دائما كقوله:

قد بلغا في المجد غايتاها واختار هذا الوجه ابن مالك.

وقيل: هذان مبني لدلالته على معنى الإشارة، وإنّ قول الأكثرين ... هذين جرا ونصبا ليس إعرابا أيضا، واختاره ابن الحاجب.

قلت: وعلى هذا فقراءة هذان أقيس، إذ الأصل في المبني ألا تختلف صيغه مع أنّ فيها مناسبة لألف ساحران...". (69)

إنّ هذه الأمثلة التي استشكلها النّحاة ورأوا فيها مخالفة للقياس تدلّ على أنّهم كانوا أكثر احتفاء بقواعدهم وأقيستهم التي قنّنوها، وإن كنّا نعتقد أنّ هذا كلّه نابع من شروط القرّاء أنفسهم على ما قدّمنا في اتجاه الأئمة القراء الكبار قبل ابن مجاهد، أي قبل سنة (300ه)، فاتّفقت هذه الشروط مع أقيسة النّحاة قبل هذه الفترة، بل كانت المسائل المشكلة حول القراءات هادئة جدا بخلاف ما نلحظه بعد هذه الفترة، حيث كثرت الانتقادات

وبلغت حدّ التعصّب ــ كما وضّحنا ــ، وهذا الموقف ليس سديدا على أيّـة حـال، لأنّ النحّاة أسّسوا قواعدهم على الاستقراء النّاقص، وكان من الضّروري ترك المجال لما لم يدركه هذا الاستقراء حتى يدخل حيّز الاستشهاد النّحوي.

ثمّ إنّ كلام العرب واسع جدا لم يستقرأ منه إلا ما وصل إلينا منه، وهذا يـذكّر بما قاله أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم ممّا قالته العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير." (70)، فلعلّ ما ورد من القراءات المشكلة المخالفـة للقياس من هذا الكلام الكثير الذي لم يصل إلينا، وإذا أمعنا النّظر في العبارة لعلّنـا ندرك من ناحية أخرى أنّ كلّ أقيسة النّحاة كانت ممّا وصل إلينا من كلام العـرب القليل، ولذلك ابتعدت بعض نصوص القرآن الكريم على بعض أقيسة النّحاة، فكـان من الواجب أن تكون "قواعد الإعراب والتّصريف الصّحيحة مستفادة منه، مـأخوذة من إعرابه وتصريفه. وهو الشّاهد على صحّة غيرها ممّا يحتجّ له بها، فهو الحجّة لها والشّاهد عليها، وشواهد الإعراب والمعاني منه أقوى وأصّح من الشّواهد فـي غيره، حتى أنّ فيه من قواعد الإعراب والمعاني والبيان ما لم تشتمل عليه ضوابط النّحاة وأهل المعاني." (71)

المصادر والمراجع:

الهوامش:

1ــ إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ط3: الدار الجماهيرية للنشـر والتوزيع والإعلان، مصراتة–ليبيا، 1990م، ص92.

2ــ ابن الأنباري أبو البركات، لمع الأدلة، تحقيق: سـعيد الأفغـاني، (د، ط): المطبعة السورية، 1957م، ص83.

3ــ المصدر نفسه، ص84.

4ــ جلال الدين السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحــو، (د، ط): المكتبــة التوفيقية، القاهرة، 2003م، ص50.

5ــ محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكــريم، (د، ط): دار الحديث، القاهرة، 2004م، ج1،1.

6ــ ابن الأنباري أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط3: مكتبة المنار، الأردن–الزرقاء، 1985م، ص5.

7ــ مصطفى صادق الرافعي، تــاريخ آداب العــرب، (د،ط): دار المعــارف، مصر،(د،ت)، ج1، ص240.

8ــ عبد السّلام المسدي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، (د،ط) مؤسّســة عبــد الكريم عبد الله، تونس، 1997م، 143.

9ــ ابراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ص38 – 42.

10ــ محمّد عبد الفتّاح الخطيب، ضوابط الفكر النّحوي، (د،ط): دار البصــائر، القاهرة، (د،ت)، ج1، ص 205.

11ــ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجّار، (د،ط): المكتبة العلميّة، (د،ت)،ج1،ص308.

12ــ محمّد عبد الفتّاح الخطيب، ضوابط الفكر النّحوي، ص 208.

13ــ سيبويه أبو بشر عثمان بن قمبر، الكتاب، تحقيق: محمّــد عبــد السّــلام هارون، (د،ط):الهيئة المصريّة العامّ للكتاب، 1977م، ج1، ص334.

14ــ المصدر نفسه، ج3، 430.

15ـــ نفسه، ج1، 218.

16ـــ محمّد عبد الفتّاح الخطيب، ضوابط الفكر النّحوي، ص 206.

17ـــ ابن جني، الخصائص، ج1، ص357.

18ـــ محمّد عبد الفتّاح الخطيب، ضوابط الفكر النّحوي، ص 256.

19ـــ المرجع نفسه، ص 257.

20ـــ المرجع نفسه، ص 258.

21ـــ سيبويه، الكتاب، ج1، ص74.

22ـــ الزّجاج أبو إسحاق، تحقيق: عبد الجليل شلبي، (د،ط): عالم الكتب، بيروت – لنبان، (د،ت)، معاني القرآن وإعرابه، ج1، 451.

23ـــ جلال الدّين السيوطي، المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، ط3: دار التّراث القاهرة، (د،ت)،ج1، ص313.

24ـــ البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق: محمّد عبد السّلام هارون، (د،ط): دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ج1، ص 23.

25ـــ صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن، ط7: دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1972م، ص 21.

26ـــ صبري عبد القوي، أثر القراءات في الفقه الإسلامي، ط1" مكتبة أضواء السّلف، الرّياض، 1997م، ص22.

27ـــ ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمّد الصّباغ، ط2: دار الكتب العلميّة، بيروت،2002م، ج1، ص15.

28ــ برهان الدّين الزّركشي، الرهان في علوم القرآن، تحقيــق: محمّــد أبــو الفضل إبراهيم، (د،ط): دار الجيل، بيروت، 1997م، ج1، ص318.

29ــ ابن الجزري، النّشر، ج1، ص15.

30ــ ابراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ص1063.

31ــ المرجع نفسه، ص 1064.

32ــ نفسه، ص 1066.

33ــ نفسه، 1065.

34ــ خديجة الحديثي، الشّاهد وأصول النّحو في كتاب سيبويه، ص31.

35ــ المرجع نفسه، 31.

36ــ سيبويه الكتاب، ج1، ص 166 وما بعدها.

37ــ خديجة الحديثي، الشّاهد وأصول النّحو في كتاب سيبويه، ص32.

38ــ المرجع نفسه، ص33.

39ــ نفسه، ص 34.

40ــ نفسه 34.

41ــ نفسه، ص35.

42ــ نفسه، ص36.

43ــ نفسه، ص37.

44ــ نفسه، ص38.

45ــ نفسه، ص39.

46ــ نفسه، ص40.

47ــ نفسه، ص50.

48ــ نفسه، ص52.

49ــ نفسه، ص55.

50ــ نفسه، ص56 وما بعدها.

51ــ نفسه، ص58 وما بعدها.

52ــ مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ط2: مطبعة البــابي الحلبـــي وأولاده، مصر، 1958م ص341.

53ــ ابن الأنباري أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بــين النّحــويين البصريين والكوفيين، تحقيق: محمّد محي الدّين عبــد الحميــد، (د، ط): المكتبــة العصريّة، صيدا – بيروت، 1997م، ج2، ص 439–442.

54ــ المصدر نفسه، ج1، ص 165 وما بعدها.

55ــ نفسه، ج1، ص 160 – 162.

56ــ نفسه، ج1 ص 228 – 231 ملخّصا.

57ــ نفسه، ج1، ص 278 – 283 ملخصّا.

58ــ نفسه، ج1، ص258.

59ــ نفسه، ج1، ص380.

60ــ نفسه، ج1، ص252 وما بعدها.

61ــ نفسه، ج2، ص232 وما بعدها.

62ــ نفسه، ج1، ص 185 وما بعدها.

63ــ مكي ابن أبي طالب، التّبصرة في القراءات، تحقيق: محي الدّين رمضان، ط1: معهد المخطوطات العربية الكويت، 1985م، ص97.

64ـ أبو جعفر النّحاس، إعراب القرآن، تحقيق: زهيـر غــازي زاهــد، ط1: مطبعة العاني، بغداد، 1979م، ج1، ص390.

65ـ ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد، تحقيق: محمّد عبد القادر الفاضلي وأحمـد عوض أبو الشّباب، ط1، المكتبة العصرية، صيد – بيروت، 2001م، ج4، ص 203.

66ـ أبو جعفر النّحاس، إعراب القرآن، ج2، 182.

67ـ مكي ابن أبي طالب، التّبصرة في القراءات، صة338.

68ـ أبو جعفر النّحاس، إعراب القرآن، ج1، ص 682 وما بعدها.

69ـ ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمّد محـي الدّين عبد الحميد، ط1: المكتبة العصريّة، صيدا –بيروت، 1999م، ج1، ص48.

70ـ ابن جني، الخصائص، ج1، ص386.

71ـ ابن قيّم الجوزيّة، مختصر الصّواعق المرسلة على الجهميّـة والمعطّلـة، تحقيق: زكريا يوسف، (د، ط): مكتبة المتنبّي، القاهرة، 1981م.

المصادر والمراجع:

1ـ إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ط3: الدار الجماهيرية للنشـر والتوزيع والإعلان، مصراتة–ليبيا، 1990م.

2ـ ابن الأنباري أبو البركات:

ـ ابن الأنباري أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخـلاف بـين النّحـويين البصريين والكوفيين، تحقيق: محمّد محي الدّين عبـد الحميـد، (د، ط): المكتبـة العصريّة، صيدا – بيروت، 1997م.

ــ ابن الأنباري أبو البركات، لمع الأدلة، تحقيــق: ســعيد الأفغــاني، (د، ط): المطبعة السورية، 1957م.

ــ ابن الأنباري أبو البركات، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبــراهيم السامرائي، ط3: مكتبة المنار، الأردن–الزرقاء، 1985م.

3ــ برهان الدّين الزّركشي، الرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، (د، ط): دار الجيل، بيروت، 1997م.

4ــ البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب، تحقيق: محمّــد عبــد السّــلام هارون، (د، ط): دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.

5ــ الزّجاج أبو إسحاق، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل شلبي، (د، ط): عالم الكتب، بيروت – لنبان، (د، ت).

6ــ ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمّد الصّبّاغ، ط2: دار الكتب العلميّة، بيروت،2002م.

7ــ جلال الدين السيوطي:

ــ الاقتراح في علم أصول النحو، (د، ط): المكتبة التوفيقية، القاهرة، 2003م.

ــ المزهر في علو م اللّغة وأنواعها، تحقيق: محمّــد أبــو الفضــل إبــراهيم وآخرين، ط3: دار التّراث القاهرة، (د، ت).

8ــ أبو جعفر النّحاس، إعراب القرآن، تحقيق: زهير غازي زاهد، ط1: مطبعة العاني، بغداد، 1979م.

9ــ سيبويه أبو بشر عثمان بن قمبر، الكتاب، تحقيق: محمّد عبد السّلام هارون، (د، ط): الهيئة المصريّة العامّ للكتاب، 1977م.

10ـــ صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن، ط7: دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1972م.

11ـــ صبري عبد القوي، أثر القراءات في الفقه الإسلامي، ط1" مكتبة أضـــواء السّلف، الرّياض، 1997م.

12ـــ عبد السّلام المسدي، مباحث تأسيسيّة في اللّسانيات، (د،ط): مؤسّسة عبـــد الكريم عبد الله، تونس، 1997م.

13ـــ محمد عبدالخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكـــريم، (د، ط): دار الحديث، القاهرة، 2004م.

14ـــ محمّد عبد الفتّاح الخطيب، ضوابط الفكر النّحوي، (د، ط): دار البصائر، القاهرة، (د، ت).

15ـــ مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب.

16ـــ مكي ابن أبي طالب، التّبصرة في القراءات، تحقيق: محي الدّين رمضان، ط1: معهد المخطوطات العربية الكويت، 1985م.

17ـــ مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ط2: مطبعة البـــابي الحلبـــي وأولاده، مصر، 1958م.

18ـــ أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمّد علـــي النّجّـــار، (د، ط): المكتبة العلميّة، (د، ت).

19ـــ ابن قيّم الجوزيّة:

ـــ بدائع الفوائد، تحقيق: محمّد عبد القادر الفاضلي وأحمد عوض أبو الشّـــباب، ط1، المكتبة العصرية، صيد – بيروت، 2001م.

ـــ مختصر الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة، تحقيق: زكريا يوســف، (د، ط): مكتبة المتنبّي، القاهرة، 1981م.

20ـــ ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، تحقيــق: محمّــد محي الدّين عبد الحميد، ط1: المكتبة العصريّة، صيدا – بيروت، 1999م.

أهميّة الشّعر الجاهليّ
في فهم القرآن الكريم مسائل نافع بن الأزرق أنموذجا

د. نورالدين مذكور
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

بعث الله محمّدا ﷺ وأنزل عليه القرآن الكريم، رسالة الله الخالدة إلى النّاس أجمعين، وقد عالج المشكلات الّتي تتخبّط فيها الإنسانيّة في جميع مناحي الحياة: الرّوحية والعقليّة، والبدنيّة، والاجتماعيّة، والاقتصادية، والسّياسيّة(1)، وقد أنزله الله بلسان عربيّ مبين.

والقرآن هو كلام الله المنزّل على سيّدنا محمّد ﷺ المعجز، المتعبَّد بتلاوته، المنقول إلينا بالتّواتر:(2)

– القول بأنّه (كلام) يشمل كلّ كلام، وإضافته إلى الله –عزّ وجلّ– يُخرِج كلام غيره من الإنس والجنّ.

– و(المنزّل على محمّد ﷺ) يُخرِج ما أُنزِل على الأنبياء قبله كالتّوراة والإنجيل وغيرهما.

– و(المتعبّد بتلاوته) يُخرج الأحاديث القدسيّة.(3)

وقد أجمع علماء القراءات على أنّ القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف، واستندوا في ذلك إلى أحاديث النّبيّ ﷺ منها: ما رواه البخاري ت(256هـ)، ومسلم ت(261هـ) في صحيحَيْهما عن ابن عبّاس – رضي الله عنه– أنّ رسول

الله ﷺ قال: <<أقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجعتُه، فلمْ أزلْ أستزيدُه ويزيدُني حتّى انتهى إلى سبعةِ أحرف.>>(4)

وقوله كذلك:<<إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرؤوا ما تيسّرَ منه>>(5)، ومردّ هذا التّنوّع التّيسير على الأمّة، لأنّها كانت قبائل كثيرة، مختلفة اللّهجات، ولو طُولبت كلّها بقراءة القرآن على حرف واحدٍ لشُقّ عليها.(6)

تحدّى اللهُ العرب وأعجزهم بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ ،[الإسراء: 88]، وقد أقرّ كفار قريش بتميّزه عن غيره من الكلام، فلمّا عقدوا مجلسهم الاستشاريّ لكفّ الحُجاج عن الاستماع لدعوة محمّد ﷺ ويُجمِعوا أمرهم ليقولوا قولا واحدا في محمّد ودينه، فكانوا يصفونه مرّة بالكاهن، ومرّة بالمجنون، وأخرى بالشّاعر، ورابعة بالسّاحر، وكان الوليد بن المغيرة يُنكِر أن يكون هذا الكلام يُشبه غيره من كلام النّاس، حتّى قال: <<واللهِ إنّ لقولِه لحلاوة، وإنّ أصلَه لعذق*، وإنّ فرعَه لجناة، وما أنتمْ بِقائلين مِن هذا شيئا إلاّ عُرِفَ أنّه باطل، وإنّ أقربَ القولِ فيه أن تقولوا: ساحِر.>>(7)

وجود المتشابه والغريب والمشكل في القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ ،[آل عمران: 7]، قد أخبر الله – سبحانه وتعالى– في هذه الآية أنّ القرآن الكريم ينقسم إلى محكم ومتشابه، وأخبر في آية أخرى أنّ القرآن كلّه محكم قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ ،[هود: 1].

وأخبر في آية أخرى بأنّه متشابه قال تعالى﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾، [الزّمر: 23].

معنى هذا أنّ في القرآن الكريم كلماتٍ كثيرة لم يكن يعرفها الصّحابة، ومردّ ذلك تفاوت العقول في إدراك المقصود من كلمة معيّنة، فهذا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– كان إذا وقع مشكِل في كتاب الله يستدعي ابن عبّاس ويقول له:<<غصْ غوّاص>>[8]، ورُوِي عنه كذلك أنّه قرأ على المنبر قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾، [النّحل: 47]، ثمّ قال: << ما تقولون فيها؟>> أي في معنى التخوّف، فقام شيخ من هذيل فقال: <<هذه لغتنا، التّخوّف: التّنقّص>>، فقال عمر: <<وهل تعرف العرب ذلك في كلامها؟>> قال: <<نعم، قال أبو كبير الهذلي:

تَخَوّفَ الرّحْلُ مِنْها تامِكا قردا=كما تَخوّفَ عودَ النّبعةِ السّفنُ>>

فقال عمر: <<عليكم بديوانكم لا تضلّوا، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.>>[9]

معنى الإحكام والتّشابه: القرآن الكريم منه محكم العبارة قد صِينت من الاحتمال، ومنه متشابهٌ وهو ما احتملَ وجوها...وجاء وصفه بالتّشابه بقوله: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ معناه يشبهُ بعضُه بعضا في الجنس والتّصديق، وأمّا هنا فالتّشابه ما احتمل وعجز الذّهن عن التّمييز بينهما نحو:﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ ،[البقرة: 70]، و﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾،[البقرة: 25]، أي مختلف الطّعومِ متّفق المنظر، ومنه اشتبه الأمران إذا لم يفرّق بينهما.[10]

واختلفَ المفسّرون في إمكان معرفة المتشابه، أو هو ممّا لا يعلمه إلاّ الله، والسّبب في ذلك يعود إلى تفسيرهم وتقديرهم للواو في قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا

ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾، [آل عمران: 7]، يقول الطّبري:<< واختلف أهل التّأويل في تأويل ذلك، وهل الرّاسخون معطوف على اسم الله، بمعنى إيجاب العلم لهم بتأويل المتشابه، أو هو مستأنف ذكرهم بمعنى الخبر عنهم أنّهم يقولون آمنّا بالمتشابه، وصدّقنا أنّ علمَ ذلك لا يعلمه إلاّ الله؟ فقال بعضُهم: معنى ذلك: وما يعلم تأويلَ ذلك إلاّ اللهُ وحدَه منفردا بعلمه، وأمّا الرّاسخون في العلم فإنّهم ابتدئ الخبر عنهم بأنّهم يقولون: آمنّا بالمتشابه والمحكم، وأنّ جميعَ ذلك من عند الله>>(11)، ثمّ يقول: <<...قد بيّنا قبل من أنّهم لا يعلمون تأويل المتشابه الذي ذكره الله –عزّ وجلّ– في هذه الآية.>>(12)، وما يؤيّد هذا الرّأي حديث عائشة أمّ المؤمنين–رضي الله عنها–قالت: <<﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، قالت: كان من رسوخهم في العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله>>(13).

مفهوم الغريب: يقول الرّافعي في كتابه (إعجاز القرآن) معرّفا معنى الغريب في القرآن الكريم: <<في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغريب، وليس المراد بغرابتها أنّها منكرة، أو نافرة، أو شاذّة فإنّ القرآن منزّه عن هذا جميعه، وإنّما اللّفظة الغريبة ها هنا هي الّتي تكون حسنة مستغربة في التّأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر النّاس.>>(14)، فالغريب هو اللّفظ الّذي لم تتّضح دلالته، وهو نسبيّ، فما كان غريبا عند فئة، ليس بغريب عند أخرى، لأنّ النّاس متفاوتون في المواهب والقدرات العقليّة.

مفهوم المشكِل: قال السّيوطي في المزهر نقلا عن ابنِ فارس في فقه اللّغة: << باب مراتب الكلام في وضوحِه وإشكالِه، أمّا واضِحُ الكلام فالذي يفهمه كلّ

سامعٍ عرف ظاهرَ كلامِ العرب، وأمّا المشكِل فالذي يأتيه الإشكالُ من وجوهٍ، منها غرابةُ لفظه.>>[15]

وقد استعمل الطّبري مصطلح المشكِل في جامع البيان في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ،[البقرة: 228]، فبعد أن عرض أقوال الكثير من العلماء في شرح معنى القرء، قال:<< ولما وصفنا من معنى القرء أشكل تأويل قول الله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ على أهل التّأويل.>>[16].

واستعمله الزّمخشري في الكشّاف: وذلك عند تفسيره قوله تعالى من سورة نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ ، [نوح: 23] ، قال: <<...وقرأ الأعمش: ولا يغوثا ويعوقا بالصّرف، وهذه قراءة مشكِلة، لأنّهما إن كانا عربيين أو أعجميين ففيهما سببَا منع الصّرف: إمّا التّعريف ووزن الفعل، وإمّا التّعريف والعجمة.>>[17]

دوافع اللّجوء إلى الشّعر لتفسير القرآن الكريم: إنّ القرآن الكريم عربيّ، ولمّا كان كذلك كانت قواعد العربيّة طريقا لفهم معانيه، وتتمثّل هذه القواعد في علوم اللّسان العربيّ، وهي: متن اللّغة، والتّصريف، والنّحو، والمعاني، والبيان، ويأتي بعد هذا استعمال العرب المتّبع من أساليبهم في خطبهم، وأشعارهم.[18]

ولهذا كان على كلّ من أراد أن يفهم القرآن الكريم، أو أن يتصدّر لتفسيره أن يُعنى بكلام العرب (شعره ونثره)، قال السّمرقندي: <<وإنّما يفهم بعض معانيه، ويطّلع على أسراره ومبانيه، من قوي نظره واتّسع مجاله في الفكر وتدبّره، وامتدّ باعه، ورقّت طباعه، وامتدّ في فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب، قال الله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، [الزّمر: 28]>>.[19] وقال في موضع آخر: <<فحتّى يتأتّى فهم القرآن لا بدّ من فهم العربيّة، إذ العلم بلغة العرب واجب

على كلّ متعلّق من العلم بالقرآن والسّنة والفتيا بسبب حتّى لا غناء لأحد عنه>>.[20]

وممّا يدلّ على أنّ فهم القرآن متوقّف على معرفة العربيّة الحكاية الّتي أوردها السّمرقندي، وهي أنّ أبا يوسف القاضي دخل على الخليفة وعنده الكسائي، فقال له: لو تفقّهت يا كسائي كان أنبل لك.

قال: يا أبا يوسف، إنّي سائلك عن مسألة. قال: وما مسألتك؟ قال: ما تقول في رجل أقرّ أنّ لفلان عليّ مائة درهم، إلّا عشرة دراهم إلّا درهما، كم ثبت عليه من الإقرار؟

قال: تسعة وثمانون درهما.

قال الكسائي: أخطأت يا أبا يوسف.

قال: لمَ؟

قال: لأنّ الله تعالى قال في كتابه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾، [الحجر: 58−60].

أخبرني يا أبا يوسف: المرأة مستثناة من القوم أم من الآل؟

قال: من الآل.

قال: فكم ثبت عليه من الإقرار؟

قال أبو يوسف: صدقت، ثبت عليه من الإقرار واحد وتسعون درهما.[21]

فكما قلنا من قبل قد وردت في القرآن الكريم كلمات لم تكن تعلمها قريش، لكن هناك من العرب من كان يتكلّم بها، قال ابن عبّاس: <<ما كنتُ أدري ما (فاطر) حتّى اختصم إليّ أعرابيّان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتُها أي ابتدأتها.>>.[22]

ورُوي عن ابن عباس كذلك أنّه قال: <<ما كنتُ أدري ما قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾، [الأعراف: 89]، حتّى سمعتُ قول بنت ذي يزن: (تعالَ أفاتحْك) تقول: تعالَ أُخاصمْك>>[23]، وأورد الطّبريّ في تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن الحديث التّالي: <<عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطّاب –رضي الله عنه– ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾، [عبس: 01] فلمّا أتى على هذه الآية ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾، قال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأبّ؟ قال: لعمرك يا ابن الخطّاب إنّ هذا لهو التّكلّف.>>[24]

ورُوي عن النّبيّ ﷺ أنّه ذكر ألفاظا في أحاديثه، وسُئل عنها، فعن جابر أنّ رسول الله ﷺ قال: <<إنَّ مِنْ أَحبِّكم إليّ وأَقربكم منّي مجلِسا يومَ القيامةِ أحاسنَكم أخلاقا، وإنّ أبغضَكم إليّ وأبعدَكم منّي مجلِسا يومَ القيامةِ الثّرثارون والمتشَدّقونَ والمتفيْهِقون، قالوا: يا رسولَ الله، قدْ علِمْنا الثّرثارون والمتشدّقون، فما المتفيهِقون؟ قال: المتكبّرون>>.[25]

فهذه كلّها أدلّة على أنّ الصّحابة لم يكونوا على حظّ واحد في فهم كلمات القرآن، وأحاديث النبيّ ﷺ.

مفهوم الشّعر: قال ابن فارس: <<(شعر) الشّين والعين والرّاء أصلان معروفان، يدلّ أحدهما على نبات، والآخر على عِلْم وعَلَم.

فالأوّل الشَّعْر، معروف، والجمع أشعار، وهو جمع جمع، والواحدة شَعرة. ورجل أَشْعَرُ: طويل شَعْر الرّأس والجسد. والشَّعار: الشَّجر، يقال أرض كثيرة الشَّعار.

والباب الآخر: الشِّعار: الّذي يتنادى به القوم في الحرب ليعرف بعضهم بعضا. والأصل قولهم شعرت بالشّيء، إذا علمته وفطنت له. ولَيْتَ شِعْرِي، أي ليتني

علمتُ... وسمّي الشّاعر لأنه يفطن لما لا يفطن لـــه غيره. قالوا: والـــدليل علـــى ذلك قول عنترة:

هل غـــادرَ الشُّـــعراءُ مـــن مُتَـــرَدَّمِ   أم هل عَرَفْـــتَ الـــدَّارَ بَعـــد تـــوهُّم

يقول: إنّ الشّعراء لم يغادروا شيئا إلاّ فطنوا لـــه. ومشاعِر الحجّ: مواضع المناسك، سُمِّيت بذلك لأنّها معالم الحجّ. والشّعيرة: واحدة الشّعائر، وهي أعلام الحجّ وأعماله. قال الله جلّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: 158]>>.[26]

وجاء في لسان العرب لابن منظور: << شعر: شَعَر به وشَعُر يشـــعُر شِـــعرا وشَعْرا: علم، وأَشْعَرَهُ الأَمْرَ وأَشْعَرَه به: أَعلمه إِياه. وفي التّنزيل: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾، [الأنعام: 109]؛ أَي وما يدريكم، وأَشْعَرْتُه فشعر أَي أَدْرَيْتُه فدرى. وشَعَرَ به: عَقَلَه. والشِّعْرُ: منظوم القول، غلب عليه لشرفه بـــالوزن والقافية.>>[27] والشّعر ديوان العرب، وبه حُفظت الأنساب، وعُرفت المآثر، ومنه تُعلّمت اللّغة، وهو حجّة فيما أشكل من غريب كتاب الله جلّ ثناؤه وغريب حـــديث رسول الله ﷺ وحديث صحابته والتّابعين.[28]

وقال ابن قتيبة ذاكرا فضل الشّعر: <<وللعرب الشّعر، الّذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا، ولأســـبابها مقيّـــدا، ولأخبارها ديوانا>>[29]، وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ <<إنّ مِن الشّعرِ حكمة>>[30]

ورغم أهميّة الشّعر فقد نفى الله عزّ وجلّ الشّعر عن القرآن، قـــال الله تعـــالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾، [يس: 69]، ونـــزّه نبيّـــه

عن قول الشّعر، قال سبحانه وتعالى:﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾، [الحاقة: 41]، والحكمة من ذلك عدّة أمور:(31)

1- قول الله تعالى عن الشّعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، [الشّعراء: 224-226]، والنّبيّ ﷺ لم يكن ينبغي له الشّعر، لأنّ للشّعر شرائط، لا يُسمّى الشّاعر بغيرها شاعرا.

2- الشّعر كما قيل بين أمرين: إنْ هزل أضحك، وإنْ جدّ كذب، والنّبيّ ﷺ أبعد عن هاتين الخصلتين.

3- والشّاعر إمّا أن يمدح فيتضرّع إلى الممدوح، أو يهجو فيتجاوز الآداب، وهذه الأوصاف لا تصلح للأنبياء.

4- إنّ للشّعر ميزانا يناسب الإيقاع، والإيقاع ضرب من الملاهي، لهذا لم يصلح ذلك لرسول الله ﷺ.

موقف العلماء من الاستشهاد بالشّعر لتفسير القرآن الكريم: لم يكن لعلمائنا موقف واحد من الاستشهاد بالشّعر لتفسير القرآن الكريم، وإن كانوا متّفقين على أنّ الشّعر يعدّ مصدرا من مصادر جمع اللّغة، فقد ذهب فريق منهم إلى جواز الاستشهاد بالشّعر، منهم: ابن عبّاس، الّذي قال: <<الشّعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الّذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه.>>(32)، وقال كذلك: <<إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشّعر، فإنّ الشّعر ديوان العرب.>>(33)، كذلك ذهب أبو بكر الأنباري إلى الجواز، حيث قال: <<قد جاء عن الصّحابة والتّابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشّعر>>.(34)

وأنكر بعضهم على النّحويين ذلك، وقالوا: <<إذا فعلتم ذلك جعلتم الشّعر أصلا للقرآن، وقالوا: كيف يجوز أن يحتجّ بالشّعر على القرآن وهو مذموم في القرآن والحديث؟>>.[35]

ولكنّ ابن الأنباري يردّ على هؤلاء بقوله: <<وليس الأمر كما زعموه من أنّا جعلنا الشّعر أصلا للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشّعر لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾، [الزّخرف: 3]، وقال: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾،[الشّعراء: 195]>>.[36]

مفهوم الاحتجاج: الاحتجاج في اللّغة من الفعل (حجّ) والحجّ: القصد، واختُصّ بهذا الاسم قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحجّ[37]، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾، [الحجّ: 27]، ويقال: حاججتُ فلانا فحججتُه؛ أي غلبته بالحجّة، والمصدر الحِجاج[38]، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾، [البقرة: 258].

أمّا الاحتجاج في الاصطلاح فهو: <<إثبات صحّة قاعدة في النّحو والصّرف والبلاغة، أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقل صحّ سنده إلى عربيّ يصحّ الاحتجاج به.>>[39]وكان لجوء العلماء إلى الاحتجاج لغرضين:[40]

- الأوّل لفظيّ: ويتعلّق بصحّة استعمال كلمة من حيث اللّغة والنّحو والصّرف.
- الثّاني معنويّ: ويتعلّق بإثبات معنى كلمة.

الاحتجاج بالشّعر: لقد احتجّ علماء اللّغة بشعر الجاهليين والإسلاميين، حتّى سنة 150هـ، وآخر شاعر يحتجّ بشعره إبراهيم بن هرمة المتوفّى سنة 150هـ[41]، وقد تمّ تقسيم الشّعراء إلى أربع طبقات[42]:

الطّبقة الأولى: الشّعراء الجاهليّون: كامرئ القيس الكندي، والأعشى...

الطّبقة الثّانية: الشّعراء المخضرمون: الّذين أدركوا الجاهلية والإسلام، كلبيد بن ربيعة، وحسان بن ثابت...

الطّبقة الثّالثة: المتقدّمون ويُقال لهم الإسلاميون، وهم الّذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير، والفرزدق...

الطّبقة الرّابعة: الشّعراء المولّدون، ويُقال لهم المحدَثون، وهم من جاء بعد الطّبقة الثّالثة إلى زماننا، كبشار بن برد، وأبي نواس...

وتمّ الإجماع على أنّ شعراء الطّبقة الأولى والثّانية يُستشهد بشعرهم، وأمّا شعراء الطّبقة الثّالثة فالصّحيح عند اللّغويين صحّة الأخذ بشعرهم، وأمّا شعراء الطّبقة الرّابعة، فقد رفضوا الاحتجاج بشعرهم.[43]

وممّن أجاز الاحتجاج بشعر الطّبقة الرّابعة الزّمخشريّ، فقد استشهد بشعر أبي تمام –وهو معدود من شعراء الطّبقة الرّابعة – في تفسير سورة البقرة من تفسيره الكشّاف.

استشهد بقوله:

ويَصْعَدُ حتّى يَظنَّ الجَهولُ بأنّ له حَاجةً في السّماء[44]

أزمنة الاحتجاج: لـمّا ظهر اللّحن وضع اللّغويون العرب معيارا لغويّا تنتهي عنده الفصاحة، والصّحة اللّغويّة، وصدق الرّواية، ولهذا وضعوا حدّا زمنيّا للاحتجاج[45]، والعرب الّذين يُحتجّ بكلامهم هم الجاهليّون والإسلاميّون حتّى سنة

150هـ، وظلّ اللّغويّون يحتجّون بالبدو حتّى القرن الرّابع الهجريّ، واستثنوا بعض القبائل المجاورة للأعاجم.

مسائل نافع بن الأزرق: قال الإمام جلال الدّين السّيوطيّ: <<قد روينا عن ابن عبّاس كثيرا من ذلك؛ وأوعب ما روينا عنه مسائل نافع بن الأزرق؛ وقد أخرج بعضها ابن الأنباريّ في كتاب (الوقف) والطّبراني في معجمه الكبير، وقد رأيت أن أسوقها هنا بتمامها لتُستفاد:

أخبرني أبو عبد الله محمّد بن عليّ الصّالحي بقراءتي عليه، عن أبي إسحاق التّنوخي، عن القاسم بن عساكر: أنبأنا أبو نصر محمّد بن عبد الله الشّيرازي: أنبأنا أبو المظفّر محمّد بن أسعد العراقي، أنبأنا أبو علي محمّد بن سعيد بن نبهان الكاتب: أنبأنا أبو علي بن شاذان: حدّثنا أبو الحسين عبد الصّمد بن علي بن محمّد بن مكرم المعروف بابن الطّوسيّ: حدّثنا أبو سهل السريّ بن سهل الجندي سابوري: حدّثنا يحيى بن أبي عبيدة بحر بن فروخ المكّي: أنبأنا سعيد بن أبي سعيد: أنبأنا عيسى بن دأب، عن حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر بن محمّد، عن أبيه قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه النّاس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الّذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسّرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإنّ الله تعالى إنّما أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين. فقال ابن عباس: سلاني عمّا بدا لكما. فقال نافع:

أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴿٣٧﴾﴾، [المعارج: 37] قال: العزون: حَلَق الرّفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجـــاؤوا يُهرعـــون إليـــه حتّـــى يكونـــوا حـــولَ مِنبـــره عزينـــا

قال أخبرني عن قوله:﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، [المائدة: 35] قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إنّ الرّجـــال لهـــم إليـــك وســـيلة إن يأخـــذوك تكحّلـــي وتخضّـــبي

قال: أخبرني عن قوله: ﴿شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًاۚ﴾، [المائدة: 48] قال: الشّرعة: الــدّين، المنهاج: الطّريق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المـــأمون بالصّـــدق والهـــدى وبـــيّن للإســـلام دينـــا ومنهاجـــا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾، [الأنعام: 99] قال: نضجه وبلاغه.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت قول الشّاعر:

إذا ما مَشَـــتْ وَسْـــطَ النّســـاء تَـــأَوّدَتْ كما اهتزّ غُصْـــنٌ نـــاعِمُ النّبـــتِ يـــانعُ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾، [الأعراف: 26] قال: الرّيش: المال.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشّاعر يقول:

فَرِشْني بِخَيْـــرٍ طالَمـــا قـــدْ بَرَيْتَنـــي وخيرُ المـــوالي مَـــنْ يَـــريشُ ولا يَبْـــري

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾، [البلـد: 4]، قـال: في اعتدال واستقامة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول:

يـا عَـينُ هلّـا بكيْـت أربـد إذ قمنا وقـام الخصـوم فـي كبـد

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾، [النّور: 43] قال: السّنا: الضّوء.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث يقول:

يَدْعُو إِلـى الحـقِّ لا يبغـي بِـهِ بَـدَلا يَجْلُـو بِضَـوْءِ سَـناهُ داجِـيَ الظُّلَـمِ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾، [النّحل: 72] قال: ولد الولد، وهم الأعوان.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشّاعر يقول:

حفـد الولائـد حـولهنّ وأسـلَمَتْ بـأكفهن أزمّـة الأحمـالِ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، [مريم: 13] قال: رحمة من عندنا.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت طرفة بن العبد يقول:

أبا مُنْـذِرٍ أَفْنَيْـتَ فاسْـتَبِق بَعْضَـنا حنَانَيْكَ بعضُ الشّـرِّ أَهْـوَنُ مِـنْ بَعْـض

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، [الرّعد: 31] قـال: أفلم يعلم، بلغة بني مالك.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت مالك بن عوف يقول:

لَقَدْ يَئِسَ الأقْوامُ أَنّي أنا ابنُهُ وإنْ كُنتُ عنْ أرض العَشيرةِ نائيا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿مَثۡبُورٗا﴾، [الإسراء: 102] قال: ملعونا محبوسا عن الخير.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عبد الله بن الزّبعري يقول:

إِذْ أَتاني الشّيطانُ في سنة النّوم ومَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُورا

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾، [مريم: 23]، قال: ألجأها.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت حسّان بن ثابت يقول؟

إِذْ شَدَدْنا شَدَّةً صادِقَةً فَأَجَأْناكم إلى سَفْحِ الجَبَلِ

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿نَدِيّٗا﴾، [مريم: 73]

قال: النّادي المجلس.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعتَ الشّاعر يقول:

يَوْمانِ يوم مُقاماتٍ وأنْدِيَة ويومُ سَيرٍ إلى الأَعداءِ تَأْويب

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا﴾،[مريم: 74]

قال: الأثاث المتاع، والرئي من الشّراب.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشّاعر يقول:

كَـــأَنَّ علـــى الحَمـــولِ غَـــداةَ ولّـــوْا مِن الرئْي الكـــريمِ مـــن الأَثـــاثِ[46]

والمسائل كثيرة بلغت أكثر من مائتي مسألة، ذكر السّيوطي منها مائة وتسعين، وصرّح أنّه حذف بضعة عشر سؤالا[47].

وقد أنكر بعضُهم صدق هذه القصّة لبعض المآخذ، منها:

– اختلاف عدد المسائل عند من ذكروا القصّة، ففي المعجم الكبيـــر للطّبرانـــي ت(360ه)، وفي إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله لابـــن الأنبـــاري ت(328ه)، ومجمع الزّوائد للحافظ نور الدين الهيثمـــي ت(807ه) لا يتعـــدّى عـــدد المســـائل وشواهدها إحدى وثلاثين مسألة، أمّا في الإتقان للسّيوطي ت(911ه) فعدد المســـائل مائة وتسعون مسألة، وقد صرّح أنّه حذف بعضها.[48]

– بعض الكلمات كانت سهلة، فمجيء ابن الأزرق إلى ابن عبّاس كان الغرض منه المناظرة والتّعجيز، فيُستبعَد أنّه يسأله عن كلمـــة مثـــل: (حفـــدة)، (الأســـى)، (الطّلاق).[49]

– استبعاد حدوث المناظرة في مجلس واحد، وهذا لكثرة المسائل.[50]

– الاحتجاج بشعر جاء بعد انتشار الإسلام، فالأصل أن يُحـــتجّ بالشّـــعر الجـــاهليّ السّابق لظهور الإسلام، لأنّ ابن الأزرق كان يقول: <<وهل تعرف العرب ذلك؟>>

مثل شعر أبي سفيان الحارث، وشعر عبد الله بن رواحة، وشعر عمر بن أبي ربيعة.[51]

– الاحتجاج بشعر منسوب إلى غير قائله، فقد حكم محمّد فؤاد عبد الباقي في كتابه معجم غريب القرآن، بأنّ عددا كبيرا من الأبيات الشّعريّة نُسبت إلى شعراء ولكنّها غير موجودة في دواوينهم، مثل كلمات:

– **حُسبان**: وردت في [الكهف: 40]، البيت المستشهَد به نُسب لحسّان بن ثابت، وقال محمّد فؤاد عبد الباقي: ليس في ديوانه.(52)

– **ربيّون**: وردت في [آل عمران: 146]، البيت المستشهَد به نُسب لحسّان بن ثابت، وقال محمّد فؤاد عبد الباقي: ليس في ديوانه.(53)

– **ضيزى**: وردت في [النّجم: 22]، البيت المستشهَد به نُسب لامرئ القيس، وقال محمّد فؤاد عبد الباقي: ليس في ديوانه.(54)

وغيرها: المعصرات(55)، عضدك(56)، غاسق(57)، غَول(58)، الفلق(59)، تنوء(60)، هضيم(61).

تحليل بعض المسائل:

1– أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**﴾،[المعارج: 37] قال: العزون: حلَق الرّفاق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤوا يُهرعون إليه حتّى يكونوا حولَ منبره عزينا

قال الطّبري بأنّ تأويل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾، أي فرقا حول نبيّ الله ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيّه.(62)

وينقل حديثا عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلــق، فقال: <<ما لي أراكم عزين؟>>.[63]

والملاحظ أنّ ابن عبّاس لم يستشهد بهذا الحديث، ولكنّه لمّــا أراد أن يثبــت أن الكلمة تعرفها العرب استشهد ببيت من الشّعر.

ونقل صاحب المصباح المنير عن الطّرطوسي أنّ معنى عزين جماعات يــأتون متفرّقين.[64]

2- قال أخبرني عن قوله: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، [المائــدة: 35] قــال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إنّ الرّجــالَ لَهــمْ إليــكِ وســيلةٌ   إنْ يأخُــذوكِ تَكَحّلــي وتَخَضّــبي

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: <<الوسيلة درجة عند الله عــزّ وجلّ، وليس فوقها درجة.>>[65]

وقال ابن عبّاد (ت385ه): <<وسل فلان إلى ربّه وســيلة: أي عمــل قربــة، وتوسّل بكتاب أو بقرابة، وهو واسل، والوسيلة المنزلة، وهي الواسلة أيضا.>>[66]

وقال ابن فارس (ت395ه): <<وسل: الواو والسّين واللام كلمتان متباينتان جدّا، الأولى الرّغبة والطّلب، يُقال وسل، إذا رغب، والواسل: الرّاغب إلى الله عزّ وجلّ، وهو في قول لبيد:

بلى كلّ ذي دين إلى الله واسل

ومن ذلك القياس الوسيلة، والأخرى السّرقة، يقال: أخذ إبله توسّلا.>>[67]

3- قال: أخبرني عن قوله: ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، [المائدة: 48] قال: الشّرعة: الدّين، المنهاج: الطّريق.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصّدق والهدى وبيّن للإسلام دينا ومنهاجا

جاء في تفسير ابن عبّاس: سبيلا وسنّة.[68]

وذهب ابن فارس إلى أنّ النّهج والمنهج والمنهاج بمعنى واحد وهو الطّريق.[69]

وقال النّحاس (ت338ه) بأنّ المنهاج في اللّغة الطّريق البيّن.[70]

وقال الكفويّ (ت1094ه) صاحب الكليّات: <<المنهاج: الطّريق الواضح>>[71]

وهناك من ذهب إلى أنّ الاستشهاد بشعر أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لا يعتدّ به، لأنّ الأصل أن يُحتجّب الشّعر الجاهليّ السّابق لظهور الإسلام، كما كان يسأل ابن الأزرق: <<وهل تعرف العرب ذلك؟>>، أمّا هذا الشّاعر فهو إسلامي، وُلد سنة 571م، وهي السّنة الّتي وُلد فيها النّبيّ ﷺ.[72]

4- قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾، [الأنعام: 99] قال: نضجه وبلاغه.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت قول الشّاعر:

إذا ما مَشَتْ وَسْطَ النّساء تَأَوّدَتْ كما اهتزّ غُصْنٌ ناعِمُ النّبتِ يانِعُ

في تفسير ابن عبّاس، ينعه: يعني إذا نضج[73]، وقال النّحاس: <<وينعه: أي ونضجه، يقال: يَنْعٌ ويُنْعٌ، وأينع ويَنَع: إذا نضج وأدرك.

وقال الحجّاج في خطبته: أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها.>>[74]

وجاء في الكليّات دم يانع: أحمر، وقد ينع، ومنه الينيع واليانع ولمونع من الثّمر: المدرك.[75]، وكلّ هذه المعاني تدلّ على النّضج والإدراك.

5- قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾، [الأعراف: 26] قال: الرّيش: المال.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت الشّاعر يقول:

فَرِشْني بِخَيْرٍ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَني وخَيرُ المَوالي مَنْ يَريشُ ولا يَبْري

في تفسير ابن عبّاس: ريشا: مالا[76]، وذكر ابن عبّاد أنّ الرّيش: المال.[77]

وجاء في معاني القرآن للنّحاس: <<قال مجاهد: الرّيش: المال، وقال قتادة: الرّيش: اللّباس، وقال أبو عبيدة: الرّيش، والرّياش: ما ظهر من اللّباس والشّارة>>[78]

وجاء في مقاييس اللّغة: <<ريش: الرّاء والياء والشّين أصل واحد يدلّ على حسن الحال، وما يكتسب الانسان من خير، فالرّيش الخير، والرّياش: المال>>[79]

وجاء في الكليّات: الرّيش: ما ظهر من اللّباس الفاخر كالرّياش والخصب والمعاش.[80]

وكلّها معان تدلّ على الحال الحسنة نتيجة ما يصيب الإنسان من خير ومال.

الاحالات:

[1] ينظر مباحث في علوم القرآن، مناع القطّان، الطّبعة الثّالثة عشر، 2004، مكتبة وهبة، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ص: 14.

[2] ينظر إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عبّاس، الطّبعة الأولى، 1997، دار الفرقان، عمان، الأردن، الجزء: 1، ص: 50.

[3] ينظر مباحث في علوم القرآن، ص: 16.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب أُنزل القرآن على سبعة أحرف، البخاري أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم، بن بردزبه، صحيح البخاري، اعتنى بها وضبط نصّها: أحمد جاد، الطّبعة الأولى، 2002، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، ص: 974. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أنّ القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، مسلم بن الحجّاج، صحيح مسلم، دار ابن الهيثم، 2001، القاهرة، مصر، ص: 194.

[5] أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن، باب أُنزل القرآن على سبعة أحرف، ص: 974، صحيح البخاري. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أنّ القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، ص: 194، صحيح مسلم. واللّفظ للبخاري.

[6] ينظر مناهل العرفان في علوم القرآن، الشّيخ محمّد عبد العظيم الزّرقاني، تحقيق: أحمد بن علي، 2001، دار الحديث، القاهرة، مصر، الجزء: 1، ص: 129.

* عذق: طيب عذق: ذكيّ الرّيح. المعجم الوسيط، ص: 613.

[7] ينظر الرّحيق المختوم، الشّيخ صفيّ الدّين المباركفوري، الطّبعة الثّالثة، 2006، دار صبح، بيروت، لبنان، ص: 57.

[8] ينظر التّفسير الكبير المسمّى بالبحر المحيط، أثير الدّين بن حيّان الأندلسيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، 1990، ج: 2، ص: 385.

[9] تفسير التّحرير والتّنوير، محمّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر الجزء الأوّل، الكتاب الأوّل، ص: 22.

[10] ينظر البحر المحيط، ج:2، ص:381.

[11] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطّبريّ ابن جرير، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيـــع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 2001، ج: 3، ص: 224.

[12] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: 3، ص: 226.

[13] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: 3، ص: 224.

[14] نقلا عن القرآن الكريم وأثره في الدّراسات النّحويّة، عبد العال سالم مكرم، المكتبة الأزهريّـــة للتّراث، ص: 242.

[15] المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، جلال الدّين السيّوطي، شرح وتعليق: محمّد جاد المولى بك، ومحمّد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمّد البجاوي، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، طبـــع ســـنة: 1987، ج: 1، ص: 235.

[16] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج: 2، ص: 546.

[17] الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل فـــي وجـــوه التّأويـــل، أبـــو القاســـم جـــار الله الزّمخشري، شرح وضبط ومراجعة: يوسف الحمّادي، مكتبة مصر، الفجالة، ج: 4، ص: 471.

[18] ينظر تفسير التّحرير والتّنوير، الجزء الأوّل، الكتاب الأوّل، ص: 18.

[19] المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، أحمد بن محمّد بن أحمد السّمرقندي، تحقيـــق: صـــفوان عدنان داوودي، دار العلوم، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1988، ص: 08.

[20] المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، ص: 09.

[21] المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى، ص ص: 12–13.

[22] معاني القرآن، أبو جعفر النّحاس، تحقيق: د. يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، مصر، طبـــع سنة: 2004، الجزء: 2، ص: 995.

[23] الإتقان في علوم القرآن، ص: 287.

[24] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء: 30، ص: 65.

[25] الجامع الكبير، التّرمذي محمد بن عيسى، تحقيق بشار عـــوّاد، الطّبعـــة الأولـــى، 1996، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الجزء: 3، ص: 545.

[26] معجم مقاييس اللّغة، أحمد بن فارس، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1999، المجلّد الأوّل، ص: 616.

(27) لسان العرب، ابن منظور، قدّم له العلاّمة الشّيخ عبد الله العلايلي، أعاد بناءه علـــى الحـــرف الأوّل من الكلمة: يوسف خيّاط، دار الجيل/دار لسان العرب، بيروت، لبنان، 1988، المجلّد الثّالث، ص: 323.

(28) ينظر الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص: 212.

(29) تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدّينوري، تحقيق: سعد بـــن نجـــدت عمـــر، مؤسّسة الرّسالة ناشرون، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 2011، ص: 46.

(30) صحيح البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري، طبعة مضبوطة ومشكّلة وملوّنـــة ومتّفقة وترقيم المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، اعتنى بها وضبط نصّها أحمد جاد، رقم الحديث: 6145، دار الغد الجديدة، المنصورة، مصر، الطّبعة الأولى، 2002، ص: 1262.

(31) الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة وسنن العرب في كلامها، ص ص: 211–212.

(32) الإتقان في علوم القرآن، تأليف الإمام جلال الدّين السّيوطي، حقّقه وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: فؤاد أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، سنة الطّبع: 2004، ص:301.

(33) معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري وفيه ما ورد عن ابن عبّاس من طريـــق ابن أبي طلحة خاصّة، ملحق به مسائل نافع بن الأزرق لابن عبّاس، وضعه محمّـــد فـــؤاد عبـــد الباقي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ص: 234.

(34) الإتقان في علوم القرآن، ص: 301.

(35) الإتقان في علوم القرآن، ص: 301.

(36) الإتقان في علوم القرآن، ص: 301.

(37) ينظر معجم مقاييس اللّغة، المجلّد الأوّل، ص: 277.

(38) ينظر معجم مقاييس اللّغة، المجلّد الأوّل، ص: 278.

(39) معجم الشّامل في علوم اللّغة العربيّة ومصطلحاتها، محمّد سعيد إسبر وبلال جنيدي، الطّبعـــة الثّانية، 1985، دار العودة، بيروت، لبنان، ص ص: 55–56.

(40) ينظر معجم الشّامل في علوم اللّغة العربيّة ومصطلحاتها، ص: 56.

(41) ينظر معجم الشّامل في علوم اللّغة العربيّة ومصطلحاتها، ص: 56.

(42) ينظر خزانة الأدب ولبّ لباب العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، شرح وتحقيـــق: عبـــد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطّبعة الثّانية، الجزء: 1، ص ص: 5–6.

(43) ينظر خزانة الأدب ولبّ لباب العرب، الجزء:1، ص: 6.

(44) ينظر تفسير الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، الجزء: 1، ص: 75.

(45) ينظر موقف عبد القاهر الجرجاني من النّحو، يوسف عبود، مجلة المعرفة، مجلة ثقافيــة شــهرية، تصدرها وزارة الثّقافة في الجمهوريّة العربيّة السّوريّة، العدد: 548، السّنة: 2009، ص: 159.

(46) الإتقان في علوم القرآن، ص ص: 301–327.

(47) ينظر الإتقان في علوم القرآن، ص: 327.

(48) ينظر مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النّقد، د. عبد الرّزاق بن إسماعيل هرماس، حوليّات كليّــة الشّريعة والقانون والدّراسات الإسلامية، العدد السّادس عشر 1419ه–1998م، جامعة قطر، ص: 26.

(49) ينظر مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النّقد، ص: 26.

(50) ينظر مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النّقد، ص: 28.

(51) ينظر مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النّقد، ص: 28.

(52) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 248.

(53) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 254.

(54) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 266.

(55) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 268.

(56) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 268.

(57) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 271.

(58) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس مــن طريق ابن أبي طلحة، ص: 271.

(59) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس من طريق ابن أبي طلحة، ص: 274.

(60) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس من طريق ابن أبي طلحة، ص: 286.

(61) ينظر معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وفيه ما ورد عن ابن عبّاس من طريق ابن أبي طلحة، ص: 287.

(62) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء: 29، ص: 90.

(63) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء: 29، ص: 91.

(64) ينظر المصباح المنير، أحمد بن محمّد بن علي الفيومي، طبع ونشر وتوزيع دار الحديث، القاهرة، ص: 243.

(65) معاني القرآن للنّحاس، ج: 1، ص: 284.

(66) المحيط في اللّغة، الصّاحب ابن عبّاد، تحقيق: محمّد عثمان، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 2010، المجلّد الثّالث، ص: 126.

(67) معجم مقاييس اللّغة، المجلّد الثّاني، ص: 631.

(68) تفسير ابن عبّاس المسمّى صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عبّاس في تفسير القرآن الكريم، اعتنى بها وحقّقها وخرّجها راشد عبد المنعم الرّجال، مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، 1993، ص: 181.

(69) ينظر معجم مقاييس اللّغة، المجلّد الثّاني، ص: 528.

(70) معاني القرآن للنّحاس، الجزء: 1، ص: 290.

(71) الكليّات معجم في المصطلحات والفروق اللّغويّة، أبو البقاء أيّوب بن موسى الحسينيّ القريمي الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمّد المصريّ، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، 2011، ص: 440.

(72) ينظر مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النّقد، ص: 28.

(73) تفسير ابن عبّاس، ص: 208.

(74) معاني القرآن للنّحاس، الجزء: 1، ص: 346.

(75) المحيط في اللّغة، المجلّد الأوّل، ص: 234.

(76) تفسير ابن عبّاس، ص: 224.

(77) المحيط في اللّغة، المجلّد الثّاني، ص: 480.

(78) معاني القرآن للنّحاس، الجزء:1، ص: 376.

(79) معجم مقاييس اللّغة، المجلّد الأوّل، ص: 501.

(80) الكليّات، ص: 406.

"أهمية الشعر الجاهلي في فهم القرآن الكريم".

د. يوسف وسطاني.
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف 2

مُقدّمة:

يندرج مضمون هذه المداخلة في نطاق المحور الثـاني مـن محـاور الملتقـى، ويتناول- بشيء من التفصيل مسألة "الشعر الجاهلي" – ديوان العرب – والذي يُعـدّ بحقّ سجلاّ حافلا بأنماط وخصائص الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافيـة، والـذي يعكس – من ناحية ثانية – المستوى الراقي الذي بلغته اللغة العربية أثناء هذه الحقبة التاريخية من حياة العرب، ذلك المستوى الذي انعكس بجلاء في ديـوان أشـعارهم الخالد، في مختلف صنوف وأغراض كلامهم المنظوم، والذي احتـلّ عنـدهم تلـك المكانة السامية والمرموقة، يتفاخرون بها فيما بينهم، وأكثر من ذلك فـإنهم ليقيمـون الحفلات كلّما ذاع صيت لأحدهم في هذا المجال. ويتّضح لنا من خلال من حلال كلّ ذلك ما بلغته "**الكلمة**" من أهمية قُصوى عندهم، فيمـا يُسـمّى: العصـر الجـاهلي، وتأثيرها البالغ في نفوسهم، وفي شتّى تعاملاتهم. والكلمة –إبّان هذه الحقبة من تاريخ العرب – مناط كل سلوكياتهم على كافة الأصعدة، فبها تُعلنُ الحروب الطاحنة التـي قد تدوم بل ودامت أربعين سنة، وبها يُعقَدُ الصلح وتنتشر وشائج التآخي والتواصـل والتحالف وتُبرم عقود المعاهدات، وكلّ تلك الحركيات الاجتماعية والثقافيـة سـجّلها ديوانهم الشعري الخالد. وتشرق رسالة الإسلام الخالدة على شبه الجزيرة العربيـة – وقد بلغ العرب ذلك الشأو العظيم من البلاغة والبيان – وتشاء الحكمة الإلهية التي لا

تدركها الأبصار أن يكون عماد هذه الرسالة وقوامها "**الكلمة**" بلسان عربي مُبين، ذي صِلة وُثْقى بلغة ذلك الديوان الشعري، وهي في أوج ازدهارها ورقيّهـــا، ومنطلـــق وأساس اعتزاز وفخر عرب العصر الجاهلي. وتأتي لغة القرآن الكـــريم – باللســـان العربي المبين لتفحم فطاحل الشعر ورواده ومتعاطيه، بالأسلوب المعجـــز والبلاغـــة الأخاذة احتارت لها العقول والألباب، إذ نزل الوحي الإلهي لغة الشـــعر المعهـــودة، ولكن أعجز البلغاء بالإتيان بمثله لأن إعجازه في نظمه، ومع ذلك كان لشعرهم الأثر المباشر في تذوق بل وفهم الكثير من آي الذكر الحكيم.. وبذلك كان عـــرب الحقبـــة الجاهلية في مستوى الوحي الإلهي الخالد – لغةً – أمكـــن لهـــم أن يتفـــاعلوا مـــع مضامينه تفاعلا واضحا، حيث كان من آثار ذلك التفاعل إصدار الأحكـــام المختلفـــة سجلتها كتب الأدب والتاريخ. وفي هذا النطاق، تندرج مداخلتنا، إذ تبحث في مجـــال أهمية الشعر الجاهلي في فهم القرآن الكريم قديما وحديثا، والوقـــوف علـــى بعـــض النماذج التطبيقية التي تبيّن دور الشعر الجاهلي في الارتقاء إلـــى أسـلـــوب القـــرآن الكريم، والتأثر به وفهمه، ممّا يستوجب إعطاءه الأهميـــة القصـــوى فـــي مجـــالات المنظومة التعليمية ومناهجها. وتطبيقا لبعض مناحي مضمون المداخلة، اقتطفنا بعض الأبيات الشعرية من تلك الحقبة التاريخية للعربية، من ديوانها الحضاري والثقـــافي، من أغراض شتّى، وربطها ببعض آي الذكر الحكيم، لتتّضح بعـــض ملامـــح لغتـــه بأساليبها ومفرداتها وطرق تأديتها لمختلف المعاني مع أساليب القرآن الكريم ولغتـــه الخاصة، محاولين بذلك إبراز مكانة وأهمية الشعر الجاهلي ودوره في فهـــم القـــرآن الكريم، بشيء من تلك الأدلة اللسانية، وانطلاقا من العناصر الآتية، التـــي نتناولهـــا بشيء من التفصيل، وذلك على النحو الآتي:

1 – توطئة: إشارة إلى مكانة الشعر في العصر الجاهلي.

2- الشعر الجاهلي أحد الوسائل الأساسية لفهم القرآن الكريم: نماذج تطبيقية.

3- خاتمة: النتائج.

1- **توطئة:**

لئن كان من غير الممكن – في هذا المقام – الإشارة بشيء من التفصيل لمصطلح **الجاهلية**، أو ما يُسمّى في تاريخ الأدب العربي بالعصر الجاهلي للوقوف على معناه الاصطلاحي، فإن الذي يُناسب بعض الخصائص الاجتماعية والفكرية والثقافية لهذه الحقبة التاريخية من حياة العرب هو **الشعر الجاهلي** بمفهومه الاصطلاحي، وبنسبته إلى لفظ "**الجاهلية**" والتي تعني تلك الفترة الزمنيّة التي سبقت بعثة آخر الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلم برسالة الإسلام الخالدة. ولقد كان القرآن الكريم – قوام هذه الرسالة – أوّل من أشار إلى مصطلح "الجاهلية" في بعض من آيات الذكر الحكيم، منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ آل عمران/154، وقوله جلّت قدرته: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾/الفتح/26 ويتبيّن لنا ولكلّ دارس أنّ مدلول لفظة "جاهلية " قد تلوّن بمعان مختلفة، وذلك انطلاقا من المدلول اللغوي المعجمي إلى مدلول أوسع، ويتعلّق الأمر بذلك المصطلح الذي يُطلقُ على فترة طويلة من الزّمن من حياة العرب، وعلى العديد من القبائل العربية في رقعة جغرافية خاصة هي شبه الجزيرة العربية، في إطار ثقافي وحضاري. ولقد وردت لفظة " الجاهلية " بمعان ومفاهيم مختلفة، منها ما ورد في الشعر الجاهلي ذاته، كما في قول أحد فطاحله وهو الشاعر: "عمرو بن كلثوم " في البيت الآتي:

أَلاَ لاَ يجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا.

وقد وردت هذه اللفظة في بعض آي القرآن الكريم كما مرّ بنا في مستهلّ هـذه التوطئة، كما تضمنتها بعض الأحاديث النبوية الشريفة للنبيّ محمد صلّى الله عليه وسلم، كما في ردّه على الصحابي أبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه، لمّا عيّر رجلا، فقال له النبيّ ما نصّه: "...إنّك امرؤ بك جاهلية.." وأمّا في مجال التأليف، فإننا نجد مصطلح الجاهلية عنوانا لبعض المصادر القديمة، سواء أكانت مجموعة شعرية أم دواوين لبعض الشعراء، أو ما وَرَد ضمن الأخبار التاريخية ذات الصلة بالأدب وتاريخه. وأما استعمال لفظة "الجاهلية" عند المحدثين، فأكثر ما تمّ استخدامها فيما يتعلّق بمجال التأليف الأدبي، وذلك بعدما احتكوا بالثقافة الغربية عند دراستهم للتاريخ الأدبي وأطواره، أو من قبيل التأثر المباشر بالمستشرقين الذين احتكوا بالعرب في مجال التدريس بالجامعات في بعض الأقطار العربية، ويندرج ذلك -بطبيعة الحال- في حقل دراسة العصور الأدبية. ويبدو من خلال ما تقدم أن بسط الحديث عن هذه اللفظة يطول بما تقتضيه من تفاصيل عبر مراحل تطورها، والمؤكّد أنها -أي لفظ الجاهلية - أنها تحولت من مدلول حضاري جاهلي إلى مدلول ديني وفكري. ولعلنا نتمكّن من خلال المدلوليْن السابقين نقف على أحد معاني الجاهلية والذي يتمثل في معنى الجهل نقيض الْعلْم، مع انتشار الضعف الفكري وقلّة المعرفة. أمّا من النّاحية الدينية فإنّه يُصطلحُ بمفهوم الجاهلية على تلك الحقبة من الزمن المعروفة بعبادة الأصنام والأوثان، وانتشار الرذائل والعصبية القبلية وكثرة الظلم، مع اتصاف الجاهليين بالطيش لأنهم لا يحكمهم نظام سياسي معين، إلاّ نظام القبيلة السائد في شبه الجزيرة العربية في تلك الحقبة من الزمن. بشأن تحديد العصر الجاهلي ضمن الدراسات الأدبية والتاريخية، يقول "**شوقي**

ضيف" ..." نقف بالعصر الجاهلي عند مئة وخمسين عاما قبل الإسلام، ومـــا وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولي"[1].

ولعلّ ما تجب الإشارة إليه، بعد هذا العرض الوجيز لبعض معاني مصـــطلح: "الجاهلية" هو ديوان العرب في هذه الفترة الزمانية من تاريخهم، ويتعلـــق الأمـــر بالشعر. فمن نافلة القول أن نذكر بمكانة فنون القول لدى الجاهليين، إذ يحتل الشعر تلك المكانة المرموقة لديهم، فهو وسيلتهم في السلم والحرب، وفي المدح والرثـــاء، والتشبيب والوصف، وبذلك عكس كلّ أوجه الحياة الاجتماعية لديهم، فبلغ الشـــعر عندهم شأوا عظيما، يتفاخرون به وبصنوفه فيما بينهم، بـــل ويقيمـــون الحفـــلات الذائعة إذا ما نبغ أحد أفراد القبيلة في فنون الشعر. وبهذا الشأن يشير "**الجاحظ**" إلى أهمية الشعر في الحياة الجاهلية، وهو أكثر ورودا من النثر، مؤكّدا أنّه الصـــورة العاكسة بصدق لحياة العرب في الجاهلية، فقال بهذا الشأن: "...أمّا الشعر العربـــي فحديث الميلاد صغير السن، أوّل من نهّج سبيله وسهّل الطريق إليه "**امرؤ القـــيس بن حُجْر**" و"**مُهلهل بنُ ربيعة**".. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له –إلى أن جـــاء الله بالإسلام– خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاســـتظهار فمـــائتيْ عـــام"[2] وواضح أن الشعر في العصر الجاهلي بهذا المنظور– أي منظور الجـــاحظ– هـــو ذلك الشعر الذي بلغ مرحلة النضج والاكتمال، أما أولياته التي سار عليها والمتعلقة بالفترة الزمانية المشار إليها في مستهل هذه الفقرة. ويتبيّن لنا من خلال مـــا تقـــدم تلك الوظائف العديدة التي اضطلع بها الشعر كما لا يخفى على كل ذي بصيرة تلك المكانة السامية التي احتلتها فنونه على اختلاف مضامينها وأجناسها خلال العصـــر الجاهلي، والذي اكتملت لغته، والتي بلغت ما بلغت من رقيّ في الأداء، وذلك فـــي إطار النظام القبلي، الذي يسير جميع شؤونهم، مع إيلاء كل شاعر في القبيلة مكانته

الخاصة به بالتكريم والتبجيل والتقدير والاحترام، لا يملون مــن ذلــك الفعــل ولا يسأمون، ومن الأمثلة على ذلك الاحتفاء ودرجة التعلق بالشر والشعراء ما جاء في شأن قبيلة "**بني تغلب**" من أنهم كانوا شديدي الولع "برائعة شــاعرهم **عمــرو بــن كلثوم**، التي أُدرجت فيما بعد ضمن المعلقات،"[3] فكانت على لسان كل فــرد مــن أفراد القبيلة، يتفاخرون بها، بل وتنتقل من جيل إلى جيل، عند الكبار والصغار على حدّ سواء. وسجل تلك الظاهرة أحد شعراء **بكر بن وائل**، وهو بصدد هجــاء **بنــي تغلب** في البيْتيْن الآتييْن[4]:

أَلْهَى بَني تَغْلُبٍ عَــنْ كُــلِّ مَكْرُمَــةٍ َصِــيدَةُ قَالَهــا عَمْــرو بــنُ كُلْثُــومِ
يَرْوُونهـــا أَبَـــدًا مُـــذْ كَـــان أَوّلُهـــم يَا للِرِّجـــال لِشِـــعْرٍ غَيْـــر مســـئوم.

كما تشير كتب الأدب المتخصصة، إلى أنّه –إضافة إلى تلك العناية الفائقة بالشــعر والشعراء– فقد كان لكلّ شاعر راوية يسجل أشعارها ويُنشدها، وقد ظلّ هــذا الأمــر مُتداولا إلى عهد جرير والفرزدق في عهد بني أمية. وإبرازا لمكانة الشــعر والشــاعر في آن واحد، فقد كان الراوي شاعرا أيضا، وقد يكون راويا فقط[5]، وبذلك فقد اتصلت سلسلة الرواة من العصر الجاهلي إلى عصر بني أمية كما سلف القول، ومن أمثلة ذلك فقد كان **زهير بن أبي سلمى** راوية **أوس بن حجر**، وهما شاعران جاهليان، كما كــان –وهو شاعر مخضرم– راوية **زهير ... وهكذا**. ومهما يكن من أمر الحديث عن أهمية الشعر الجاهلي ومكانته عند عرب الجاهلية، فإن الذي لا ريب فيه أنّــه- أي الشــعر– ديوانهم الضخم، ومرآة أوجه حياتهم الاجتماعية، سواء تعلق الأمر بشــعر الأفــراد أم شعر القبائل، فقد بلغ محفوظهم منه حدّ مذهلا كما تقول الدراســات الأدبيــة، وبــذلك فالشعر الجاهلي كنز لا يفنى، ونبع فياض للغة العربية، كيف لا وهو الذي نزل بلغتــه

القرآن الكريم، فأضحى مصدرا من مصادر تفسيره وتوضيح أحكامه بعد مجيء الرسالة الإسلامية الخالدة.

2 – **الشعر الجاهلي مصدر من مصادر فهم القرآن الكريم:** لقد برع شعراء الجاهلية في أشعارهم، وبذلك تعددت أغراضه، فكانت انعكاسا صادقا لطبيعة الحياة الصحراوية ووعورتها، وشظف العيش، والحروب السائدة بين القبائل العربية، وكل ذلك كان له أثره المباشر في ثراء وغزارة أشعار الجاهليين على اختلاف انتماءاتهم القبلية. ولئن أشرنا في السطور السالفة إلى بعض معاني مصطلح **الجاهلية**، والتي من بينها السفه والطيش والعصبية وسرعة الغضب، وإتيان الفواحش... وما إلى ذلك من الخصال المذمومة، فإنه بالمقابل لكل ذلك تميزوا بالكثير من الخلال الحميدة والأخلاق الفاضلة، مثل الكرم والإباء والشهامة ونجدة الملهوف... كل هذا وذاك سجلته أشعارهم، فتضمنها ديوانهم المميز. ذلك أن طبيعة الحياة في الصحراء ووفق مقتضيات النظام القبلي، جعلت عربي الجاهلية يعيش متجولا في فيافيها بحثا عن مورد رزق، ومصدر حياة، متخذا من خطوات البعير أوزانا، ومن حُداه تعبيرا وأوزانا يقطع بها البيداء، ومن ثم، كان الشعر – عند هذا العربي وسيلة ناجعة فرضتها الحياة القاسية عليه فاتخذها سبيلا للمحافظة على الذات[6]. وإذا كان المقام لا يتناسب وعرض كل تلك الأغراض والأجناس التي مثلها الشعر الجاهلي من وصف ورثاء وهجاء ومدح...وغيرها والتي صورت بصدق المشاعر التي تنتاب قائلها في مختلف المواقف وأحداث الحياة، فإن الذي تجدر الإشارة إليه هو علاقة الشعر الجاهلي بالقرآن الكريم. وكيف يمكن لنا أن نوظفه لغته بمفرداتها وأساليبها المميزة في فهم وتدبّر آي الذكر الحكيم؟ ففي البداية نشير إلى أن الشعر الجاهلي المدون الذي تناولته الدواوين المختصة قد

اكتملت لغته، اللغة العربية الموحدة، بغض النظر عن مختلف اللهجات العربية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية. ومن هنا فإننا نعني بالشعر الذي يعدّ أحد مصادر فهم القرآن الكريم ذلك الشعر الخاضع للعربية التي نزل بها القرآن الكريم، وفق ما جاء في العديد من الآيات الكريمة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾ يوسف2، وقوله جلّت قدرته: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ۝١١٣﴾ طه113، وقوله جلّ وعلا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ الشعراء: 193–194–195 والسؤال: هل بلغت لغة الشعر الجاهلي مستوى الرقي والإبانة التي ترقى إلى أن تقارب لغة القرآن الكريم، ويشكّل بذلك أحد المصادر الأساسية لفهمه، وتدبّر آياته الكريمة وأحكامه السمحة؟ يقول **شوقي ضيف** مُشيرا إلى ما بلغته لغة الشعر الجاهلي وألفاظه، وتراكيبه ما نصّه:

""...من أهمّ ما يُلاحظ على الشعر الجاهلي أنّ كامل الصياغة، فالتراكيب تامة، ولها دائما رصيد من المدلولات تعبّر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها، فلا قصور فيها ولا عجز. وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يُصوّر رقيا لغويا، وهو رقيّ لم يحدث عفوًا، فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر، ومازالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتّى أخذا الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التّامة، فالألفاظ تُضع في مكانها، والعبارات تؤدي معانيها اضطراب. بدون اضطراب(7)."" فها هي ذي شهادة مقتضبة توثق مسألة نضج الشعر الجاهلي واستوائه على عوده، وبلوغه تلك المرتبة السامية لغة وتراكيب وأسلوبا. ولئن بدا هذا الشعر –بما وصل إلينا وافرا وغزيرا– فإنه في واقع الأمر غير ذلك، إذ لم نحظ إلا بالقليل منه مما جعل **عمرو**

بن العــلاء وهو أحد أئمة العربية يقول: "... ما انتهى إلينا مما قالته العرب إلاّ أقلّه ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير.." ويقتضــي المقــام ههنــا أن نشــير –بإيجاز– إلى بعض مصادر الشعر الجاهلي، فقد جمــع رواة البصــرة والكوفــة ورواتهما سابقا مادة الشعر الجاهلي، موزعة على منتخبات عامة، ودواوين مفردة للشعراء وأخر للقبائل، بالإضافة إلى كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة. فأما مت تعلق بالمنتخبات فأوّل ما نشير إليه هو: **المعلقات** التــي صــدر خــلاف بشأنها بين العلماء والمختصين فيما يتعلق بجمعها وتسميتها. وتشير بعض المصادر إلى أن أول من رواها في ديوان خاص بها هو "**حماد الراوية**"[8]. والمعلقات ســبع للشعراء: امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، والحــارث بن حلزة، وعنترة بن شداد العبسي. أما المجموعة الثانية مــن منتخبــات الشــعر الجاهلي فتتجلّى هي: **المفضليات** نسبةً إلى راوي الكوفة: **المفضل الضبي**، وتــأتي بعد ذلك المجموعة الثالثة من منتخبات الشــعر الجــاهلي العامــة وتتمثــل فــي: **الأصمعيات** نسبة إلى راويها **الأصمعي**، وقد بلغ عدد قصــائدها اثنتــين وتســعين قصيدة موزعة على واحد وسبعين شاعرا منهم أربعون شاعرا جاهليا، ثــم تــأتي **جمهرة أشعار العرب**، لصاحبها: **أبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي**، وتضــمّ تسعا وأربعين قصيدة على سبعة أقسام في مكل قسم سبعة قصائد....وهناك مصادر أخرى تتعلق بالشعر الجاهلي لا يسع المقام لــذكرها...لأن الكثيــر مــن أشــعار الجاهليين منثورة هنا وهناك في مدونات وكتب مختلفة المذاهب مثل كتاب: **طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي**، و**الشعر والشعراء لابن قتيبة**، وكتب النقد مثل كتاب: نقد الشعر **لقدامة بن جعفر**، وكتاب **الصناعتين لأبي هــلال العســكري**، وكتــاب الوساطة **للجرجاني**، **والعمدة لابن رشيق**. والخلاصة أنه إذا فُقد الكثير من الشــعر

الجاهلي، والدواوين الشعرية فإن كتاب "**الأغاني**" **لأبي الفرج الإصفهاني** خير معوض لذلك، لأنه يُعدّ بحقّ أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلي وشعرائه. وبعد، فإن هذه الإطلالة الوجيزة عن مكانة الشعر الجاهلي في زمانه وحقبه التاريخية المتعاقبة، والوقوف على بعض خصائصه اللغوية الراقية، وسمو أساليبه، ودقة تعابيره، فقد آن الأوان لنقف على بعض العينات والنماذج من الأشعار محاولين ربطها ببعض آي الذكر الحكيم، بحسب مضامين تلك الأبيات، علما أن مواضيع وأغراض الشعر الجاهلي –وإن كانت كثيرة– فإنها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة أصحابها العاطفية والاجتماعية، أي وليدة البيئة التي يعيشها الشاعر، وتبعا لذلك فإن المعوّل عليه من تلك النماذج التطبيقية هي لغتها في مجملها، ونعني بذلك جميع المستويات التي تتشكّل منها العبارة، ثم طبيعة القيم المختلفة التي تتضمنها تلك العبارة، مع الإشارة إلى أن النماذج أو الأبيات الشعرية المنتقاة لم يتمّ ترتيبها وفق نسق زمن معين، وإنما استعملت اعتباطا دونما ترتيب، لأن الغرض منها هو الوقوف على طبيعة لغتها، ثم محاولة إجراء مقارنة بين البيت الشعري أو عبارة معينة منه مع بعض الآيات القرآنية التي تكون ذات صلة معينة به سواء من جهة التركيب والألفاظ، أو المعاني والقيم التي يتوافق بها ذلك البيت مع مضمون أحكام الآية الكريمة.

الأنموذج الأول: لعروة بن الورد في طلب الرزق بطرق مشروعة وسلمية:

فسِرْ في بلادِ اللهِ والْتَمِسِ الغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أوْ تَمُوتُ فَتُعْذَرا[9]

....في البيت قيمة أخلاقية وتربوية بارزة، تتجلى في السعي الحثيث لطلب الرزق، وذاك من القيم النبيلة التي حث عليها القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ **الملك/15**.

فبالرغم من أن البيت الشعري سابق على نزول الآية الكريمة، إلا أن نلاحظ وكأن الشاعر قد اقتبس المعنى الإجمالي من ثناياها. وهو بمفهــوم البلاغيــين اقتبــاس بالمعنى، ويؤازر ذلك ما ورد في الحديث : "ملعون من ألقى كلّه على الناس.

الأنموذج الثاني[10]: وفي منحى غرس القيم والأخلاق الحميدة، وغرس بــذور العفة والأنفة والشرف مهما كانت الظروف القاسية التي تحـيط بــالمرء، يصــدح الشاعر " الصعلوك "**الشنفرى**" بالكثير من القواعد الأخلاقية التي ترفع صاحبها إلى أسمى المكارم فيقول في لاميته الشهيرة:

أُديــمُ مِطــالَ الْجــوعِ حتَّــى أُمِيتَــهُ وَأَضْرِبُ عَنْــهُ الــذِّكْرَ صَـفْحًا فَأَذْهــل
وأَسْتَفُّ تُـرْبَ الأرْضِ كــيْ لا يَـرى لــهُ عَلَــيَّ مِــنَ الطَّــوْلِ امــرؤٌ مُتَطَــوِّلُ

من مضمون البيت، تنبعث روح الإباء وعزّة النفس التي عُـرِفَ بــه الإنســان الجاهلي، وتلك قيم ومثل عليا أخلاقية نحن أمسّ في أمسّ الحاجة إليها فــي زماننــا هذا. ولعلّ الأهمّ من ذلك ما جاء من ألفاظ جزلة قوية، مفعمــة بالمعــاني الســامية، والتي وردت في القرآن الكريم، وتبعًا لذلك يسعدنا هذا البيت فــي تــدبّر أحكامهــا ومعانيها، ويمكن أن نسجّل من ذلك البيت هذه الألفاظ ثمّ نبحث عن اســتخدامها فــي بعض الآيات الكريمة، من ذلك ما يأتي: لفظة "**الــذِّكْر**": استخدمها الشاعر في ســياق معيّن يتمثل في الفخر بعزة النفس، ومنعي **ذَكَرَ** الشيء أي حفظــه، والــذّكر جــري الشيء على اللسان' أي المداومة على ذكره أي لا ينساه، والذّكْر: الكتاب الــذي فيــه تفصيل الدين[11]، وقد ورد ذكره في كتاب الله عزّ وجلّ بهذا المعنى أي القرآن الكريم في قوله ســبحانه وتعــالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ الحجر6، وقوله سبحانه وتعالى فــي الســورة نفســها: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ الحجر/9، وقد وردت هذه المادة في العديد من الآيات الكريمة، موافقــة

بدرجات متفاوتة لمعنى جذر الكلمة الأصلي "ذَكَرَ". واللفظة الثانية في البيت: "**صَفْحًا**" لقد وردت هذه الكلمة أيضا في القرآن الكريم، مقترنة بكلمات أخرى متقاربة المعاني، من ذلك قوله جلت قدرته: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التغابن14، ومعنى الصفح في البيت هو الإعراض عن ذكر كل ما يشير إلى الجوع، ومنه نقترب من معنى الصفح في الآية الكريمة التي تحث المؤمن على تجنب إلحاق الأذى بمن أساء إليه بعد كان قادرا على ذلك وهو العفو عند المقدرة. وأما اللفظة الثالثة الواردة في البيت فهي: **الطَّوْلُ**: وقد وردت في البيت مصدراً وصفة: في عجز البيت الثاني "الطَّوْل – ومُتطوّل، فما المقصود بها في سياق البيت؟ الطّوْل: الفضل والقدرة والغنى والسَّعَة والعلوّ، وقد تفيد المنّ[12]، ولعلّ هذا المعنى هو المقصود عند **الشنفرى** دون نفي بقية معاني اللفظة، وقد وردت في أي الذكر الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ التوبة/86، وواضح أن معنى الطّوْل في الآية المقصود به أصحاب الغني والسعة من المنافقين، ومتطابق مع المعني الذي يحمله في البيت، ليتبين لنا أن الكلمات المشار إليها سابقا والواردة في البيتين تساعدان كل من يريد تدبّر معانيها وأحكامها إذا استعملها القرآن الكريم. ذلك هو أمر الشعر الجاهلي مهما كان غرضه في حياة الجاهليين,

الأنموذج الثالث: أبيت للشاعر "**طرفة بن العبد**" في فلسفة الحياة والموت إذ يقول:

أرَى الموْتَ يَعْتَامُ الكرامَ ويصطفي عَقيلَةَ مالِ الْفاحشِ المُتشدّد
أَرى العيْشَ كَنْزًا نَاقصًا كلّ ليْلَةٍ وما تَنْقُصُ الأيّام والدهر يَنْفَدِ
لَعَمْرُك إنّ الموْت ما أخْطَأَ الفتى لَكَالطِّوَل المُرخى وثِنياه باليد[13].

إنها رؤية طرفة للحياة، التي تنتهي بالزوال لا محالة، ومع ما من ألفاظ تبـــدو صعبة الفهم في الأبيات مثل: يعتام والذي يفيد الاختيار، ولفظ العقيلة جمع عقائـــل وتعني كريم المال والنساء[14]، وبهذا التركيز على النفائس المادية منها والمعنويـــة والتأكيد على الفناء لكل من يدب على الأرض يؤكدّه القرآن الكريم بعد نزوله على أفضل خلق الله ﷺ في الكثير من الآيات الكريمة نذكر منها الآتي: قولـــه ســـبحانه وتعـــالى: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ آلعمـــران168، وقولـــه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ آل عمران/185. ولئن تضمنت الأبيات صورا من بيئة الشاعر مثل الطول الذي هـــو الحبل الذي تشد به عنق الدابة للدلالة على أن الإنسان لا يملك ما يمكن أن يتقي به الموت، فإن ذلك التشبيه يساعد بال ريب فهم معاني وأحكام القرآن الكريم لما يشير إلى الموت الذي هو مآل كل الكائنات، ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكـــرام، ألا يوافق وصف الموت بالطّول المُرخى في عنق الدابة وثنياه بيد صاحبها يجرها إليه متى شاء دون استشارتها قول الله عزّ وجـــلّ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ لقمان/34. وفي ذلك بيـــان جلـــيّ لمكانة الشعر الجاهلي وعلاقته بالقرآن الكريم، إذ يعتبر أهمّ مصادر فهمه وتـــدبر آياته، وهو الذي نزل بلغة هذا الشعر وبخصائصها التعبيرية في شـــتى المواقـــف، تلك اللغة التي كانت محطّ فخر واعتزاز الجاهليين، فتحداهم ربّ العزة بلغة أرقى، ونظم أوفى وأسلوب معجز، أفحم فطاحل البلاغة والبيـــان، ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ الإسراء/88

خاتمة: مما سلف من السطور نسجّل الآتي:

- لئن كانت دراسة القرآن الكريم وتلاوته وتدبر آياته فرض عين على كلّ مسلم، فإنّ ما لا يتمّ به الواجب فهو واجب أيضا.

- من تلك الواجبات المتعلقة بكتاب الله العزيز البحث الدؤوب على كلّ ما يخدمه من وسائل كالتفاسير الثمينة، والدراسات الرصينة والأصيلة التي تتناوله بمناهجه الخاصة وبمقتضياته وعلومه الكثيرة.

- ولعلّ أبرز قضية وأخطرها والمتعلقة بتدبّر القرآن الكريم بغية فهمه والعمل بأحكامه: لُغته، ونعني بها بطبيعة الحال اللغة العربية التي نزل بها.

- من روافد اللغة العربية، وأحد أهم مصادر فهم القرآن الكريم: الشعر الجاهلي، ديوان العرب ونبغ لغتهم النقية الصافية، والذي يجب بالضرورة إيلاؤه العناية القصوى دراسة وتمحيصا وحفظا لأهميته القصوى، وعلاقة لغته بخصائصها وأساليبها بآي الذكر الحكيم.

- سيظل هذا الخزان اللغوي – الشعر الجاهلي – حيّا ينبض بالحياة وصالحا للتوظيف والاستعمال في شتى مناحي الحياة، لأنه مدوّن بلغة راقية صافية ونقية، ويحمل من القيم الإنسانية ما يساير الحياة الإنسانية على مر الزمن.

- ونظرا لهذه الأهمية التي يكتسيها ديوان العرب في الجاهلية، والمرتبط عضويا بالقرآن الكريم "إنّا أنزلناه قرآنا عربيا" بات لزاما على كل من له علاقة بالأمر من مؤسسات تربوية وعلمية وهيئات ثقافية تطعيم مضامين مناهجها بالمزيد من الشعر الجاهلي بحسب مستويات الإدراك لإعادة مكانته بين المناهج التربوية.

- الشعر الجاهلي اللبنة الأولى في الصعود على مدارج الرقي اللغوي والسمو في البيان العربي لملامسة البيان الأعلى، وفي ذلك فليتنافسْ المتنافسون.

الإحالات:

[1]شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/دار المعارف بمصر/ط6- دت/ص:36

[2]الجاحظ-أبو عثمان بن عمرو بن بحر/ ت. عبد السلام هارون/ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي/ مصر/ ط1965/2/ص:74/1.

[3]عز الدين إسماعيل/ المصادر اللغوية والأدبية في التراث العربي/ دار النهضة العربية/ بيروت – لبنان/دط/دت/ ص:59

[4]السابق نفسه.

[5]السابق نفسه ص:60

[6]عبد الرحمن خليل إبراهيم/ دور السعر في معركة الدعوة الإسلامية/ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع/الجزائر/1971/ط2/ دت/ص:27.

[7]شوقي ضيف/ العصر الجاهلي/ص:226.

[8]حسن جعفر نور الدين/طرفة بن العبد: سيرته وشعره/ دار الكتب العلمية – بيروت/ دط- دت/ص : 27.

[9]عبد الرحمن خليل إبراهيم/دور الشعر في الدعوة الإسلامية/ ص:14.

[10]إميل بديع يعقوب/ ديوان الشنفرى/ عن عمرو بن مالك الأزدي/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ط2- 1996/ ص: 62

[11]ابن منظور/ للسان العرب/ نسقه علي شيري/ دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع/ بيروت/ ط1- 1988/ ص:48/5 – مادة ذكر.

[12]السابق نفسه/ ص:229/8- مادة: طول.

[13]حسن جعفر نور الدين/ طرفة بن العبد/ سيرته وشعره/ ص:109.

[14]السابق نفسه.

جُهـود علمـاء الجزائـر في خدمـة اللّغة العربيّـة.

د. دواح أحمد
-المركـزُ الجامعيُّ، مُغنية.

الملخّــص:

إنّ من يُقلّب صفحات الجزائر، ويتتبّعُ خُطى العلــم والعلمـــاء منـــذُ العصــــور القديمة، ويطَّلع على الآثار المطبوعة والمخطوطة، والجهود المُضنية، والأعمـــال الجبّارة التي لا يقوم بها إلّا أُولُو العزم، لَيَقِفُ وقفةَ احترام وتقدير، لهــؤلاء الـــذين تَفانَوْا في القيام بواجبهم على أكمل وجه.

فلطالما قام هؤلاء العلماءُ بجهود علميّة وفكريّة ذات شأن عظيم، فـــي ظَعَــنهم وإقامتهم، فكانوا كالكوكب الذّريّ الذي يُضيءُ ما حوله بثاقب علـــومهم وفكـــرهم، ونتاقة قرائحهم. فالمادّةُ التي خَلَّفوها غزيرةٌ مُتنوّعـــةٌ، والمؤلّفات العلميّة واللّغويّـــة والأدبيّة جمّةٌ، وأكثرُ من أن يُحيط بها جُهد مفكّر، أو محاولة مؤرّخ وناقد، حيـــث انصرفوا إلى العلم بطريقة واسعة وعميقة، أفرغوا فيها عُصارة عُقولهم المفكّـــرة، ابتكارا ونقاشا وجدالا، وكانت نواةً لازدهار علميّ بحيث اغتدت على مرّ الزّمـــان منبعا للعلوم القرآنيّة، ومنارا للُّغة العربيّة، هَوَتْ إليها أفئدةٌ من أعـــلام المحـــدّثين والمفسّرين واللُّغويّين والأدباء والشُّعراء، حتى أصبحت في كثير مـــن أعصـــرها التّاريخيّة من أهمّ الأقطار الإسلاميّة، وأوسعها شُهرةً، وأكثرها ازدهارا، تقف فـــي وجه المشرق منافِسةً، لا تشعرُ بعُقدة نقص، وأصبح نور المعرفـــة ينطلـــق مـــن الجزائر إلى شتّى أقطار العالم.

مقدّمـــة:

أخذتِ الجزائرُ تُعنَى بعلوم اللّغة العربيّة من نحو وصرف وبلاغة وعَــروض ونقد، منذُ أنْ جاسَ بها (أبو عليّ إسماعيلُ بنُ القاسم البغداديّ) (288هــ/356هــ) في طريقه إلى الأندلس، زمنَ أمير المؤمنين (أبي المُطرّف عبد الرّحمن) النّاصر لدين الله (277 هــ/355 هــ)، ثامن حكّام الدّولة الأُموية في الأندلس التـــي أسّســـها (عبـــد الرّحمن الدّاخل) في الأندلس، بعد سقوط الخلافة الأُمويّة في دمشق.

ومن تلاميذ أبي علـــيّ القـــالي أبـــو إســـحقَ إبـــراهيم بـــن عبـــد الـــرّحمن التّنسي(تــ387هــ/997م)، من أهل تنَّس، انتقل إلى الأندلس وسكن مدينـــة الزهـــراء. سمع من وهْب بن مسرّة وأبي عليّ القالي. وقـــد حمـــل عنـــه كتابـــه (الأمـــالي) ومحاضراته في اللّغة. قال الضبّيّ : «وكان يُفتي في جامع الزّهراء، وقـــد حـــدّث بحكايات من أمالي أبي عليّ القالي»[1].

وفي مدينة طبنة عاصمة الزّاب التي كانت تهتمّ بعلوم اللّغة ينبغُ فيها أبو مروانَ عبدُ الملك بنُ زيادة الله بنِ عليّ بنِ الحسين الطُّـبْنِي (396/457هــــ) نزيل قرطبـــة، في عهد أبي عامر محمّد بن أبي عامر (327/392هــــ) المشـــهور بلقـــب الحاجـــب المنصور. استوطن قُرطبة، وأخذ عن كبار علمائها، وأملى كثيرا من تقييداته. وقد احتفى به الخليفة هشام المؤيّد بالله أيّما احتفاء. يقول أبو الحسن علـــيّ بـــنُ بســـام الشّنترينى (450/542هــ): « إنّه اتّخذهُ نديمه،إذ كان من أمتع النّاس حديثا، وأنصـــعهم ظرفا، وأحذقهم بالملاطفة، وآخذهم بالقلوب، وكان عالما لُغويّا» [2].

ويقول عنه جمال الدّين القِفطي (568/646هــ): «كان من أهـــل العلـــم بـــالآداب واللّغات والأشعار، روى النّاس عنه علما كثيرا، وكان كثير الإغـــراب» [3]. ونشَّـــأ ابنه عبد الملك- وكان مُحَدِّثا- تنشئةً لغويّةً. يقول السُّيوطي(تــ911هــ): «إمام فـــي

اللّغة، له روايةٌ وسماعٌ، رحل إلى المشرق...وهو من بيت جلالة ورياسة، ومــن أهل الحديث والأدب»[4].

وبرز في هذه الفترة الفقيه التّلمسانيّ الكومي اليَعْفُري (526/625هـ)، وهو قاضٍ، فقيهٌ، مُقرئٌ، حافظٌ للحديث، متكلّمٌ، من أهل تلمسانَ، ولِيَ قضاءَهَا مرّتين، ودخــل الأندلس. كان وجيها ببلده مكرَّما عند السّلاطين والأُمراء. قال الحافظُ الذَّهَبِيّ: «كان إماما مُتَفَنِّناً، جميلَ السّيرة، مُعظّما في النّفوس، كثير الكتب». وقــال ابــنُ الأبّــار: «كان حميدَ السِّيرة، مشاركا في الفقه وعلم الكلام، مُعتَنِيا بالحديث وروايته، مُعظّما عند الخاصّة والعامّة، وحدّث ودرّس، وغيرُه أحسنُ تصرّفا منهُ، وأمــتنُ تحصــيلا منه». له «المُختار في الجمع بين المُنتقَى والاستذكار». قال ابنُ الأبّار في عشــرين سِفْرا في نحوِ ثلاثة آلاف ورقة، و«كتاب في غريب المُوَطّأ» و"التَّسَلِّي عن الرّزية والتّحلّي برضى باري البَرية» و«نظم العُقود ورقم الحُلل والبرود» و«الإقنــاع فــي كيفية الإسماع» و«الفيصل الجازم في فضيلة العلــم والعــالم» و«فرقــان الفرقــان وميزان القرآن[5].

وكان أبو عبد الله محمّد بنُ الحسن بنِ عليّ بنِ ميمون التّميميّ القلعيّ (تــ673) يُعاصره، وكان جدُّه ميمون قاضيا فيها. نشأ بالجزائر وقرأ بها، وانتقل إلى بجايــة مستوطنا، وبها قرأ وبرع. وكان في علم العربيّة بارعا مُقــدَّما محكِمــا لفنونهــا، الثّلاثة: النّحو واللّغة والأدب، وكان له درسٌ يحضــرُهُ مــن الطّلبــة فُضــلاؤُهم ونُبهاؤُهم، وتجري فيه المذاكرة المختلفة في التفسير والحــديث وأبيــات الغريــب وغيرها، وتمضي في ذلك من المعاني المنقّحة ما لا يكادُ أنْ يوجدَ مثله في نــوادر الكتب. وكان رحمه الله قويّا في علم التّصريف، ومُحبّا في التّعليل، وكان جاريا فيه على سَنَد أبي الفتح ابن جِنّي، وكان كثير تلامذة والأصحاب، وتقرأ عليــه جميــع

الكتب النّحويّة واللّغويّة والأدبيّــة، ويقــومُ علــى جميعهــا أحســن قيــام. قــال الغبريني(تــ644هــ): « وهو أفضل من لَقِيتُ في علم العربيّة، لزمتُ عليه القــراءة ما ينيفُ على أعوام ... واستفدت منه كبيرا، قرأت عليه "الإيضاح" من فاتحته إلى خاتمته، وقرأت عليه قَدر النّصف من "كتاب سيبويه" وقرأتُ عليه قانون أبي موسى الجَزولي، وقرأتُ جُملة من الأمالي، ومن "زهر الآداب" ومن المقامات، وقصــائد مُتخيّرات من شعر حبيب، ومن شعر المتنبّي، وحضرتُ قراءة "المفصّل" ومضــى الميعاد في مدّة قراءتي عليه أضعاف أضعاف ما قرأته عليه. وله كتاب سمّاهُ بـــ "الموضح في علم النّحو" وله "حذق العيون في تنقيح القانون" و"نشــر الخفــيّ فــي مشكلات كتاب الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ» (6)

وكان يُعاصره أبو جعفر وأبو العبّاس أحمد الفهري اللّبْلي (تــ691هــ) هو الإمام النّحويُّ الأديب التّاريخيّ المحدّث الرّاوية، الملقّب بـــ(أفضل الــدّين)، و(شــهاب الدّين)، و(صدر الدّين). فتلقّى تعليمَه أول الأمر ببلده لَبْلَة عن أبي زكريا يحيى بن عبد الكريم الفِنْدَلاَوي، وطاف الأندلس فأخذ بها بإشبيلية عن أبي عليّ عمــر بــن محمد الأزدي الشّلَوْبين، وأبي الحسن الدّبّاج، وغيرهم من الأئمّة الأعلام، ثمّ ارتحل إلى سبتَة لما زادت الأوضاع السّياسيّة بالأندلس سوءاً، فأخذ بها عن أبرز شيوخها، ثمّ انتقل إلى بجاية، وخرج قاصداً حجّ بيت الله الحرام، فدخل تونس، والإسكندرية، والقاهرة، ثمّ دمشق.

ثمّ استقرّ بعد رحلته العلميّة الطّويلة بتونس، وتخرّج على يديه جمٌّ غفيرٌ من الأعلام من أبرزهم: الحافظ ابن رُشيد السّبتي، وأبو عبد الله العبدريّ الحيحــيّ، وأبــو حيــان الغرناطيّ، وابن جابر الوادي آشي، وغيرهم من الأعلام ممّا لا يكاد يَعُدُّهم عَادٌّ.

وكان للمُترجَم اتِّجاهٌ مُمَيَّز في التّأليف والتّصنيف نَحَى فيه منحى النُّحَّاة، وهو ما غلبَ على مُصَنَّفَاته التي منها: «بُغية الآمال في النّطق بجميع معرفة مستقبلات الأفعال»، و«تُحفة المجد الصّريح في شرح كتاب الفصيح»، و«وشيُ الحُلل في شرح أبيات الجمل». قال عنه الغَبْرِينيّ: «الشّيخ الفقيه النّحويّ الأستاذ اللّغويّ التّاريخي... كان له علمٌ بالعربية، وكان يتبسّط لإقراء كتبها، وله علمٌ باللّغة وتآليفُ كثيرة»، ووصفه ابن رُشيد بـ «الأستاذ المُقرئ اللّغويّ النّحويّ المُتَفَنِّن... أحد مشاهير أصحاب أبي علي الشّلَوْبين»، وقال عنه الذّهبيّ والصّفديّ: «أحد المشاهير بالمغرب»(7).

ومن اللّغويين الذين نبغُوا في المائة السّابعة ببجاية أبو الحجّاج يوسف بنُ سعيد بنِ يخلف الجزائريّ، وهو نحويّ ولغويّ وأديب، تصدّر للتّدريس، وكان الغبريني من الذين أخذوا عنه، وقد أثْنَى عليه في كتابه (عُنوان الدِّراية) حيث قال: «الشّيخ الفقيه، الأستاذ، الأديب، النّحويّ، اللّغويّ، له علمٌ بعلم العربيّة واللّغة والنّحو والأدب، وكان يقرأ عليه الفقه، وكانت بضاعته فيه مُزْجَاةً، وأمّا علمُ اللّغة والنّحو والأدب فكان فيه جيّدا، وكان له مجلسٌ واسعُ الحضور، يحضر فيه كثير من الطّلبة»(8).

«وكان يدرّس لطُلّابه في بجاية شعر أبي تمّام والمتنبّي والأشعار السّتّة برواية الشّنتمري المُسندة إلى الأصمعيّ، وهي دواوين امرئ القيس وزُهير والنّابغة وعنترة وعلقمة ودواوين أبي العلاء: سقط الزّند واللّزوميات والحماسة للتّبريزيّ والمرزوقيّ، وإصلاح المنطق لابن السّكّيت، والأمالي لأبي عليّ القالي، والمقامات، وغير ذلك من الكتب الأدبية. ولعلّ في عمل ابن يخلف اللّغوي ببجاية ما يدلّ بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللّغة والأدب، ودواوين الشّعر الجاهلية وغير الجاهلية»(9).

وللإمام العلاّمة اللّغوي النّحويّ جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطـــائيّ الـــجَـــيَّانِيّ الأندلسيّ (تـــ672هـــ) منظومة لاَمِيَّةِ الأَفْعَالِ. وتُعدُّ من أهمّ المنظومـــات في علم الصّرف، وقد كمل بها ابنُ مالك –صاحب الألفية– مواضيع ألفيته، وذلـــك بتخصيصها بمباحث الصّرف، وقد ركّز فيها على صرف الأفعال، وأهمل بعـــض مباحث تصريف الأسماء. وقد اشتهرت هـــذه المنظومـــةُ فـــي مشـــارق الأرض ومغاربها، وعُني النّاس بشرحها والتّعليق عليها، وللجزائريّين عنايةٌ خاصّةٌ بهـــذه المنظومة، ولهم عليها العديدُ من الشّروح والطُّرر والزّيـــادات. ومـــن أهـــمّ تلـــك الأعمال، شرحٌ لابن العبّاس محمّد التّلمساني (تـــ871هـــ). واللّاميّة منظومـــةٌ علـــى بحر البسيط، بلغ عددُ أبياتها مائة وأربعة عشر بيتاً، وسمّيت بهذا الاسم؛ لأنها بُنِيَتْ على رَوِيّ اللّام، وأُضيفتْ إلى الأفعال تغليباً لها، لا اختصاصاً بها. وكان محمّد بنُ العبّاس من أعلام تلمسان الظّاهرين، وقد آلتْ إليه الرّئاسةُ بها، بعد وفـــاة شـــيخه الإمام قاسم العُقباني. قال التّنبكتي: « وبالجملة فهو من أكابر علماء تلمسان وأكبـــر أئمّة وقته بها»(10).

ويشهد على ذلك أيضا ما وصفهُ به تلاميذُهُ، ومعاصرُوه، ومَن ترجم لـــه مـــن بعده، إذ وصف بـــ: (الإمام) وهو لقب عادة مـــا يصـــاحب ذكـــره، (العلّامـــة)، (المحقق)، (النظّار)، (المُتفنّن)، (الحُجّة)، (العالم المطلق)، (شيخ المفسِّرين والنُّحَّـــاة، العالم على الإطلاق)، (مُفتي تلمسان)، (شيخ تلمسان وعالمها)، (شيخ الشيوخ بوقته). وكان ابنُ العبّاس ذا شخصيّة قويّة، واثقا من نفسه، مُعتدًّا بعلمه. وذكر ذلك محقّـــقُ كتابه " تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لامية الأفعال "بما نصُّه: «شخصـــيّة ابن العبّاس من خلال شرحه للاميّة الأفعال، ومن خلال ما كتب عنه طلّابـــه الأعلام العلماء، شخصيّة قويّة، تبرز في أكثر صفحات شرحه لـــ"اللّاميّة" من

خلال التّعليقات التي علّق بها على ابن مالك، وعلى غيره من أمثال أبي حيان الأندلسي، ومكّي، وجماعة من الأعلام الأفذاذ، منهم مَن ذكره بالاسم، ومنهم من اكتفى بالتّعريض به، وانتقاده بكيفيّة حازمة وقويّة،دالّة على أنّه واحد من العلماء الأعلام المعتَدِّين بعلمهم، والواثقين من صحّة أقوالهم، وقُوة حفظهم، وسداد آرائهم، وتنوُّع ثقافتهم، وعُمق معارفهم»[11].

وتكثر الشّروح للأشعار، وخاصّة قصيدة البُردة أحد أشهر القصائد في مدح رسول الله ﷺ، لصاحبها البوصيري الصّنهاجيّ (608/696هـ). وقد أجمع معظمُ الباحثين على أنّ هذه القصيدة من أفضل وأعجب قصائد المديح النّبوي إن لم تكن أفضلَها، حتّى قيل: «إنّها أشهرُ قصيدةٍ مدحٍ في الشّعر العربيّ بين العامّة والخاصّة». وقد انتشرتْ هذه القصيدةُ انتشارًا واسعًا في البلاد الإسلاميّة، وأقاموا لها مجالسَ عُرفت بـمجالس البُردة الشّريفة، أو مجالس الصّلاة على النّبيّ. يقول زكيّ مُبارك: «البوصيري بهذه البُردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين، ولقصيدته أثرٌ في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق، فعَنِ البُردة تلّقى النّاسُ طوائفَ من الألفاظ والتّعابير، غنيت بها لغة التّخاطب، وعن البُردة عرفوا أبوابًا من السّيرة النّبويّة، وعن البُردة تلّقَوا أبلغَ درس في كرم الشّمائل والخلال. وليس من القليل أن تنفذ هذه القصيدة بسحرها الأخَّاذ إلى مختلِف الأقطار الإسلاميّة، وأن يكون الحرصُ على تلاوتها وحفظها من وسائل التّقرّب إلى الله والرّسول»[12].

➢ **ومن أهمّ شروحها:**

✍ شرح محمّد بن أحمد بن محمّد العجيسي الشّهير بابن مرزوق الجدّ، وبالخطيب التّلمساني، نزيل فاس وغيرها، والمتَوفَّى بالقاهرة عام (781 هـ). شَرَحَ

ابنُ مرزوق الجدّ البُردة في ثلاثة مُستويات، كبير ومتوسّط وصـــغير. وشـــروحه تُعتبر اليوم في حُكم المفقود(13).

✍ وشرح الإمام أبي عثمان سعيد بن محمد بـــن محمـــد العُقبـــاني التُّجِيبـــي التّلمسانيّ (تــ811هــ)، شهدت نصوصُ العلماء برفعة قدْر الإمام العُقبـــاني، فنَعَتَـــهُ مُعاصرُهُ ابنُ فرحُون بأنّه (إمام عالِم فاضل، فقيهُ مذهب مالك، مُتفنِّن في العلـــوم)، ووصفه تلميذُه شيخُ الإسلام ابنُ مرزوق الحفيد بأنّه (وحيدُ دهره وفريـــدُ عصـــره، بقيةُ العلماء الرّاسخين، ووارثُ الفُضلاء المجتهدين)، ووصفه الإمامُ السّنوسيّ عند حديثه عن كتابه "المقرّب المستوْفِي في شرح فرائضِ الحُوفِي" ذاكرا أنّه اعتمد فيه على شرح الإمام العُقباني على تلك الفرائض، واصفا إياهُ بـــ (الشّيخ الإمام العلّامة العَلَم ذي الآراء العجيبة والتّصرُّفات الفائقة الغريبة) وواصفا شرحه بأنّـــه "تقـــف عقول النّجباء عنده، وأنّه لم يَرَ الرَّاؤون ولا يرَوْنَـــ والله أعلمُ ـــ مثلـــه قبلـــه ولا بعدَهُ". ونقل التّنبكتي عن بعضهم قوله في حقّ الإمام العُقباني: «وكـــان يُقـــالُ لـــهُ رئيسُ العُقلاء».

✍ شرح قاسم العُقباني (854 هــ). هو ولد سعيد العقباني، عـــالم مـــن علمـــاء المغرب الأوسط، وأحدُ نُبهائه الكبار، له تآليفُ جليلةٌ، وتعاليقُ مفيدةٌ، منها: "شرحُه المليحُ على بُردة المديح". غير أنّ أغلبَ مَن ترجمَ لهُ، وعرف بأحوالـــه وتطـــرّق لذكر كُتبه ومُصنَّفَاته لم يُعرِّجْ على ذكر عمله على البُردة، ولم يُشرْ إلـــى أنّ لـــهُ شرحا على هذه القصيدة النّبويّة المباركة، فجلُّهم كان يكتفي بتحليَتِه وذكر فضـــائله ومناقبه وسمة علمه. وقد انفرد "القرافي" بالإشارة إلى تأليفه عن البُردة، والقرافـــي ينقل هذا الخبر عن "السّخاوي" في "الضّوء اللّامع". قال القرافـــي: «لـــه مصـــنّف للخونجي، وشرح البُردة للبُوصيري»(14).

ويبدو أن شرح قاسم العُقباني هذا كان محدود الانتشار لم يعــرف كثيــرا فـــي البيئات المغربيّة والجزائريّة والأندلسيّة، ولذلك غفلت عنه الأقلامُ، وســكتت عــن اللّهج به ألسنةُ العلماء الأعلام. أمّا في المشرق فقد عُرف هناك، وجرى ذكرُهُ فـــي بعض الكتب، ككتاب: "الضّوء اللاّمع" "للسّخاوي" الذي ينقل عنه "التّيفاشـــي" خبــر شرح البُردة من تآليف قاسم العُقباني.

✍ شرح ابن مقلاش وهو فقيهُ (وهرانَ) وعالمُها، ومُفتيها وخطيبُها، وأحدُ مَن انتهت إليهم رئاسةُ العلم "بالمغرب الأوســـــــــط"[15].كان ذا ثقافة عالية، وتكوين علميّ متين، ومشاركة في "علم الأدب" و"البيان" مباركة، عمِل مدرسا في كلٍّ مـــن (وهرانَ) و(غرناطةَ) و(تلمسانَ)، وكان ينتقل بين هذه الحواضر الكبـــرى، وكأنّـــه يعمل في عاصمة دولة واحدة. ومن الأعمال العلميّة المُهمّة التي تُنسب إليه شرحاهُ، على قصيدة البُردة. فقد شرحها، وقدَّمها لطلبة العلم في مستويين مختلفيـــن:

مستوى الشّرح الصّغير، ومستوى الشّرح الكبير. وبخصوص شرحه الكبير فقد أفاد عنه "ابنُ مقلاش" نفسه في شرحه الصّغير أو المتوسّط الذي تُوجد منهُ نُســخة باقية في المكتبة العامّة بالرّباط، وهي بخطّ المؤلّف نفسه، ففيها نقرأ هذه العبارات: «وقد وضعتُ على هذه القصيدة أسفارا مختلفة بحســب التقليــل والإكثــار... ثــمّ وضعتُ عليها شرحا جاء في مجموع نفيس، ثمّ اختزلتُه في كتاب مُختصر ظريف واقتصرتُ فيه على ذكر لُباب الألباب من شعر الشُّعراء ونثر الكتاب. أَحــومُ فيــه على القليل من علم الأدب والبيان والتّفسير والإعراب»[16].

✍شرح ابن مرزوق الحفيد (842هــ)، وهو عالمٌ صالحٌ فقيهٌ أصــوليٌّ، حــافظ، أخذ مِن كلّ فنّ بأوفر نصيب، له تصانيفُ مفيدةٌ عديدةٌ نظماً ونثراً[17].

كتب على قصيـــــدة البُردة ثلاثة شـــروح:

🕮 الأول: إظهارُ صدق المودّة في شرح قصيدة البُردة.

🕮 الثّانـــي: الاستيعابُ لما في البُردة من البديع والإعراب.

🕮 الثّالــث: تلخيص كتاب إظهار صدق المودّة.

وقد ذكر الشّيخ محمّد الشّاذلي النِّفير في دراسته الرّائدة عن البُردة والشّقْراطسيّة أنّ ابن مرزوق الحفيد قد شرح البُردة بثلاثة شروح أولها: الأكبر وسمّاهُ: "صـــدق المودَّة في شرح البُردة" والثّانية وسط والثّالث: صغير وسمَّاه: "بالاستيعاب لما فـــي البُردة من البيان والإعراب" والأول في خزانة الوالد والآخران في خزانتي"[18].

✍ شرح أبي الحسن علي القلْصَاديّ الأندلسيّ حوالي (891 هــ): أبــو الحســن علي محمّد بن عليّ القُرشيّ البسطيّ القلصاديّ، نزيل غرناطة، كان عاملا، عالما، فاضلا، صالحا، شريف الأخلاق، سليم الصّدر، خاتمة الحساب والفَرضيّين، علـــى قدم في الاجتهاد والتّدريس والكتابة. تَفَقَّهَ "ببسطة" وبها نال مختلف العلوم، ثم انتقل إلى غرناطةــ فأخذ عن شيوخها. وحجّ، ثمّ دخل تلمسان وتونس والقاهرة، وأخـــذ عن شيوخ العلم بها. ولمّا استولى العدُوُّ على بلاده تحيَّل في تخليص نفسه، فأدركته المَنِية في "باجة" من بلاد إفريقية[19].

له تآليفُ عديدةٌ تفوقُ العَدَّ، وتستعصي على الحصر، معظمُها شروحٌ وتعليقـــاتٌ وقراءاتٌ وتعقيباتٌ. ومن هذه الكتب والشّروح: شرحُهُ على بُـــردة البُورصـــيري، ونحسب أنّ شرحه على هذه القصيدة هو من أعظـــم الشّـــروح وأغربهـــا علـــى الإطلاق، وأنّ فيه من الآراء السّديدة، والنّظرات العميقة، ما يحارُ فيه الفكرُ وينبهرُ به العقلُ، وهذا ليس غريبا من شيخ له مُشاركة في العلوم الحَقَّة، والعلوم الشّرعيّة، والعلوم النّقليّة، خاصَة علوم اللّسان والبلاغة والبيان، وعلم المنطق والرّياضـــيات،

والهندسة والحساب، والفلك والتّنجيــم، والتّوقيت، فلا شكّ في أن عمل مثل هؤلاء الشُّرّاح سيكون عملا متَّزنا فيه من كلّ علم طــرفٌ.

واستخدام مختلف العلوم في شرح النّصّ الأدبيّ، واستخلاص معانيه ومراميــه كفيلٌ بتحقيق نسبة عالية من التّوازن، والتّعادل بين سائر عناصر النّصّ، وعناصر الشّرح، ومكوّناته الأسلوبيّة، واللّغويّة، والفكريّة، والمعرفيّة، وغيرها من الأمــور التي يتألّف منها نسيج النّصّ. وقد ذكر "شرح القلصادي" على بُردة المديح كثيرٌ من المؤرّخين، وردّد اسمه العديدُ من العلماء في مؤلّفاتهم ومُصنّفاتهم كان في مقدّمتهم (ابنُ مريمَ) في: "البُستان" عند حديثه عن مُؤلّفاته وآثاره وقال: ".. ومــن تآليفــه: كتابُ شرح البُردة للإمام البُوصيري"، وذكــره (المقَّــري) فــي: الــنّفح وقــال: «...وشرح حكم بن عطاء الله السّكندريّ، ورجز أبي عمرو بن منظور في أســماء النّبيّ، وشرح البُردة ورجز ابن برّي... » وذكره أيضا بدر الدّين القرافــي فــي: "توشيح الدّيباج" عند حديثه عن مؤلّفاته وشروحه.

✍شرح الشّريف عبد الرّحمن الغبريني من أهل "بجاية" بها نشأ فــي بيــت علــم ودراية، وترعرع في أحضان أسرة لها نباهة قدْر، وتعلّم على يده والــده وأخــذ عــن شيوخ عصره ببجاية، وبغير ببجاية، حتّى اكتملتْ دائرة معرفته، وبلغت درجة عاليــةً، فتنوَّعَتْ بذلك ثقافتُهُ، وتعدّدتْ روافدُ معارفه، واتّسعت لتشملَ علوما في الأدب والتّاريخ واللّغة والسّيرة والمغازي والبيان، كما هو واضح من خلال شرحه على البردة.

وللغبريني مُؤلفاتٌ جمّةٌ شهدت بنُبله، ودلّت على عمق علمــه وتفكيــره. فمــن كتبه: "كتاب في السّماع، سماع الأشعار وجــواز إنشــادها وتنغيمهــا"، وكتــاب: "اقتناص الفرائد من عيون الفوائد" وتأليف آخر على المرادي في شــرح الألفيــة. وهذه الكتب كلّها مذكورة في شرحه على البردة[20].

أمّا كتابُــه: "مسارح الأنظار ومنتزه الأفكار في حدائق الأزهار" فهــو كتـــاب معمول على شرح البُــردة، وهو في الأصل تعليقٌ مليحٌ، واختصارٌ لشـــرح ابــن مرزوق الحفيد الموسوم: "بإظهار صدق المودّة".

✍ شرح ابن الحاج الوَرْنِيــدِي من رجالات "تلمسان" وممّن لهــم الصّــدارة فـــي كتاب: "البُستان"، فقيهٌ مالكيٌّ من كبارهم، مشارك في علوم المنطق والمعـــاني والبيـــان والعربيّة والحساب. كان شاعرا ماهرا، ومُبدعا مفكّرا، قال عنه التّمبكتي: «كان علّامة تلمسان بلا منازع، إماما فاضلا مُتقنّنا، له تآليفُ وتصانيفُ مفيدةٌ، ورسائلُ وتعاليقُ في فنون من العلم، وله مع ابن غازي مراسلات في مسائلَ من العلم».[21]

من أعماله وتصانيفه شرحُهُ على بُردة المديح، وقد وردت الإحالـــة إلـــى هـــذا الشّرح في كتاب: "البُستان" وذلك في موضعين الأول: في سياق كلام (ابن مـــريم) عن مؤلّفات (ابن الحاجّ) وتصانيفه فقال: «تصانيفُهُ عديدةٌ ومفيـــدةٌ، منهـــا: شـــرحُ السّينيّة لابن باديس، وشرح البُردة للبوصيري. ثم ذكر ابن مريم كلاما عـــن هـــذا الشّرح وطبيعته فقال: "وهذا شرحٌ جمع فيه ابنُ الحاجّ بـــين شـــرح الحفيـــد ابـــن مرزوق، وشرح سعيد العُقباني، وشرح سيدي علي بن ثابت الأُمَويّ القُرشِيّ..." ثم أضاف فقال...": وإن ظهرت له زيادة في المعنى أو في الإعراب زادها ونبَّهَ على مسائلَ أخرى". والموضع الثاني عند حديثه عن ابن مرزوق وشيوخه[22].

وفي العهد العثماني كثُرت الشُّروحُ اللغويةُ، ولعلّ أهمّها شروح اللّغــويّ عبــد الكريم الفكّون القسنطيني(تــ 1073هــ) وله:

⮰ شـــرح على أُرجوزة المكودي: سمّاهُ "فتح اللّطيف فـــي شـــرح أُرجـــوزة المكودي في التّصريف"، أَلّفَهُ سنة(1048ه)، وهو مُجلَّد أجاد فيـــه غايـــة الإجـــادة، وأحسن كلَّ الإحسان، فأعطى النّقل والبحث فيه حقّهما. "كما أنّه يُفَضَّلُ على شـــرح

أبي عبد الله المرابط الدّلائي، لأنه اشتمل مقدّمة يذكر فيها علامات الإعراب من فتح، وضمّ، وكسر، ولأنّه واسعُ النّقل، وثريّ بالمسائل الصّرفيّة التي تحتاج إلى الشّرح والتّفصيل.

⮰ شرح على شواهد الآجُرُّوميّة: تُعدُّ الآجُرُوميّة نظما تعليميّاً لصاحبها "أبي عبد الله بن محمّد بن داود الصّنهاجيّ" المعروف "بابن آجُرُّوم" (672ه–723ه)،

⮰ فتح المالك على ألفيّة ابن مالك: وهو شرحٌ على أُرجوزة ابن مالك في التّصريف.

⮰ فتح المولى بشواهد ابن يَعْلَى تأليف عبد الكريم ابن الفكون (ت1073هـ)، وهو شرحٌ للشّواهد الواردة في الدُّرَّة النّحويّة في شرح معاني الآجُرُّومِيَّة، لمحمّد بنِ أحمدَ الحسنيّ الفاسيّ المعروف بابن يَعْلَى (ت723هـ)[23].

⮰ فتح الهادي بشرح المجرادي، تأليف عبد الكريم ابن الفكون (1073هـ)، شرح فيه منظومة في النّحو لمحمّد المجرادي السلاوي (ت1036هـ)[24].

*الارتضاء في الفرق بين الضّاد والظّاء، تأليف محمد بن بدوي الجزائري المعسكري، وهو تلخيصٌ لكتاب أبي حيان الأندلسيّ الاعتضاد في الفرق بين الظّاء والضّاد، كَتَبَهُ في (1127هـ).

*إتحاف الألباب بفصل الخِطاب أو رسالة في "أمّا بعد"، تأليف علي بن عبد القادر، الشهير بابن الأمين،(1236هـ)، كتبها المؤلّف أثناء رحلته إلى مصر في (1186هـ)، قال عنها المؤرّخ أبو القاسم سعد الله: "ويظهر من رسالته (أمّا بعدُ) أنّه صاحبُ أُسلوب جَدَلِيّ واضح، فقد أكثرَ من النُّقول عن أئِمّة البلاغة والنّحو والتّفسير، ولم يَستعمل فيها السّجع، وإنّما جاء بعبارة دقيقة محبُوكة تُؤدِّي المعنَى

بالقليل من الألفاظ، وقد قسّمها إلى مقدّمة ومقصدين وخاتمة وتذييل، وجعل المقدّمة في مقامين كما جعل كلّ مقصدٍ فصولاً، وهكذا[25].

*ارتقاء السّيادة في علم أصول النّحو العربيّ للشيخ أبي زكريا يحيى الشّاوي (تـ1096هـ)، وأمّا العنوانُ الأصليُّ فهو ارتقاءُ السّيادة لحضرة شاه زاده، لأنّ مؤلفه أهداه إلى السُّلطان شاه زاده.

*التّنقيح في التّعريف ببعض أحوال رجال طالعة التّصريح على التّوضيح، من تأليف بركات بن باديس، حيث ترجم فيه باختصار لثمانية وعشرين نحوياً، مثلما ذكر في مقدّمة كتابه: « وبعد فهذا تقييدٌ مفيدٌ لمعرفة طبقات بعض أئمّة النّحويّين، وأخبار الجهابذة المشهورين، يشتمل على طرفٍ من ألفاظ طالعة التصريح للشيخ أبي البقاء خالد الأزهري»[26].

*حاشية على شرح المُرادي للألفية، تأليف يحيى أبي زكريا الشاويّ (تـ1096هـ)[27].

*الدُّرّة الصباغيّة في شرح الآجرّومية، تأليف محمد بن محمد بن أحمد بن عليّ الصبّاغ القلعيّ الهواريّ، وأوضح الشّارح أنّ الكتاب موجّهٌ "لنفسي ولمن هو مبتدئٌ مثلي، من أبناء جنسي، وتكلّمت على إعرابها، ولم أرَ أحدًا أعربَهَا قَبْلي"[28].

*رقم الأيادي على تصنيف المُرادي، تأليف مُفتي مدينة الجزائر سعيد قدورة (1066هـ)، وهو حاشية على شرح المرادي للآجُرُّوميّة [29].

*شرح المنظومة الخزرجيّة، لسعيد قدورة (1066هـ)، وهو شرح لمنظومة أبي الجيش الخزرجيّ المغربيّ، المعروفة بـ"الرّامزة الشّافيّة في علمي العَروض والقافية"[30].

*شرح ألفيّة ابن مالك، تأليف محمّد بن عامر الأخضريّ، والد عبد الرّحمن الأخضريّ العلاّمة الشّهير. قال أبو القاسم سعد الله: "أراد أن يُوضّحَ في شرحه عليها ما غمض منها [يعني الألفيّة]، ولكنّ شرحه قد طال"(31).

*شرح شواهد القواعد الصُّغرى في النّحو لابن هشام، كتبه أبو القاسم محمّد بن يحيى البِجائيّ، وفرغ من تأليفه في (1029هـ)، وقد بدأ البِجَائيّ شرحه بتعريف الشّعر نقلاً عن ابن رشيق، وذكر في المقدّمة أنه لم ير من شرح هذه الشواهد فشرحها "شرحاً يرفع عنها حجابها، ويكشف نقابها، ويذلّل صعابها، ويزيل عنها أغرابها، مُتجافياً فيه عن الإطالة، خشية السآمة والملالة"(32).

*شرح شواهد كتاب شُذُور الذّهب، تأليف أبي القاسم محمّد بن يحيى البِجائيذ، وموضوعه هو شرح الشّواهد الواردة في كتاب (شُذُور الذّهب في معرفة كلام العرب)، لابن هشام الأنصاريّ المصريّ، وممّا ورد في مقدّمته: «..وبعد؛ فإنّ كتاب (شذور الذهب في معرفة كلام العرب) من أنفس ما أُلّف في علم النّحو، غير أنّ شواهده لم أرَ مَنْ تعرّضَ لشرحها، فأردتُ أن "أجعل عليها شرحاً يذلّل صعابها.. ناقلا ذلك من شرح العينيّ على شواهد الكتب الأربعة، ومن وشْي الحُلل في شرح أبيات الجمل، للشّيخ الفهريّ، ومن شرح شواهد المُغني، للشّيخ السُّيُوطيّ، ومن شواهد الشّيخ ابن هشام اللّخْمِي، ومن الدّماميني الكبير على المُغني، ومن غيرها ما تدعو إليه الحاجة»(33).

*شرح لاميّة الأفعال، تأليف أبي القاسم محمّد بن يحيى البِجائيّ، شرح فيها لاميّةَ ابنِ مالك في الصّرف، وناقش النّاظم، وجاء بآراء النُّحَّاة، كما استعمل الإعراب، وذكر الشّواهد اللّغويّة(34).

*شرح لاميّة الأفعال، تأليف أحمد بن العبّاس الوهراني، وهـو شـرحٌ للَاميّـة الأفعال في علم الصّرف التي كتبها محمّدُ بنُ مالك الأندلسيّ، صاحب الألفيّة[35].

*فتح المتين في تراجم بعض مشاهير النُّحَّاة واللّغويّين، تأليف أبي العبّاس أحمد بن قاسم البُونيّ (تــ 1139ه)ـ[36].

*اللّامية في نظم الآجُرُّوميّة، نظم خليفة بن حسن القماري (تــ1207هـ)، ضاع بعضُها، ونجح الشّيخ التّليلي في إنقاذ القسم المتبقّي منه، ونَشَرَهُ ضمنَ سيرة الشّيخ القماري.

*موضح السّرّ المكنون على الجوهر المكنون، تأليف محمد الثّغـري (القـرن الثّاني عشر)، وهو شرحٌ لمنظومة عبد الرّحمن الأخضريّ في البلاغة، المعروفـة "الجوهر المكنون في الثّلاثة فُنون"، «لـمّا رأيتُ منظومة الشّيخ سيّدي عبد الرّحمن الأخضريّ الموسومة بالجوهر المكنون من أجلِّ ما صُنِّفَ في علم البيان، مُحتويـةً على جُلّ قواعد التّلخيص وعُيون مسائله بلفظٍ مُوجزٍ وتهذيبٍ وإتقان، قـد شـرحها ناظمُها في ضميره وأَبَانَ، لكن بقي في بعض الأماكن بياضٌ في الشّرح، وذلك في جميع النُّسخ الواصلة إلينا فصار مَنْ نظر فيه لم يشتفِ منه جنان... أردتُ بعـون الله وقُوّته تقييدَ دُررها، بشرحٍ يكشفُ الغطاءَ عن جواهرها المَصُونة»[37].

العلاّمة الحافظ محمّد أبو راس النّاصريّ المعسكريّ الجزائريّ (1165/1238هـــ) يقول أبو القاسم الحفناوي:«العلّامة المحقّق الحافظ البحر الجامع المتدفّق، اللّافظ مـن هو ليث الدِّين، أوثق أساس، وأضوأ نبراس، الإمام القُدوة المتَفَنِّن سيّدي محمّد أبـو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي الناصري، كان رحمه الله ورضي عنه إماما في المعقول والمنقول، وإليه يرجع في الفروع والأصول، ورحـل فـي طلـب العلـم واكتساب المعارف، وافَى الأفاضلَ من أهل مصرَ وتونسَ وفاس، وأخذ عنهم التّالد والطّارف، ودرس وأفاد، ورفع منار العلم وأشاد، وكان يُدعى في زمانـه الحـافظ

لقوة حفظه، وتمكُّنه، متى شاء من استحضار مسائله حتّى كأنّ العلوم كُتبت بين عينيه، وله تآليفُ مفيدةٌ بديعةٌ، سارت بها لعزَّتها الرُّكبانُ واشتدّت إليها لنفاستها رغبةُ القاصي والدّان»[38].

وهذه قائمة بأسماء مؤلّفاته كما سجّلها بنفسه، وسنُركّز على ما له علاقةٌ بعلوم اللّغة:

أ.النّحو: "الدُّرّة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة"، و"النّكت الوفية، بشرح المكودي على الألفيّة"، و"عماد الزّهّاد، في إعراب: كلا شيء وجئت بلا زاد"، و"نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة".

ب.اللّغة: "ضياء القابوس على كتاب القاموس"، و"رفيع الأثمان في لغة الولائم الثِّمان".

ج.البيان: "نيل الأماني على مختصر سعد الدِّين التّفتازاني".

د.المنطق: "القولُ المسلّم في شرح السّلم"، وهو شرح على سلم الأخضري.

ه.الأصول: "شرح المُحلَّى".

و.العَروض: "شرح مشكاة الأنوار، التي يكاد زيتُها يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ".

ز.الشّروح الأدبية:

- شرح المقامات: "النّزهة الأميريّة في شرح المقامات الحريريّة". و"الحُلل الحريريّة في شرح المقامات الحريريّة".

- شرح القصائد: "البشائر والإسعاد، في شرح بانت سعاد". و"نيل الأَرَب في شرح لاميّة العرب". و"كلّ الصّيد في جوف الفرا"، و"إزالة الوجم عن قصيدة لامية العجم"، و"الوصيد في شرح سلوانيّة الصّيد" و"الدّرّة الأنيقة في شرح العقيقة" و"طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي"، و"الحلّة السّعدية في شرح القصيدة السّعيديّة" و"الجُمان في شرح قصيدة أبي عثمان" و"نظم الأديب الحسيب، الجامع

بين المدح والنّسيب والتّشبيب"، و"الرِّياض المرضيّة في شرح الغَوْثيّة" و"لبّ فياضي في عدّة أشياخي" و"حلّتي ونحلتي في تعدُّد رحلتي" و"الفوائد المخبِتة في الأجوبة المُسكتة".[39]

وتزدهر الدراسات اللّغويّة في القرن السّابع الهجريّ، ويحمل لواءها ابنُ معطٍ الزّواويّ المغربيّ الحنفيّ النّحويّ، (564هـ). وقد نظم ألفيّته النّحويّة بدمشق، وفرغ منها وهو ابن إحدى وثلاثين سنة. وأثنى عليه العلماء مُنَوّهين بفضله في خدمة العلم، فهذا ياقوت الحَمَوِيّ وهو معاصرٌ له يقولُ عنه: «فاضل معاصر، إمام في العربيّة أديب شاعر» [40]. وأمّا ابن خلّكان فيشيد به ويقول بأنّه «كان أحدَ أئمّة عصره في النّحو واللّغة»[41]. كما يقول السّيوطيّ عنه: «كان إماما مُبَرِّزا في العربيّة، شاعرا محسنا»[42]. ويصفه الذّهبّي بأنّه «العلّامة شيخ النّحو»[43].

ولهُ الألفيّةُ: واسمُها الكاملُ "الدُّرَّة الألفيّة في علم العربيّة". وهي منظومة تقع في واحد وعشرين وألف بيت (1021). جمعت بين علمي النّحو والصرف، وهي من بحري السّريع والرّجز. بدأ ابنُ مُعطٍ تأليفها في (593هـ) وأَتَمَّهَا في (595 هـ).وقد أقبل على دراسة الألفية وشرحها عدد كثير من العلماء نذكر بعضا منهم:

1. أحمد بن الحسين بن أحمد بن معالي بن منصور بن عليّ بن الخبّاز الأربليّ الموصليّ النّحويّ الضّرير (637هـ).

2. عزّ الدّين أبو قرشت الحسن بن عبد المجيد بن الحسن، ويعرف بسعفص الرّاغي النّحويّ (666هـ)

3. محمّد بن أحمد بن محمّد بن عبد الله بن سجمان جمال الدّين أبو بكر الوائليّ البكريّ الأندلسيّ الشّريشي ّالمالكيّ (685هـ) واسم هذا الشرح : " التّعليقات الوفيّة بشرح الدّرّة الألفية".

4. محمّد بن يعقوب بن إلياس الدّمشقي بدر الدين، المعروف بابن النّحويّة (718هـ).

5. أحمد بن محمّد بن عبد الإله جبّارة المقدسيّ المرداويّ الصّالحيّ شهاب الدّين (728هـ).

6. أحمد بن يوسف بن مالك الرّعيني الألبيري، ثمّ الغرناطيّ أبو جعفر الأندلسيّ (779هـ).

وله (الفصولُ الخمسون) وهو كتاب نحويّ تعليميّ، قسّم فيه ابن معطٍ رؤوس المسائل إلى أبواب، وفي كلّ باب عِدَّةُ فصول، بحيث بلغَ عددُ الفصول خمسين فصلا. ولهُ (شرح المقدّمة الجزوليّة): وهي مقدّمة في النّحو أَصلُها حواشٍ وضعها الجزوليّ على (جُمل الزّجاجيّ) ثمّ أفردها في كتاب، وله "(العقود والقوانين في النّحو)". و"(شرح الجُمل في النّحو للزّجّاجيّ)، و"(شرح أبيات سِيبَوَيْه)"، وهو نظم، و"(حواشٍ على أصول ابن السّرّاج)". ولم يصلنا من مصنّفاته كلّها سوى (الألفيّة) و(الفصول الخمسون)، فضلا عن منظومته في علم البديع.

ولعلماء الجزائر مشاركةٌ فعّالةٌ في علم العَروض، ومن الذين ألّفوا في هذا العلم:

- العفيف التّلمسانيّ سُليمان بنُ عليّ بنِ عبد الله بنِ عليّ الكوميّ (تـ690هـ)، وله "كتاب في العَروض".
- إبراهيم بنُ أبي بكر التّلمسانيّ (تـ797هـ)، وله "المعشرات على أوزان العرب" و"مقالات في علم العَروض".
- أحمد بن حسن بن قنفد (تـ809هـ)، وله "بسط الرّموز الخفيذة في شرح عَروض الخزرجيّة"
- أحمد النقاوسي (تـ810هـ)، وله "السّبيل إلى القصد الجليل في علم الخليل".

• ابن مرزوق الحفيد (تــ842هــ)، ولـــه المفـــاتيح المرزوقيّـــة لحُلـــل الأقفـــال واستخراج خبايا الخزرجيّة".

• أحمد بن عبد الرّحمن الخلوف (تــ899هــ)، وله: تحريرُ الميزان لتصحيح الأوزان".

• شَويوش علي بن عبد الرّحمن (1324هــ)، وله" رسالةٌ في علم العَروض".

• محمّد بنُ يوسف اطفيَّش (تــ1332هــ)، وله "إيضاحُ الدّليل إلى علم الخليل".

• الشّيخ الطّاهر الجزائريّ (تــ1338هــ)، وله "إتمامُ الأُنس في عَروض الفُــرس" و"تمهيد العَروض إلى فنّ العَروض".

• محمّد بنُ أبي شَنَب (تــ1347هــ)، وله "تحفةُ الأدب في ميزان أشعار العرب".

• شُعيب بنُ عليّ التلمسانيّ (تــ1347هــ)، وله "زهرةُ الرّيحان في علم الألحان."

• المولود بن محمّد السّعيد بن الموهوب (تــ1358هــ)، وله" مختصرُ الكافي فـــي العَروض والقَوافي".

• موسى بنُ محمّد بن الملياني الأحمديّ (1903/1999م)، وله "المتوسّط الكافي في علمي العَروض والقوافي".

وعلى شاكلة الدّراسات اللّغويّة والنّحويّة والعَروضـــيّة فـــي الجزائـــر تزدهـــر الدّراسات البلاغيّة، ويتزعّمُها الحسنُ بنُ رشيق القيرواني: أديب، ناقد، باحث، وُلد في المسيلة (بالجزائر)، رحل إلى القيروان سنة 406هــ، واشتهر فيها، ولـــه كتـــاب (**العُمدة** في محاسن الشعر وآدابه): أشهر مؤلَّفاته التي تنيف على ثلاثين كتابًا، وهو الكتاب الذي خلَّد اسمَه، وشهَره من بين آثاره، وقد أراد له أن يكون موسوعة فـــي الشّعر ومحاسنه ولغته وعلومه ونقده وأغراضه، والبلاغة وفنونها، وقد اشتمل على

جُلِّ فنون البلاغة، ولا سيما أغلب مباحث البيان والبديع، وفيه تسعةٌ وثلاثون بابًا في البلاغة وعلومها.

ومن أبوابه المُمتعة باب سرقة الشعر وأنواعها: كالسلخ، والاصطراف، والانتحال، والإغارة، والغصب، والمرادفة، والاهتدام، والإلمام، والاختلاس، والموارِدة. ومن الأبواب الأخرى الممتعة: التّرديد، والتّصدير، والمطابقة، والتّقسيم والتّسهيم، والتّفريع، والتّتميم، والمبالغة، والإيغال، والاتّساع ، والاشتراك، والتّغاير. قال ابنُ خلدون: هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصّناعة وإعطاء حقذها، ولم يَكتب فيها أحدٌ قبلَه ولا بعدَهُ مثله.

وأمّا الأخَوَان الإمامان: أبو زيد عبد الرّحمن ابن الإمام محمد بن عبد الله التّلمسانيّ الجزائريّ (741هـ)، وأبو موسى عيسى ابن الإمام محمّد بن عبدالله التّلمسانيذ الجزائريّ (749هـ)، فقد أجمع علماء التّاريخ والسِّيَر والتّراجم بالمغرب العربيّ، بأنّه لم يكن في زمانهما أعظم رُتبة ولا أعلم منهما، وقد بنى لهما السّلطان الزّيانيّ أبو حمُّو موسى الأول مدرسة خاصّة بهما في بلدة المطهر من ناحية تلمسان، وعند ولاية ابنه السلطان (أبو تاشفين الأول) غادراه نحو المشرق حيث لقيا الشيخ (علاء الدّين القونوي)، كما أخذا عن (الخطيب القزوينيّ) قاضي القُضاة، صاحب "التّلخيص" في البلاغة، وكتاب "الإيضاح"، واجتمعا بشيخ الإسلام (ابن تيمية) وقد ناظراه في بعض المسائل، ثمّ لمّا بلغا مُرادَهما عادا إلى أرض الوطن، وأذاعا فيه "التّلخيص" وكتاب "الإيضاح" للخطيب القزوينيّ. وقد تخرّج عليهم أعلامٌ، منهم العلّامة (الشّريف التّلمسانيّ) والعلّامة (الخطيب ابن مرزوق) الجدّ والإمام (المقَّريّ) صاحب" نفح الطِّيب" و(أبو عثمان العُقباني) و(أبو عبد الله اليحصُبيّ).

ونُلفي الشّريف التّلمسانيّ (710هـ/771هـ) الإدريسيّ الحَسَنيّ العَلْوينيّ؛ صاحب الفروع والأصول، والذي انتهت إليه الإمامةُ بالمغرب، يُعنى بكتابي "التّلخيص" و"الإيضاح"، ويأخذهما عنه طُلّاب العلم.

وكان فقيها مجتهدا في الأصول والفروع، ثبتا وتحصيلا، واسع المعرفة بالأحكام، ووجوه الاستنباط منها. وخبيرا بعلوم العربيّة وآدابها وقواعدها: نحوا وصرفا وبلاغة وبيانا، قويّا في غريب اللّغة والشّعر والأمثال. ألّفَ الشَّريفُ التّلمسانيّ العديد من الكتب، منها: "شرح جمل الخونجي في العربيّة". و"كتاب في القضاء والقدر"، و"مثارات الغلط في الأدلّة". و"مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول"[(44)].

وأمّا أبو زيد عبد الرّحمن الأخضريّ المالكيّ (910/983هـ)، فقد خلَّف ثروة علميّة هائلة من متون وشروح ومصنّفات، استوعب من خلالها معظم علوم عصره، كالتّوحيد والفقه والنّحو والبلاغة والمنطق والحكمة والفلك والتّصوُّف، وقد أضحتْ مؤلّفاتُه منبعا ومنهلا لِكثير من علماء عصره، ولِمن جاء بعدهم؛ فقد لقِيَتْ تلك المؤلفاتُ والكتبُ إقبالا كبيرا، واعتُمِدت للتّدريس حفظا وقراءة؛ وهذا بسبب ما اشتملت عليه من الفنون في منهجيّتها الواضحة، وشكلها الميسَّر، ومحتواها المُهمّ، ونالت قدرا كبيرا من الشّرح والتّعليق، ووضع الحواشي عليها، حتّى أنّها جاوزت حدودَ بلاد المغرب العربيّ إلى بلاد المشرق، وحدودَ الحِلَق في الزّوايا والمساجد والمحاضر، إلى قاعات التّدريس في مُؤَسّسات التّعليم الثّانوي والجامعيّ كالأزهر والزّيتونة والقَرْويِّين، ذلك للتّبسيط والسّلاسة الموجودة في أسلوب عَرض المسائل المُتَنَاوَلة في مختلِف تلك المصنَّفَات.

وقد اعتنى (الأخضري) بمختلِف العلوم الشّرعية، والعقليّة، وله العديدُ من المصنَّفات، نذكر منها: "الدُّرَّة البهيَّة في نظم الآجُرُّوميّة": وهو نظم لِمتن الآجُرُّوميّة في النّحو، عددُ أبياتها (170)، و"السّلّم المرونق في علم المنطق": وهو متن في المنطق، يحتوي على (143) بيتا، وقد حَظِيَ بعدّة شروح من قِبَل علماء أجِلّاء. أمّا عن مصنَّفاته في البلاغة فقد أثرى (الأخضري) مكتبة البلاغة العربية بـ"الجوهر المكنون في الثّلاثة الفنون":وهو نظم في علوم البلاغة، يقع في (291) بيتا، وعلى هذا النظم عدّة شروح وحواشٍ، منها "حِلية اللّبّ المصون بشرح الجوهر المكنون" لـِ "الدّمنهوري" (1101 –1192ه).

أمّا المنظومة ففي علوم البلاغة المعاني، والبيان، والبديع، وهي من بحر الرّجز، وتقعُ في حدود (291) بيتا[45].

أمّا شرحُ الجوهر المكنون فباشره الأخضري، استجابة لحاجة طلّاب العلم لتبسيط المتن المنظوم، والتّفصيل في اختصاره، والتّوسُّع في معانيه، وقد اشتمل الشّرح على مقدّمة، تلاها تفصيل في الفنون الثّلاثة؛ أولُها علمُ المعاني، وثانيها علم البيان ،وثالثها علم البديع؛ بضَرْبَيْهِ المعنويّ، واللّفظيّ.

ومن العلماء شُرَّاح نظمه:

- ✓ أحمد بن المبارك العطّار القسنطينيّ، بمصنّفه المسَمَّى "نزهة العيون".
- ✓ عبد الكريم الفكون الذي استخرج الشّرح من مُبَيَّضته.
- ✓ محمّد بن محمّد بن عليّ بن موسى الثّغريّ الجزائريّ، بمصنَّفه المُسمَّى "موضح السرّ المكنون على الجوهر المكنون"؛ الذي أكّد بأنّ منظومة "الأخضريّ" من أجمل ما كتب في علم البيان، وقد شرحها؛ للإيضاح[46].

ومن العلماء المتأخّرين محمَّد بن يوسف الحفصيّ اطّفَيَّش (1332ه/1914م)، الشهير

بـــ "قُطب الأَيمة"، أشهر عالم إباضيٍّ بالمغرب الإسلاميِّ في العصور الحديثة. مجتهـــد، مجدِّد المذهب الإباضيّ بالمغرب، من كِبار العلماء بالفقه والأدب واللّغة والتّفسير، ومـــن رجال النّهضة الإصلاحيّة الحديثة بالجزائر [47].

لقد أصبح القطب قِبلة القاصدين للعلم والاستفتاء في الدّين من الرّجـــال والنّســـاء على السّواء، فقد كان شخصية موسوعية، نادرة عصره في رسوخه وعطائه العلمـــيِّ في (مْزَابْ)، وخارجه؛ إذ كانت له علاقات وطيدة مع علماء كثيرين؛ أمثال: الشّـــيخ عبد القادر المجّاوي، والشّيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي، ومن خارج الجزائر أمثال الشّيخ سالم بوحاجب شيخ مشايخ جامع الزّيتونة بتونس، والشّيخ محمَّد عبدُه المصـــلح المصريّ، ... وغيرهم كثيرٌ ممَّنِ التقى بهم وبخاصّـــة فـــي رحلتـــه الحجازيّـــة، أو راسلهم وراسلوه، ومن جالسوه في مكّة والمدينة. ولكلّ هذا وذاك من غزارة علمـــه ومكانته الرفيعة لقَّبه الشيخ نور الدّين السّالمي "قطب الأيمَّة".

قال عنه المؤرِّخ أبو القاسم سعد الله بعد أن تحدّث عن تفاسيره الثلاثـــة «كـــان الوحيد عندئذ الذي ألّف في هذا العلم على ما نعرف، وكانت لـــه مـــن الإمكانـــات الأدبيّة واللّغويّة والمواهب العقليّة ما أهّلَهُ لخوض هذا البحر، فقـــد كـــان ولوعـــا بالأدب واللّغة والتّاريخ والبلاغة والحديث، وله اطّلاعٌ واســـعٌ علـــى الحضـــارات ومساهمات الشّعوب»[48].

وقال عنه الشّيخ محمّد عليّ دبّوز: «إذا نظرت في كتب التّفسير التي وضـــعها، ورأيت مباحثه النّحويّة وإعرابه فيها، وحفظه لمذاهب النُّحَّاة فـــي مشـــاكل النّحـــو علمتَ أيَّ بحرٍ هو في علوم العربيّة...»[49].

ولهُ في النّحو واللّغة والعَروض: "إيضاح الدّليل إلى علم الخليـــل"، و"الحاشـــية الثّانية على شرح أبي القاسم الدّاوي" و"الكافي في التّصريف"، و"المسائل التّحقيقيّـــة

في بيان التّحفة الآجُرُّوميّة"، و"حاشية على شرح المرادي على الألفيـــة"، و"شـــرح شرح أبي سليمان داود على الآجُرُّوميّة"، و"شرح شواهد القزوينيّ"، و"شرح شواهد الوضع"، "شرح لاميّة الأفعال"، و"قصيدة الغريب: نظم متن مُغني اللّبيـــب" لابـــن هشام، وهو في خمسة آلاف بيت. وله في البلاغة: "تخليص العاني من ربقة جهـــل المعاني"، و"بيان البيان". و"ربيع البديع في علم البديع".

ومن العلماء الذين يَشهد له القاصي والدّاني الشّيح الطّاهر، السَّمْعُوني الوغليسي الجزائريّ الدّمشقيّ، (1268ه/1338هـــ). ترك الشّيخ طاهر الجزائري تآليفَ أغْنَى بها المكتبةَ العربيّة والإسلاميّة، كَماً ونَوْعاً، وقد **اعتنى باللّغة العربيذة عناية خاصّـــة، وألّف في ذلك عدداً مُعتبرا من الكتب اللّغويّة والأدبيّة نذكر منها:** "**إرشاد الألبّـــاء إلى طريق تعليم ألف باء**" و"**أشهر الأمثال**" و"بـــديع التّلخـــيص وتلخـــيص البـــديع (البديعيّة)" و"التّذكرة الطّاهرية" و"تقريب المُجاز إلى مســـائل المَجـــاز": و"**تســـهيل المجُاز إلى فنّ** المُعَمَّى **والمجاز**" و"**تدريب اللّسان على تجويد البيـــان**" و"**التّقريـــب لأُصول التّعريب**" و"**التّمرين على البيان والتّبيين** و"**تمهيـــد العُـــروض إلـــى فـــنّ العَروض**" و"إتمام الأُنس بعَروض الفُرس" و"**حدائق الأفكار في رقـــائق الأشـــعار**" و"حديقة الأذهان في حقيقة البيان" و"**الحكم المنثورة**"، و"**رسائل فـــي علـــم الخـــطّ**" و"**شرح خطبة الكافي**" و"**شرح ديوان خطب ابن نُباته**" و"عُمـــدة المُغْـــرِب وعُـــدَّة المُعْرِب" و"**الكافي في اللّغة**" و"**مختصر أدب الكاتب لابن قُتيبة**" و"**مُختصر البيـــان والتّبيين**" و"**مُختصر أمثال الميدانيّ**" و"**المنتقَى من الذّخيرة لابن بَسَّـــام**" و"**ميـــزان الأفكار شرح معيار الأشعار**".

وكان يُعاصرهُ الدّيسيّ محمد بن عبد الرّحمن، (1270هـــ /1340هـــ) وقد كان حُجَّة في الأدب، والفقه، والتّصوّف، والمعقول والمنقول، وذلك بشهادة مُعاصريه، ويكفي

أنّه لُقِّب بحقّ شيخ الجماعة بالقُطر الجزائريّ، وقد شارك في الحياة الثّقافيّة بآرائـــه وأفكاره، واتّصل بالعديد من العُلماء الباحثين، وربطته علاقاتٌ علميّةٌ مـــع علمـــاء عصره منهم: شيخُهُ محمد بنُ أبي القاسم الهاملي، عبد القادر المجـــاوي القاضـــي شُعيب، أبو القاسم الحفناوي وعبد الحيّ الكتّاني.

ولقد خلَّف عدّة مؤلَّفات في مـــختلِف المعارف والتّخصّصات، في اللّغة والفقـــه، والأدب، والنّحو، والبلاغة، والفلسفة، والمنطق والتّصوُّف، والتّاريخ، وديوان شعر، وبعض الرّســـائل والمقامات.

وله في اللغة العربية وآدابها: "القهوة المرتشفة": شرح المنظومة فـــي الجُمـــل سمّاها: «الزّهرة المقتطفة» و"الحديقة المزخرفة": حاشية على القهـــوة المرتشـــفة، وتُحفة الإخوان: شرح المنظومة ضمّنها كلّ أنواع البديع، نظمها في مـــدح أُســـتاذه الشَّيخ محمّد بن أبي القاسم في ثمانين بيتا، وشرحُها يزيـــد عـــن ســـبعين ورقـــة. و"المشرب الرّاوي على منظومة الشّبراوي": وهو شرح موجَزٌ على منظومة فـــي قواعد اللّغة، نظمها الشّبراوي في النّحو، و"خاتمة على قواعد ابـــن مالـــك: وهـــي رسالة ظريفةٌ في أقل من ثلاثين صفحة خصّصها لشرح خاتمة ألفيّة ابـــن مالـــك. و"مِنَّةُ الحنّان المنّان": ديوان شعر يشمل مائتي قصيدة ومقطوعة، تحـــوي حـــوالي أربعة آلاف بيت في أغراض مختلفة. و"المناظرة بين العلـــم والجهـــل"، ويُعتبـــرُ الدِّيسي من السّبّاقين إلى هذا اللّون من الكتاب. يقول عبد الله الركيبـــي: «وبالنّســـبة للنّثر فإنّنا لم نعثر على هذا الشّكل الأدبيّ قبل مناظرة الشَّيخ الدِّيسي، والَّتي أطلـــق عليها مناظرة بين العلم والجهل»[50].

ومن العلماء الجهابذة الذين كان لهم نصيبٌ وافرٌ في خدمة اللّغة العربيّة الشّـــيخ محمّد البشير الإبراهيميّ (1306/1385هـ) فقد قال: «لم يتّسع وقتي للتّأليف والكتابة مع

هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنّني أتسلّى بأنّني ألّفتُ للشّعب رجالاً، وعملتُ لتحرير عقوله تمهيدًا لتحرير أجساده، وصحّحتُ لهُ دينَه ولغتَه فأصبحَ مسلمًا عربيًّا، وصحَّحتُ له موازينَ إدراكه فأصبحَ إنسانًا أبيًّا، وحسبي هذا مقربًا من رضى الرّبّ ورضى الشّعب. ومع ذلك فقد ساهمتُ بالكتابة في موضوعات مفيدة، ولكن لم يُساعدني الفراغُ ولا وجودُ المطابع على طبعها، وقد بقيتْ كلُّها مُسَوَّداتٍ في مكتبتي بالجزائر. فمن أجلّ ما كتبتُ:

- "عيون البصائر": وهي من المقالات التي كتبتها بقلمي في جريدة (البصائر) في سلسلتها الثّانية.
- كتاب "بقايا فصيح العربيّة في اللّهجة العاميّة بالجزائر"، (والتزمتُ فيها اللّهجة السّائدة اليوم في مواطن هلال بن عامر).
- كتاب "النّقايات والنّفايات في لغة العرب": جمعتُ فيه كلّ ما جاء على وزن فُعُالُة (من مختار الشّيء أو مرذُوله).
- كتاب "أسرار الضّمائر في العربيّة".
- كتاب "التّسمية بالمصدر".
- كتاب "الصّفات التي جاءت على وزن فعَل بفتح العَين".
- كتاب "نظام العربيّة في موازين كلماتها".
- كتاب "الاطّراد والشّذوذ في العربيّة": (رسالة في الفرق بين لفظ المطَّرَد والكثير عند ابن مالك.
- كتاب "ما أَخَلَّتْ به كتبُ الأمثال من الأمثال السّائرة".
- "رسالة في ترجيح أنّ الأصل في بناء الكلمات العربيّة ثلاثة أحرف لا اثنان".
- رواية: "كاهنة أوراس" بأسلوب مبتَكر يجمع بين الحقيقة والخيال.

- "رسالـــة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربيّة الفصيحة والعامّيّة».
- وهنـــاك محاضرات وأبحاث كتبها عنّي التّلامذة في حين إلقائهـــا، وهنـــاك فتاوى متناثرة [51].

خاتمة:

هذه هي الجزائر التي بلغتْ أشُدّها، واستوتْ على سُوقها، وارتقَتْ مُرتقىً تُحسدُ عليه، واحتلّت مكانة مرموقة بين حواضر العلم في مشـــارق الأرض ومغاربهـــا، هوتْ إليها أفئدةُ كثير من علماء الأندلس ومصر والشّام، وأصبحت معقلا من أهـــمّ معاقل الحضارة والعلم والثّقافة والعُمران، تُشدُّ إليها الرِّحال من كلِّ صـــوب، وإذا العُلماءُ والفُقهاءُ والقُضاةُ والشُّعراءُ وأهلُ الفتوَى من كلّ حَدَب ينسِلون، فأقاموا بها، واتّخذوها وطنا، فإذا هي حافلةٌ بمختلِف العبقريّات، التي استطاعت أن تحقّق عبـــر التّاريخ أروعَ الغزوات في ميادين الآداب والعلوم اللّغويّـــة المختلفـــة، وأن تُمهّـــدَ بكنوزها الطّريق للأجيال اللّاحقة من عُلماء هذا العصر.

هوامش البحث:

(1) عادل نُويهض: معجم أعلام الجزائر(من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر)- دار الوعي- الجزائر- ط1438/2017.- ص111/112

(2) ابنُ بسّام الشّنتريني: الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة- تحقيق: إحسان عبّاس- دار الثّقافة- بيروت- ط1417/1997.- 2/1- ص52.

(3) جمال الدّين القِفطي: إنباهُ الرُّواة على أنباه النّحّاة- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-دار الفكر العربي-ط1-1986.

(4) جلال الدّين السُّيوطيّ: بُغية الوُعَّاة في طبقات اللُّغويِّين والنُّحَّاة – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-مطبعة عيسى البابي الحلبي- ط1- 109/2.

(5) عادل نُويهض: معجم أعلام الجزائر (من صدر الإسلام حتّى العصر الحاضر)- دار الوعي – الجزائر- ط1438/2017.-ص103.

(6) الغبريني أبو العبّاس: عُنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية –تحقيق: عادل نُوَيهض- دار الآفاق الجديدة- بيروت- ص67 وما بعدها.

(7) مصادر ترجمته وأخباره: رحلة العبدريّ (116)، عنوان الدّراية (345-346)، سبك المقال لابن الطّوّاح (ص143-146-149)، ملء العيبة لابن رُشيد السّبتيّ (209/2-250).

(8) الغبريني: عنوانُ الدِّرايـــــة- تحقيق: عادل نويهض- منشورات دار الآفاق الجديدة- بيروتط1979/2-ص77.

(9) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ (عصر الدّول والإمارات) – دار المعارف- ط1-1995- ص90.

(10) التّنبكتي أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج. منشورات دار الكاتب، طرابلس، لبنان. الطّبعة الثّانية 2000 م. ص 547.

(11) محمّد بن العبّاس التّلمساني: تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لاميّة الأفعال- تحقيق: محمّد الناصري. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ص23.

[12] زكيّ مبارك: المدائح النّبويّة في الأدب العربيّ- ص215.

[13] "التعريف " لابن خلدون ص: 19 و"الابتهاج" ص: 170 و"تبث الوادي آشي" ص: 220 و"البستان" ص: 220 و"الحلل الموشية" 3: 662.

[14] القرافـــي: توشيح الدّيباج وحلية الابتهاج، ت د. علي عمر، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة، ط 1، 1425 هـ / 2004 م - ص:170.

[15] سعيد ابن الأحرش: " بُردة البوصيري بالمغرب والأندلس آثارها العلميّة وشروحها الأدبيّة" ص: 177 هامش 1.

[16] ابن مقلاش:" مقدمة شرح البُردة" مخطوط الخزانة العامة بالرباط- رقم 345.

[17] "برنامج المجاري" ص: 134 و"رحلة القلصادي" ص96 و"البستان" ص: 200 و"النّيل" ص 499 و"الضّوء اللامع" 7: 50 و"أعلام الجزائر": ص 141 و"ثبت الوادي آشي" ص: 2930.

[18] البردة والشقراطسية دراسة فنّيّة ومقارنة مجلّة "الباحث التّونسيّة" ع 4 س 2 أبريل 1945. وانظر تفاصيل ذلك في كتاب: "بردة البوصيري بالمغرب والأندلس" ص: 181.

[19] يُنظر ترجمته في "فهرس الفهارس" 2: 314 والنّيل ص: 163 و"درّة الحجال" 2- 445 و"الفكر السّامي" 4-96.

[20] عن كتبه ومؤلّفاته يُنظر كتاب : "مسارح الأنظار ومتنزّه الأفكار في حدائق الأزهار" للشّريف الغبريني مخطوط المكتبة الملكية بالرباط- رقم1767.

[21] تنظر ترجمته وأخباره في كتاب: "نيل الابتهاج" ص: 107.

[22] "ابن مريم التّلمسانيّ :البُستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان "طبع بالجزائر-1908-ص 23، 210.

[23] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي(1500-1830)-دار الغرب الإسلامي-ط1/1998-ج2 ص166.

[24] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص167.

[25] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص176.

[26] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص172.

[27] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص168.

[28] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص168

[29] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص168

[30] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص177.

[31] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص169.

[32] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص170.

[33] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص170.

[34] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص169.

[35] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص169.

[36] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص172.

[37] تاريخ الجزائر الثقافي ج2 ص175.

[38] تعريف الخلف برجال السّلف: الحفناوي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1999.

[39] يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة- دار البصائر- الجزائر-ط2009- 234/2 وما بعدها.

[40]، ياقوت الحمويّ الروميّ: معجم الأدباء- تحقيق: إحسان عبّاس- دار الغرب الإسلاميّ- ط1/1993- 2831/3.

[41] ابن خلّكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عبّاس، دار صاد، بيروت، ط1/ 1970- 197/6.

[42] السّيوطيّ: بُغية الوعّاة في طبقات اللّغويّين والنُّحَّاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت ط.1، 2006- 288/2 .

[43] الذّهبيّ :سير أعلام النّبلاء، ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ط1- 1985- 22/ 324.

[44] ترجمته في: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصّلحاء بفاس، محمّد بن جعفر إدريس الكتّاني، 87/1، والبستان لابن مريم، ص164–184، للزِّرَكلي، 327/5، ومفتاح الوصول على بناء الفروع على الأصول، الشّريف التّلمساني، ص40–42.

[45] عبد الرّحمن الأخضري، الجوهر المكنون في الثّلاثة فنون (المجموع الكامل للمتون)، جمع وتصحيح محمّد خالد العطّار، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 558.

[46] يُنظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16 – 20م)، ج2، ص 174.

[47] ينظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثّقافية، بيروت–لبنان، ط2، 1400هـ/1980م، ص20. جمعيّة التّراث، معجم أعلام الإباضيّة، قسم المغرب، نشر جمعيّة التّراث، القرارة–غرداية–الجزائر، المطبعة العربيّة، ط1، 1420هـ/1999م، تر864، 836/4.

[48] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثّقافيّ (1830 – 1954)، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1998م– 9/7.

[49] محمّد عليّ دبّوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ط1، المطبعة التّعاونيّة، 1965م، 302/1.

[50]عمر بن قينة: الدّيسيّ حياته وآثاره وأدبه–الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع. ص15 وما بعدها.

[51] الإبراهيميّ محمّد البشير: الآثار– دار الغرب الإسلاميّ–ط1–1997–289/288/5.

أصول دلائل الإعجاز في كتاب سيبويه
- باب التقديم والتأخير نموذجا.

د. أحمد مرغم
جامعة سطيف2

تمهيد:

إن المتأمل في كتاب دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ت 474 هـ، يجده كتابا فريدا في بابه، وإن كان كتابا مؤسسا في علوم البلاغة، إلا أنه لم يخل من صفة التعليمية العالية لعلوم البلاغة، إذا ما قورن بما جاء بعده من كتب[1]، فنجد صاحبه يعلمنا علم البلاغة بطريقة خاصة جدا.

ففي وجه من وجوه هذا التعليم نجده يهتم بنفي الشبهات والاعتقادات الفاسدة التي أحاطت بعلم البلاغة والتي صدت الكثيرين عن تحصيله، وكانت حاجزا بينهم وبين الاستفادة منه في معرفة إعجاز القرآن الكريم وتذوق الكلام العربي.

وفي وجه من الوجوه نجده يهتم بالفكرة البلاغية ويشرحها شرحا وافيا بادئا بالإجمال وصولا إلى التفصيل، مهتما بالمقدمات والأصول قبل أن ينتقل إلى الفروع والمسائل.

وفي وجه ثالث وجدنا عمله استكمالا لعمل من سبقه في هذا الشأن من علماء الإسلام على اختلاف توجهاتهم سواء في ذلك من كتب منهم في صميم الإعجاز، أو من كتب في النقد[2]، أو من كتب في النحو العربي[3]، أو من كتب في البلاغة[4].

ومن الأشياء التي تفرد بها في كتابه هو سنه لمنهج متفرد في التحليل البلاغـــي المعتمد على النظر الدقيق والتأمل، واتهام الفكرة الأولى وعدم الاستســلام للفهــم السطحي، والدعوة إلى الغوص في المعاني مع بيان طريقة الوقوف على القبيح من الحسن، والحسن من الأحسن في مضمار نقد الكلام وتمييزه.

ولقد وجدنا مقدمات الأبواب البلاغية التي درسها تحيل فـــي تأســيس الفكـــرة البلاغية إلى أصولها من الكتب السابقة التي اهتمت بدراسة كلام العرب والقـــرآن الكريم، فهو يحيل في أحيان كثيرة إلى علمين جليلين هما سيبويه والجـــاحظ، وقـــد ارتأينا أن نتتبع ما صنعه عبد القاهر في باب التقديم والتأخير، من نقله الأمين عـــن سيبويه، ومن تطويره لأفكار سيبويه بمنهج خاص متفرد في تفريع المســـائل ممـــا تركه سيبويه مجملا ولم يفصله.

فلقد وجدنا سيبويه تناول موضوع التقديم والتأخير، رادا سببه إلى أصل عظيم تتبعه في كلام العرب، وهو العناية والاهتمام، ثم بدأ في التنصيص على مواضعه في أبـــواب النحو وكلما أراد أن يختم بابا يحتمل التقديم والتأخير ذكّر بالفكرة الأساسية من التقـــديم والتأخير وأنها لا تخرج عن مثيلاتها مما سبق ذكره في الكتاب عند العرب.

إلا أن عبد القاهر قد تميز بالإضافة إلى الأمانة وحسن الفهم فيما تركـــه ســـيبويه، تميز بلمسته البحثية المتأملة، وأسلوبه في تفريع المسائل الكثيرة مـــن مجـــرد القاعـــدة الواحدة في كلام من سبقوه، كما تميز بحسن الدفاع عما أحاط بكلام العلماء من شبه.

المبحث الأول: بعض خصائص البحث عند عبد القاهر: نجد عبد القـــاهر فـــي إيراده للمسائل النحوية، أبعد الناس عن التقليد، فهو النحوي البارع الـــذي غـــاص بفكره في دقائق علم النحو والإعراب، وربط كل ذلك بالمعنى والقصد لدى المتكلم،

واستقرى الكلام العربي قديمه وحديثه، حتى صارت له ملكة عالية في تمييز طبقات الكلام والمتكلمين.

ومن الأمثلة التي تبين أنه يعتمد فلسفة خاصة في مسائل النحو تفريقه بين التأويل النحوي والتأويل البلاغي.

1- **تفريقه بين التأويل النحوي والتأويل البلاغي:** ولنضرب لذلك مثلا بمسألة اسم الفاعل والفعل المضارع يقول: "ولا ينبغي أن يغرك أنا إذا تكلمنا في مسائل المبتدأ والخبر قدرنا الفعل في هذا النحو تقدير الاسم، كما نقول في: زيد يقوم، إنها في موضع: زيد قائم، فإن ذلك لا يقتضي أن يستوي المعنى فيهما استواءً لا يكون من بعده افتراق، فإنهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعلا والآخر اسما، بل كان ينبغي أن يكونا جميعا فعلين، أو يكونا اسمين"[5].

فهو هنا يدفع شبهة المطابقة بين الفعل المضارع وبين اسم الفاعل، برغم أن النحويين يعدون أحدهما يقوم مقام الآخر، ويجري على حركاته وسكناته، كما ورد منصوصا في كتبهم. قال سيبويه: "وإنما ضارعت أسماء الفاعلين أنك تقول: إن عبد الله ليفعل، فيوافق قولك: لفاعل، حتى كأنك قلت: إن زيدا لفاعل، فيما تريد من المعنى... ويبين لك أنها ليست بأسماء أنك لو وضعتها مواضع الأسماء لم يجز ذلك... إلا أنها ضارعت الفاعل لاجتماعهما في المعنى"[6].

فنحن نرى العالمين يشتركان في الوعي بهذه الفكرة النحوية، ويحترزان من المشابهة التي تؤدي إلى التطابق بين شيئين توجد بينهما فروق، ولذلك فهم يذكرون مرة بعد مرة، أن التشابه لا يستلزم التماثل.

ولكنا نجد عند المتأخر فضل تمكن في البيان والتفسير عما يمكن أن يغفله المتقدم، وتلك ميزة البحث العلمي الجاد.

2- **اهتمامه بالصحة فوق النحوية:** ومن المسائل التي اختص بها في بحثه النحوي في كتاب دلائل الإعجاز اهتمامه بالصحة فوق النحوية، نافيا أن يكون الكلام الجيد هو الذي له مزية في احتوائه على معنى لطيف، دون أن يحتوي على صنعة في النظم والتأليف، يظهر فيها التخيّر جليا، لأنه لا يكتفى في أمر البلاغة بمجرد مراعاة الصواب والسلامة من العيب الإعرابي، بل يتعداه إلى مراعاة صواب من نوع أعلى وأفخم، يقول: "لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرز عن اللحن وزيغ الإعراب، فنعتد بمثل هذا الصواب وإنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطإ تركا حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ، وهذا باب ينبغي أن تراعيه وأن تعنى به، حتى إذا وازنت بين كلام وكلام، دريت كيف تصنع، فضممت إلى كل شكل شكله، وقابلته بما هو نظير له، وميزت ما الصنعةُ فيه في لفظه، مما هي منه في نظمه"(7).

هكذا يفصل عبد القاهر فصلا تاما بين الكلام في مسائل النحو من الكلام في مسائل البلاغة، فمسائل البلاغة أو شرط فيها الصحة النحوية، ثم تأتي البلاغة والبحث عن مواطنها في ثنايا التراكيب، باستعمال أدوات خاصة منها التأمل والتيقظ والمراجعة والانتباه وصحة الطبع والصبر على البحث والمقارنة والقياس، حتى يتمكن البلاغي من استخراج كنوز الكلام العالي، أو اكتشاف أخطائه التي تخفى على غير المتأمل، لأنها ليست أخطاء نحوية فتكون ظاهرة للكل مشتغل

بالنحو، ولكنها أخطاء تحتاج إلى لطف نظر، وفضل روية، وقوة ذهن، كمـــا قـــال عبد القاهر.

المبحث الثاني: استكمال المسائل النحوية: وفـــي قضـــية اســـتكمال الأبـــواب النحوية، نجد عبد القاهر فقيها في مسائل النحو، عالما بمـــواطن الكـــلام العربـــي وأساليبه، ولكنه لا ينحى فيها منحى المقلد، بل يحاول دائما أن يكتشف جانبـــا مـــن الجوانب التي لم يسبق إليها، مهما كانت المسائل النحوية بسيطة في نظر الـــدارس المتعجل، ولكنه بقوة ما أوتي من تأمل وحسن نظر، يبتكر ما لم يستطع من ســـبقه ابتكاره ولا يسمح لنفسه بأخذ رتبة المقلد.

وههنا أبواب نحوية كثيرة بنى عليها عبد القاهر فكرة النظم ويظهر من خـــلال كلامه أنه تتبعها باب بابا ومسألة مسألة، ولكن عمله المنهجي في كتابه اقتضى منه طريقة في العرض، لا تعطي للقارئ كل المعلومات، ولكنها تعطيه منهجا بواسطته يستطيع أن يستكمل طريقة في تطبيق فكرة النظم.

1- **استكمال باب التقديم والتأخير:** وههنا نجد كلاما عاليا فـــي وصـــف بـــاب التقديم والتأخير بأنه: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقـــك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فترى سبب أن راقك ولطف عندك، أن قـــدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[8].

فلم نعهد كتب النحو تقدم لهذا الباب بمثل هذه الفخامة وبهذه الصفة من المـــدح، إلا أن المتقدمين من النحاة كانوا على دراية بخطورة هذا الباب في الكلام العربي، ومن هؤلاء سيبويه إمام النحاة، الذي ذكر في كتابه مبدأ مهما اعتمده عبد القـــاهر في هذا الباب الجليل، وتوسع فيه.

وهذا المبدأ هو مبدأ الاهتمام حيث ذكر عبد القاهر أنه وجده هو الأصل عند من سبقه[9].

2- **باب التقديم والتأخير عند سيبويه:** قال سيبويه في باب الفاعل والمفعول حينما مثل لهما بقولهم: ضرب عبد الله زيدا:" فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول، وذلك قولك: ضرب زيدا عبد الله؛ لأنك إنما أردت به مقدما ما أردت به مؤخرا، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان مؤخرا في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون الفاعل مقدما وهو عربي جيد كثير، كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"[10].

لقد أشار عبد القاهر[11] أن سيبويه لم يذكر في ذلك مثالا، ولكن النقل الذي أوردناه عن سيبوه موثق بمثال، كما نص على ذلك محقق الكتاب، محمد كاظم البكاء، فلعل قصد الجرجاني شرح وجه التقديم والتأخير في المثال على وجه الدقة والتفصيل دون الاكتفاء بمجرد ذكر الهدف العام من التقديم والتأخير عند العرب.

ولكننا نجد الوعي التام بهذه الظاهرة في الكلام العربي، بحيث كثرت الإشارات في كتاب سيبويه إلى هذا الأصل المعتمد في باب التقديم والتأخير، وتتبعه سيبويه في غير باب الفاعل والمفعول، وقاسه على باب الفاعل والمفعول.

فذكره في باب الفعل المبني للمجهول فقال: "وإن شئت قدمت وأخرت، فقلت: كسي الثوب زيد، وأعطي المال عبد الله[12]، كما قلت: ضرب زيدا عبد الله، فأمره في هذا كأمر الفاعل"[13].

وذكره كأصل معتمد في باب كان وأخواتها، باعتبارها فعلا يرفع وينصب، ومرفوعها يشبه الفاعل ومنصوبها يشبه المفعول، فقال: "وإن شئت قلت: كان أخاك

عبد الله[14]، فقدمت وأخرت كما فعلت ذلك في ضرب، لأنه فعل مثله، وحال التقديم والتأخير فيه كحاله في ضرب، إلا أن اسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد"[15].

كما أشار سيبويه إلى هذا الأصل في باب كان وأخواتها إذا التقت معرفة ونكرة، فتقول: "كان زيد حليما، وكان حليما زيد، لا عليك أقدمت أم أخرت، إلا أنه على ما وصفت لك في قولك: ضرب زيدا عبد الله"[16].

وكذلك الحكم إذا التقت معرفتان أو نكرتان فإن الاهتمام يكون هو الفاصل في التقديم والتأخير فالمقدم هو المقصود من الكلام، يقول سيبويه: والتقديم والتأخير في هذا بمنزلته في المعرفة[17]، وما ذكرت لك من الفعل"[18].

وذكر سيبويه علة التقديم والتأخير وأنها تتحقق في باب الإخبار عن النكرة بالظرف، في مثل قولهم: ما كان فيها أحد خير منك، وما كان فيها أحد خيرا منك، "والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو يكون اسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول"[19].

كما ذكر سيبويه في باب إن واخواتها إذا كان الخبر ظرفا، في مثل قولنا: إن فيها زيدا قائما، (إذا جعلنا الظرف خبرا)، وإن فيها زيدا قائم، (إذا جعلنا الظرف ملغى، وجعلنا القائم هي الخبر)، وإن زيدا فيها قائما، (إذا جعلنا الظرف خبرا) وإن زيدا فيها قائم، (إذا جعلنا الظرف ملغى وجعلنا القائم هي الخبر).

يقول: "واعلم أن التقديم والتأخير والعناية والاهتمام هنا، مثله في باب كان، ومثل ذلك قولك: إن أسدا في الطريق رابضا، وإن بالطريق أسدا رابض. وغن شئت جعلت بالطريق مستقرا، ثم وصفته بالرابض، فهذا يجري هنا مجرى ما ذكرت من النكرة في باب كان"[20].

3- **شروحات النحويين لباب التقديم:** وإذا كان باب التقديم والتأخير مبنيا على المثال: ضرب عبد الله زيدا، ثم قيس عليه سائر الأمثلة في بقية الأبواب النحوية، فقد تولى السيرافي[21] ضرب مثال ظاهر في هذا الباب، فذكر أنه: "قد تكون أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه به، كمثل ما يريده الناس من قتل خارجي مفسد في الأرض، ولا يبالون من قتله، فإذا قتله زيد فأراد مخبر أن يخبر بذلك قدم الخارجي في اللفظ؛ لأن القلوب متوقعة لما يقع به من أجله، لا من أجل قتله، فتقول: قتل الخارجي زيد. وإن كان رجل ليس له بأس، ولا يقدر فيه أن يقتل أحدا فقتل رجلا، فأراد المخبر أن يخبر بهذا المستبعد من هذا القاتل، كان تقديم القاتل في اللفظ أهم؛ لأن الغرض أن يعلم أنه قتل إنسانا، فيقال: قتل زيد رجلا، وهذا الكلام إنما هو على قدر عناية المتكلم، وعلى ما يسنح له وقت كلامه..."[22].

فهذا مثال عندهم يدل على الاهتمام والعناية المرتبطين بالتقديم والتأخير، وقد أعجب عبد القاهر بهذا المثال فأعاد نقله في كتابه، وعلق عليه بأنه " جيد بالغ، إلا أن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى، ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير"[23].

ومع ذلك فلقد بث عبد القاهر شكواه ممن يرى الأمور على بساطتها في باب التقديم والتأخير، بل في سائر الأبواب النحوية، وجعل لا ينظر في الحذف والتكرار والإظهار والإضمار، والفصل والوصل، ولا في نوع من أنواع الفروق والوجوه، إلا نظره فيما غيره أهم له، بل فيما إن لم يعلمه لم يضره. بل جعل هذا الاتجاه في التفكير صدا عن العلم وفضيلة إحرازه[24].

المبحث الثالث: دفع عبد القاهر للشبه حول الغرض من التقديم: ولا يغفل عبد القاهر في دراسته لأبواب علم البلاغة عموما أن ينص على ما علـــق بهـــا مـــن اعتقادات فاسدة، صرفت الناس عن الاهتمام بها، والبحث في دقائقها، فـــلا يـــزال يبحث في المداخل التي تدخل منها الآفة على الناس في شأن العلم، وينص عليهـــا قصد تجنب الوقوع في فخها، ومن ذلك:

1- **الاكتفاء بالتعميم عند ذكر المسائل دون التفصيل:** إن عبد القاهر يهتم بـــدفع الشبه التي تعلق بالعلم، وتقع في ظنون الناس، وهي عند التمحـــيص والتحقيـــق لا تعدوا أن تكون مجرد وهم عار عن الدليل العلمي الذي ينصره، ومن ذلك ما اعتقده بعضهم في التقديم وأنه: " يكفي أن يقال: إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية، وبم كان أهم، ولتخيلهم ذلك قـــد صـــغر امـــر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنك ترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف، ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"[25].

2- **تهوين أمور النظم صد عن معرفة مراتب البلاغـــة:** لا يكتفـــي عبـــد القـــاهر بوصف فساد اعتقاد تلك الفئة التي انحرفت عن إدراك قيمة علـــة البلاغـــة ومعرفـــة الفروق والوجوه، بل يحاول أن يصف داءهم، وأن يعطي لهم الدواء الشافي، بمساءلتهم عن الطريق التي يمكنه بواسطتها معرفة شرف كلام على كلام، وكيف يعظم التفاوت، ويشتد التباين، ويترقى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة[26].

إن معرفة ما وراء التقديم والتأخير في كل موضع بحسبه، أولى عند عبد القاهر من الاشتغال بمعرفة الوجوه في قراءة "أأنذرتهم" والإمالة في "رأى القمر"، والأداء في كلمة "الصراط"، وأشباه ذلك مما لا يعدو العلم باللفظ وجرس الصوت، ولا يمنع

عدم تعلمه من بلاغة، ولا يدفع عن بيان، ولا يفضي إلى تحريف وتبديل، ولا إلى الخطأ في التأويل.

إن عبد القاهر يحظر على المتكلم في التفسير، أن يتكلم فيه المتكلم وهو يفتقد إلى أصل مهم وهو معرفة مقادير الكلام في البلاغة والتفريق بين تركيب وتركيب، لأن الجهل بذلك يوقع صاحبه في الفاحش من الخطأ، الذي يبقى عاره وتشنع آثاره.

3- **شبهة تقسيم التقديم إلى مفيد وغير مفيد:** يشير عبد القاهر إلى ما أشار إليه سيبويه من تعميم الحكم في المسألة الواحدة في باب التقديم والتأخير، إلى جميع مسائل الباب، وأن حكمها واحد، وهو أنها لا تخلو من فائدة الاهتمام والعناية في كل موضع بحسب قصد المتكلم والمخاطب. وأن هذا هو العهود من الخطاب العربي، لأن العرب أمة حكيمة في كلامها.

كما أن من الشبهة أن ينسب الغرض من التقديم أحيانا إلى العناية والاهتمام وأحيانا أخرى إلى التوسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذاك سجعه[27].

المبحث الرابع: مداواة الشبه في علم البلاغة:

1- **مداواة الشبهة بالأمثلة المتفق عليها بين العقلاء:** يفرق عبد القاهر في الغرض من البداية بالاسم والغرض من البداية بالفعل في الكلام العربي، وأنهما ليسا سواء عند العقلاء فضلا عن اللغويين، لأن الصيغة في مثل قولك: "أأنت فعلت؟" لا يمكن أن تتطابق مع قولك: "أفعلت؟".

ففي البداية بالاسم "أأنت فعلت؟" كان الشك والتردد في الفاعل من هو، لأن الشك ليس في الفعل أنه كان، ولكن شككت في الفاعل من هو؟

وفي البداية بالفعل "أفعلت؟" يكون الشك في الفعل نفسه، ويكون الغرض من الاستفهام أن تعلم وجوده؛ لأنك متردد في وجود الفعل وانتفائه، مجوز أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن[28].

ومثاله قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢﴾ [29]، في هذه الآية إشارة إلى أن الفعل قد كان وحدث، والبداية بالاستفهام عن الاسم تقتضي أن السؤال كان عن الفاعل من هو وذلك بعد تحقق الفعل.

ودليله قوله في جوابهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[30].

2- **ثبوت الاهتمام بتقديم الفعل ماضيا ينسحب على الفعل المضارع:** والحكم في تقديم الفعل إذا كان مضارعا لا يختلف في الجملة عن الغاية من تقديم الفعل الماضي، وإن كان يختلف في التفصيل على حسب كل تركيب، كما أنك إذا قدمت الاسم على الفعل المضارع في قولك مثلا: "أأنت تفعل"[31]، أو "أهو يفعل"، اقتض ذلك أنك تعمد بالإنكار إلى ذات من قيل: "إنه يفعل"، أو قال هو: "إني أفعل"، وأردت أن تقول: "ليس هو بالذي يفعل"، و"ليس مثله يفعل"، ولا يكون هذا المعنى إذا بدأت بالفعل فقلت: "أتفعل"، فأنت حينئذ تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه، وتزعم أنه لا يكون، أو أنه لا ينبغي أن يكون.[32]

3- **ثبوت الفائدة في تقديم الفاعل ينسحب على الفائدة في تقديم المفعول:**

وإذا ثبتت الفائدة في التقديم في الفاعل فلا بد أن توجد فائدة مخصوصة في تقديم المفعول والابتداء به دون الفاعل، مع أن الأصل في الكلام أن يقدم الفاعل على المفعول، ولذلك فعبد القاهر يضرب له مثلا بقولنا: ""أزيدا تضرب؟" ويشبهه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[33]، وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾[34]، فكان لتقديم كلمة "غير" من الحسن والمزية والفخامة، ما تعلم أنه لا يكون لو أخر

فقيل: "قل أأتخذ غير الله وليا"، و"أتدعون غير الله؟"؛ وذلك لأنه حص بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل: "أأتخذ غير الله وليا"؛ وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط، ولا يزيد علـــى ذلـــك فاعرفه"[35].

ومن عادة عبد القاهر أن يستقصي المسائل المرتبطة بالباب حتى يزيـــل عنهـــا الشبهة وتطرد فيها القاعدة، فنجده يتبع الحديث في الإثبات حديثا في النفي ويـــتكلم في معناه، ويفرق فيه بين البداءة بنفي الفعل، أو نفي الفاعل، أو نفي المفعول، وأن كل وجه يختص بمعنى يختلف عن الوجه الآخر كما كان ذلك تماما في الإثبات.

فإذا قلت في باب نفي المفعول: "ما زيدا ضربت"، فهو غير قولك: "ما ضـــربت زيدا"، ففي الأول قد أثبت وقوع ضرب منك على إنسان، وظن أن ذلـــك الإنســـان زيد، فنفيت أن يكون إياه، وفي الثاني نفيت أن يكون وقع ضرب منك على زيـــد، ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا إثبات، وتركته مبهما محتملا[36].

الخاتمة: نختم ولم نستكمل الكلام في باب التقديم والتأخير، بل لم نتحدث إلا في جزء يسير منه، ولكن الغرض ليس هو أن نأتي على هذا الباب عـــن آخـــره، لأن ذلك لا يتسع لمجلدات ومجلدات، فالباب من الناحية النظرية معـــدود الصـــفحات، ولكن تطبيقاته تحتاج إلى وقت كبير، حتى نتتبعه فـــي كـــلام الشـــعراء والأدبـــاء ونكشف عن أغراضه، ثم ننتقل منها إلى كلام الله وكلام رسول الله، لكـــي نـــدرك الفرق بين كلام البشر والبشر، ثم ندرك الفرق بين كلام البشر وكلام خالق البشـــر، فنعلم أن ههنا إعجازا يمكن الكشف عنه والبرهنة عليه في كل عصر.

لقد تعلمنا من الشيخ عبد القاهر في باب التقديم والتأخير، أنه باب له شأن في البلاغة وأنه من مفردات النظم والتأليف عنده.

كما تعلمنا أن الشبهة في الزهد في معرفة أسراره هي الاكتفاء بالقول إن التقديم في كل موضع جاء للاهتمام والعناية، والتوقف عند هذه النقطة في البحث البلاغي.

وأن الوقوف على سره في كل موضع حصل فيه تقديم هو اللائق بالباحث في علم البلاغة.

كما رأيناه يؤسس البحث في باب التقديم على من سبقه، وخاصة سيبويه في الكتاب، فهو يعترف له ضمنا بالبراعة في اكتشاف الغرض من التقديم، ويتخذ من أمثلته وأمثلة النحاة بعده مدخلا للبحث في هذا الباب.

ثم رأينا عبد القاهر لا يتوقف بالبحث في هذا الباب بما هو معهود من الأمثلة، حتى يعلمنا منهجية في التحليل البلاغي الدقيق، والمبني على التأمل والتيقظ ومراعاة الأقسام والأوجه والفروق، ثم استخراج الغرض الدقيق المتعلق بكل موضع تقديم.

إننا بأمس الحاجة في تعلمنا للبلاغة وتعليمنا للدرس البلاغي إلى إحياء هذا المنهج الجرجاني وتطويره واستكمال الكلام فيه والتوسع في أسسه وأفكاره، حتى نوجد جيلا يكتسب الذائقة البلاغية التي تفيده في دراسة الكلام العربي عموما وكلام الله على وجه الخصوص.

الهوامش

(1) يذكر ههنا كتاب السكاكي، والقزويني وما ورد فيهما من جهود تعليمية ظاهرة لعلوم العربية عموما وعلوم البلاغة خصوصا.

(2) مثل الجاحظ في كتابيه الحيوان والبيان والتبيين، ومثل شيخه عبد العزيز الجرجاني في الوساطة.

(3) مثل سيبويه، وأبي الحسن الأخفش، والمبرد، وأبي الحسن الفارسي شيخ عبد القاهر.

(4) مثل الشعر والشعراء للمرزباني، وصنعة الشعر لأبي هلال العسكري.

(5) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيـ ص177.

(6) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 57/1.

(7) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص98.

(8) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص106.

(9) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص107.

(10) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 88/1.

(11) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص107.

(12) أصل المثالين الذين ذكرهما سيبويه هو قوله من قبل: كسي عبد الله الثوب، وأعطي عبد الله المال. ينظر: كتاب سيبويه، 99/1.

(13) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 99/1.

(14) المثال الذي ذكره سيبويه أصلا في الكلام هو قوله: كان عبد الله أخاك،

(15) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 105/1.

(16) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 107/1.

(17) يقصد بذلك إذا دخلت كان أو إحدى أخواتها على معرفتين، فالاهتمام يكون فاصلا في المقصود من الكلام تقديما وتأخيرا. يقول سيبويه: " وإن كانا معرفتين فأنت بالخيار، أيهما ما

جعلته فاعلا، رفعته ونصبت الآخر، كما فعلت ذلك في ضرب، وذلك قولك: كان اخـوك زيـدا، وكان زيد صاحبك، وكان هذا زيدا، وكان المتكلم أخاك". ينظر: كتاب سيبويه، 110/1.

(18) مقصوده المثال: ضرب عبد الله زيدا، وضرب زيدا عبد الله؛ لأنه جعله أصلا ينطلق منـه في باب التقديم والتأخير وأن سببه الاهتمام والعناية عند العرب، وجعل يقيس غيره عليه.

(19) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 118/1–119.

(20) كتاب سيبويه، تحقيق: محمد كاظم البكاء، 24/3.

(21) شرح كتاب سيبويه، السيرافي، 2/

(22) شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي ت368هـ،"تحقيق:رمضان عبـد التـواب، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، 1990، 274/2.

(23) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص108.

(24) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص109.

(25) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص109

(26) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص109

(27) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص110.

(28) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص110.

(29) الأنبياء:62.

(30) الأنبياء: 64.

(31) يضرب لنا الجرجاني مثالا رائعا من القرآن الكريم، ليثبت أن القاعدة فـي التقـديم بـين الفعـل والفاعل ليست جامدة على العناية والاهتمام، وإنما تتفرع هذه العناية والاهتمام في كل موضع بحسـبه، وبحسب ما يقتضيه المقام من دقـة وتأمـل، ففـي قولـه تعـالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ (الزخرف: 40)، ليس إسماع الصم مما يدعيه احد فيكون ذلك للإنكار، وإنما المعنى أن ينزل الذي يظن بهم أنهم يسمعون، أو أنه يستطيع إسماعهم، منزلة من يرى انه يسمع الصم ويهدي العمي، ثم

المعنى في تقديم الاسم وأن لم يقل: أتسمع الصم، هو ان يقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أأنت خصوصا قد أوتيت أن تسمع الصم.

وان يجعل في ظنه انه يستطيع إسماعهم، بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم". دلائل الإعجاز، ص120.

(32) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص116-118.

(33) الأنعام:14.

(34) الأنعام: 40.

(35) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص121-122.

(36) ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص126. وينسحب أمر التقديم والتأخير على الجار والمجرور، ويكون حكمه في العناية والاهتمام حكم المنصوب، فإذا قلت: "ما أمرتك بهذا"، كان المعنى على نفي أن تكون قد أمرته بذلك، ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر، وإذا قلت: "ما بهذا أمرتك"، كنت قد أمرته بشيء غيره. دلائل الإعجاز، ص127.

دور تقنية المعلومات
في خدمة القرآن الكريم واللغة العربية

د. العربي بوعمران بوعلام
جامعة خميس مليانة

مقدمة: حظي القرآن الكريم بعناية فائقة على مر السنين واستطاع في وقتنا هذا أن يواكب مختلف التقانات والتكنولوجيات المستحدثة، كما وسجلت العديد من المشاريع الحاسوبية القيمة سواء في مجال نشر القرآن الكريم أم تعليمه أم ترجمته، فعلى الرغم من تراجع التحام اللغة العربية بالتقانات الجديدة، إلا أن الدراسات القرآنية استطاعت أن تحقق منجزات جد متقدمة من حيث المعالجة الآلية للنص القرآني والتخزين الرقمي لمحتوى القرآن وعلومه وإتاحتها على شكل برامج وتطبيقات حاسوبية.

اجتاحت تقنية المعلومات مختلف الحقول المعرفية، ومن بينها الدراسات القرآنية، التي تأقلمت مع هذا الواقع العصري، إذ نجد العديد من التحديات الرقمية، وظهور كم هائل من المحاولات والدراسات العلمية الجادة، الأمر الذي يقلص الفجوة بين الأجيال الحالية وبين التقنية واستخداماتها المتنوعة.

تشهد الدراسات القرآنية حاليا عطاء علميا ومعرفيا زاخرا، حيث استطاعت أن تستثمر الامكانات التقنية، من أجل إيجاد العديد من الوسائط الرقمية والتقنيات المتطورة، التي تسهم في عملية تعليم القرآن الكريم ونشره.

لقد أصبحت التقنية بشتى أشكالها قاسما مشتركا لكل مجالات الحياة من حولنا، لذلك أصبحت التقنية التعليمية من ضروريات العملية التعلمية، وأسلوبا في العمل

وطريقة في التفكير، ولعل من أهم التقنيات تقنية الحاسب الآلي، والذي من استخداماته البرمجيات التعليمية، والتي تلعب دورا فاعلا في تسهيل العملية التعلمية، وتقديم المعلومات بأسلوب لا يمكن تحقيقه من خلال الكتاب المدرسي، مثل توفير الوسائل المساعدة، كالصورة الثابتة والمتحركة والصوت إلى جانب النص، وإذا نظرنا إلى واقع تعليم القرآن الكريم، نجد الكثير من المعلمين في المدارس القرآنية أو المدارس التعليمية، لا يتقنون أحكام التجويد والتلاوة الصحيحة، وكثيرا ما نلحظ العديد من الأخطاء، لذا فإن الاعتماد على التقنيات الرقمية يسهم في تجنب الوقوع في مثل هذه الأخطاء[1].

هناك العديد من البرمجيات التي تستخدم في العملية التعليمية في شتى الحقول المعرفية، ومنها المتعلقة بتعليم القرآن الكريم وعلومه، إذ نجد برامج متعلقة بتحفيظ القرآن وتجويده وترجمته، بالإضافة إلى أدوات أخرى استثمرت شبكة الانترنيت وما تتيحه الشابكة من إمكانات رقمية نذكر بعضها:

- الجامعات الالكترونية الافتراضية.
- المكتبات متعددة الوسائط والتي تتيح المصاحف الالكترونية ومختلف كتب العقيدة الاسلامية بالإضافةإلى كم هائل من الفيديوهات لمختلف المقرئين.
- المواقع الالكترونية.
- البرامج الحاسوبية.

1/الجامعات الافتراضية: تستخدم الانترنيت حاليا في مجال التعليم بشكل واسع، إذ أن هناك العديد من المواقع الالكترونية التي تتيح المجال أمام الانخراط في الجامعات الافتراضية، ومزاولة الدراسة عن بعد إذ تتيح هذه المواقع أهم المقررات الدراسية والمحاضرات العلمية والدروس التطبيقية، هناك العديد من الاكاديميات

والمؤسسات التعليمية التي أصبحت تعتمد التعليم عن بعد، وتستقبل طلابا من مختلف بقاع العالم يزاولون دراستهم عبر الانترنيت، ويتحصلون على شهاداتهم كذلك عبر الانترنيت، لذا يمكن الاطلاع على موقع التصنيف الدولي للجامعات والكليات الأسترالي (ICUs4) تصنيفاً عالمياً، والذي يهتم بقياس مدى شهرة المواقع الإلكترونية للجامعات التي حصلت على الاعتراف أو الاعتماد الأكاديمي من المنظمات أو الهيئات الدولية، ويُعلن ذلك التصنيف كل ستة أشهر، ويطلب من كل الكليات والجامعات المشاركة في التصنيف إضافة وتحديث بياناتها شهرياً، ويحتوي التصنيف على أكثر من 13,000 كلية وجامعة يتم تصنيفهما وفقا لشهرة موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت لدى 200 دولة.

ويهدف هذا التصنيف إلى ترتيب الكليات والجامعات العالمية، وفق شهرة وجماهيرية الموقع الإلكتروني للجامعات بشكل تقريبي، وذلك يساعد الطلاب الدوليين على معرفة مدى جماهيرية وشهرة أي جامعة أو كلية في دولة أجنبية أخرى.

بالتالي اصبح من السهل جدا مزاولة التعليم في أكبر الجامعات العالمية، دون الحاجة إلى السفر أو التنقل حيث تقدم العلم للدارس في أي بقعة يكون فيها اتصال بشبكة الإنترنت، مستفيدة في ذلك من وسائل الاتصال الحديثة، ومستثمرة لها الاستثمار الأمثل الأمر الذي يزيل كل العوائق الزمانية والمكانية، كما أنهاتعد جيلًا من المتعلمين يطبقون بشكل عملي نظريات التعلم الحديثة، التي ينبني عليها التعليم عن بعد، والتعليم الإلكتروني، حيث التعلم الذاتي الذي يقوم على تحفيز المهارات الكامنة لدى الإنسان بما فيها مهارة التفكير والوصول الذاتي إلى المعلومة من خلال مجموعة من الوسائل، والطرق المتنوعة التي تجمع بين التشويق والمتعة والتطبيق العملي لعدد من الطرق التدريسية الحديثة[2].

هناك العديد من الاكاديميات الاسلامية والتي يتم فيها التعليم عن بعد بالاستعانة بشبكة الانترنيت نذكر بعضها هنا:

- **جامعة المعرفة العالمية:** صرح علمي متميز يعتمد على تقنية المعلومات والاتصالات لتقديم تعليم عال ذي جودة متميزة تصل للجميع في كل مكان، وتعتمد الجامعة أسلوب التعليم عن بعد باستخدام الوسائل الالكترونية (شبكة الانترنت بشكل رئيسي)، وتمنح الجامعة حاليا درجة البكالوريوس في تخصصي الشريعة والدراسات القرآنية ويتضمن تخصص الدراسات القرآنية القراءات و علوم القرآن والتفسير.



الشكل(1): صورة عن موقع جامعة المعرفة العالمية

- **الأكاديمية الاسلامية المفتوحة:** رائدة في مجال التعليم عن بعد تقف على ثغرة عظيمة هي أمانة نشر العلم الشرعي المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بفهم السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين وإيصاله إلى كل راغب فيه بنظام التعليم المفتوح وفق التدرج في التعليم وهى جامعة تتبع نظام التعليم المفتوح (تعليم عن بعد).



الشكل(2): واجهة موقع الأكاديمية الاسلامية المفتوحة

- **الجامعة الامريكية المفتوحة:** الجامعة الأمريكية المفتوحة هي جامعة إسلامية رائدة في مجال التعليم عن بُعد، تقف على ثغرة عظيمة هي أمانة نشر العلم الشرعي، المستند إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإيصاله إلى كل راغب فيه، مع استخدام أحدث وسائل التقنية المعاصرة لطريقة التعليم عن بعد، بضوابطه التي تقربه من التعليم المباشر، وقد خطت الجامعة بحمد الله تعالى خطوات ثابتة ومتزنة، واستفاد منها آلآف من الدارسين والدارسات في مختلف أنحاء العالم.



الشكل(3): صورة عن واجهة موقع الجامعة الأمريكية المفتوحة

- **جامعة المدينة العالمية بماليزيا:** الاكثر شهرة من بين العديد من الجامعات الافتراضية، تقوم على نظامين التعليم عن بعد والتعليم الالكتروني، إذ تقدم برامج متنوعة ومتعددة الدرجات والمستويات حيث برامج الدبلوم والبكالوريوس والماجستير والدكتوراه، والندوات القصيرة في شتى المجالات والتخصصات بحسب حاجات الدارسين التعليمية وذلك من خلال مايزيد على أربعين برنامجا دراسيا في شتى المجالات والتخصصات.



الشكل(4): صورة واجهة موقع جامعة المدينة العالمية

- **الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة:** هي جامعة سعودية في المدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية، وهي تحت إشراف وزارة التعليم السعودية تهتم هذه الجامعة بإعداد البحوث العلمية وترجمتها ونشرها وتشجيعها في مجالات العلوم الإسلامية والعربية.



الشكل(5): صورة لواجهة موقع الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة

2/ المكتبات الرقمية: لست بحاجة بعد الآن الانتقال لمسافات بعيدة بحثا عن كتاب أو التجول بين رفوف المكتبات واروقتها، او البحث عن قرص صلب يوفر لك تسجيلا صوتيا للقراءات القرآنية، الآن تمتع بجولة ممتعة في المكتبات الرقمية وانت في منزلك، لست بحاجة الى البحث المطول، فقط أدخِل عنوان الكتاب الذي تريده وسيظهر أمامك في الحال، بكبسة زر فقط هذا ما عليك فعله، إنها رفاهية المكتبات الرقمية!! التي تتيح الملايين من الكتب من جميع انحاء العالم، كما توفر العديد من التسجيلات الصوتية، وما سيبهرك حقا انك ستحصل على كل هذا بالمجان!! نذكر بعضها هنا:

- **المكتبة الاسلامية الالكترونية الشاملة:** يقدم موقع المكتبة الإسلامية الإلكترونية الشاملة كتبا بعشرات اللغات، تغطي كثيرا من جوانب الإسلام والمسلمين والمعتقدات الأخرى، والقضايا المعاصرة المرتبطة بمناحي الحياة والبحث العلمي التي يهتم بها العالم، كما يتطلع موقع المكتبة الإسلامية الإلكترونية الشاملة إلى أن يكون مصدراً شاملا للكتب التي تتعلق بالإسلام والمسلمين والأديان الأخرى، باللغات المختلفة مع إتاحة تحميل هذه الكتب مجانا.



الشكل(6): واجهة موقع المكتبة الاسلامية الالكترونية الشاملة

– **مكتبة صيد الفوائد:** تعتبر اضخم مكتبة شاملة تحتوي علـى العديـد مـن الاقسام كالمكتبة الصوتية، التي تحـوي الاسـطوانات، الفيـديوهات، الفلاشـات، القصص والعروض الدعوية وغيرها كثير كما تحوي أيضا البـرامج والمواقـع وكتب التفاسير، التراجم، السنة والحديث يتجاوز عدد كتبها 7400 كتاب.



الشكل(7): واجهة موقع مكتبة صيد الفوائد

3/المصاحف الالكترونية: لقد ظل المصحف الورقي سائدا لزمن طويل، إلا أنه مع بزوغ شمس الكتاب الالكتروني أصبح المصحف الالكتروني رائجا، سواء كان مدمجا على اقراص أم مخزنا في بطاقات الذاكرة، على الحواسيب أم الهواتـف أم اللوحات الإلكترونية، حيث تتميز هذه المصاحف بسهولة تحميلها علـى أي جهـاز عن طريق شبكة الانترنيت مجانا، سهولة الوصول إلى محتوياته وتصـفحه بكـل سهولة، توالت مجهودات تحسين المصاحف الالكترونية وتـدعيمها بالعديـد مـن الإضافات، كخاصية الخط العثماني وتحليتها بأجمل الأقواس، والألوان، وإمكانيـة النشر والطبع والتحميل والتفسير والترجمة، من بين هذه المصاحف نجد مصـحف المدينة المنورة الذي أصبح على شكل برنامج حاسوبي.

أ- مصحف المدينة المنورة:

صمم هذا المصحف الإلكتروني على يد مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، يحتوي هذا المصحف على العديد من الإضافات والأيقونات من بينها:

- امكانية إضافة النص القرآني إلى الوثائق وملفات النصوص مع احتفاظها بخصائص وتنسيقات الرسم العثماني الجميل.
- امكانية البحث عن كلمة أو أكثر من نص القرآن إذ تستعرض مختلف المواضيع التي جاءت فيها الكلمة أو الجملة.
- امكانية نشر وطباعة المصحف كاملا.

ب-**المصحف الالكتروني لجامعة الملك سعود:** هو عبارة عن مشروع ضخم عبارة عن مصحف الكتروني يحتوي على تلاوات للقرآن الكريم للعديد من المشايخ الكبار كما يتيح ترجمة لمعاني القرآن لأكثر من عشرين لغة مكتوبة وصوتية، والأكثر من ذلك مدعم بتفسير كل هذا التنوع في برنامج واحد، يسهل على المستخدم التنقل بين نوافذه بسهولة كما يوضح الشكل التالي:



الشكل(8): واجهة المصحف الالكتروني جامعة الملك سعود

يوفر البرنامج واجهة سهلة الاستخدام مدعمة بالعديد من الايقونات، التي تسمح بالدخول لجميع النوافذ كالتفسير والتلاوة والترجمة، كما يمكن المستخدم من التحميل المجاني والطباعة والمشاركة.

4/ المواقع الالكترونية: هناك العديد من المواقع الالكترونية التي تعنى بخدمة القرآن الكريم، مما يعكس مواكبة المستجدات التكنولوجية وتطور التوظيف الخدماتي للأنترنيت في هذا المجال، اذ نجد العديد من المواقع الالكترونية عبر شبكة الأنترنيت، تختص بنشر كل ما يتعلق بالعقيدة الاسلامية من القرآن والسنة النبوية، منها مواقع خاصة بمؤسسات تعليمية ومنها مواقع خاصة بالمشايخ والقراء حيث تتيح هذه المواقع مجموعة من المواد النصية والصوتية والبرامج ومختلف التقانات الحديثة، إذ نجد مواقع تختص بالقراءات والتجويد وبعضها يختص بالفتوى، وأخرى تختص بعرض مختلف البرامج الحاسوبية للتنزيل، معظمها مجاني التحميل ومواقع اخرى للتفسير والترجمة، نذكر بعض المواقع الالكترونية ذات الأهمية والقدرة التفاعلية من قبل المستخدمين:

- **موقع شبكة الاسلام ويب:** وهو موقع شامل يعرض جل المواد القرآنية مثل الصوتيات القرآنية، علم القراءات، التجويد، التفسير، كما يحظى هذا الموقع بإقبال كبير جدا من قبل المهتمين والباحثين.

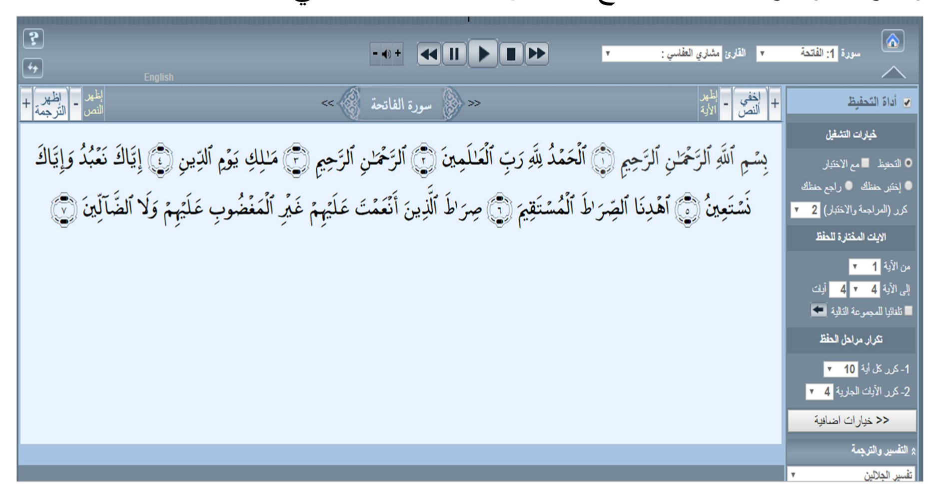
- **موقع الدرر السنية:** يشتمل على موسوعة رائدة في مجال تفسير القرآن إذ تقدم أهم كتب التفسير المختصرة والميسرة.

- **موقع تحفيظ:** هذا الموقع خاص فقط بتحفيظ القرآن الكريم.

- **معهد القراءات القرآنية عبر النت:** هو موقع تعليمي يقدم دروس عبر الانترنيت.

5/ البرامج الحاسوبية: تساعد البرامج الحاسوبية في العملية التعليمية للقرآن الكريم، من تجويد وتحفيظ وتفسير وترجمة وبالتالي يتفاعل المتعلم بشكل كبير مع البرامج الحاسوبية، وما تتيحه من وسائط رقمية تراعي فيها الصوت والصورة والنص نذكر هنا بعض هذه البرامج[3]:

برنامج حفظ القرآن الكريم: هو برنامج فريد من نوعه لتحفيظ القرآن الكريم، يجعل الحفظ سهلا وفعالا للكبار والصغار كونه يستند على الطرق الأكثر فعالية لتحفيظ القرآن الكريم، حيث يقوم بعرض قائمة للآيات ووضع فواصل بينها حتى تستطيع تكرار تلاوة الآية، كما أنه يقوم بعرض الآيات والسور المحفوظة بطريقة مرتبة ومنظمة، وباستطاعتك الاستماع إلى تلاوة القرآن الكريم بصوت العديد من القراء كما يتوفر على نصوص القرآن الكريم مكتوبة بالخط العثماني، مدعم كذلك بأيقونة للتفسير والتطبيق متوفر على ترجمة صوتية باللغات العربية والانجليزية والاردية والفرنسية كما يتضح ذلك من خلال الشكل التالي:



الشكل(9): صورة واجهة برنامج تحفيظ القرآن الكريم

ويتوفر هذا البرنامج على الميزات التالية:

- القدرة على تكرار، الآيات، ومجموعة من الآيات، والآيات الجاري حفظها
- يتم إخفاء النص بعد تكرار الآية للمساعدة في عملية التحفيظ.
- سهل وبسيط؛ اختر السورة والآيات للحفظ ثم اضغط على زر التشغيل.

برامج ترجمة القرآن: إن الانفتاح الحضاري الحاصل بين شعوب العالم، ألــح على ضرورة إيجاد وسائل ناجعة ومتطورة للتواصل وإلغاء إشكالية فهــم الأخــر، وقد ساعدت التقانات والتكنولوجيات المستحدثة على ظهور العديــد مــن البــرامج والأنظمة الحاسوبية التي تسهل عملية الترجمة لجميع اللغات، وقد استثمر الباحثون المسلمون هذه التقانات الحديثة، من ترجمة المصحف الكريم إلى جميــع لغــات العالم، لذا نجد العديد من تطبيقات ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغــات كثيــرة هي: الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والهولندية والإيطاليــة والروســية والفارسية والصينية واليابانية والكورية والماليزية والإندونيسية والتركية والأرديــة والبنغالية، الهندية، المالايالامية وغيرها الكثير.



الشكل(10): واجهة برنامج ترجمة معاني القرآن الكريم لجميع لغات العالم

برامج تجويد القرآن: الكل يعلم اهمية علم التجويد لضبط سلامة النطق، وصحته والدربة على النطق الصحيح والاعتياد عليه ومعالجة مختلف العيوب النطقية، تعد البرامج الحاسوبية من أحدث الوسائل التعليمية التي تنمي مهارات التجويد والتلاوة، تتسم البرامج الحاسوبية للتجويد والترتيل بالمرونة، إذ تسمح للطالب التنقل بين عناصر المادة التعليمية المبرمجة بسهولة، كما يستطيع المتعلم الاطلاع على مختلف احكام التجويد قراءة وسماعا، وذلك ان هذه البرامج مدعمة بنصوص تعرض مختلف احكام التجويد، بالإضافة الى عرض امثلة لمجموعة من القراءات للعديد من القراء كل ذلك يعرض على شاشة رقمية جد مبسطة، تحوي مجموعة من الايقونات التي تعرض مجموعة من التعليمات التي ما على المتعلم سوى اتباعها.

إن الوسائط الرقمية التي تحتوي عليها هذه البرامج، تساعد بشكل كبير في تعزيز رغبة المتعلم على الاطلاع أكثر على ما تحتويه من نوافذ، ومن بين هذه الوسائط: الصوت، الصورة، اللون، السرعة، الانتقال من شاشة إلى أخرى بسهولة، بالإضافة إلى العرض الجيد للمادة العلمية، إذ أن البرنامج يقدم المعلومات بشكل مرتب ومتسلسل، يعرض تحت كل باب الامثلة والتدريبات صوتا وصورة[4].



الشكل(11): صورة لواجهة برنامج أحكام التجويد

من خلال هذه الدراسة قدمنا القليل فقط من المشاريع الحاسوبية في مجال الدراسات القرآنية، اذ ان هناك كما هائلا من البحوث التي لا حصر لها ناهيك عن البرامج الحاسوبية والمواقع الالكترونية والمكتبات الرقمية، والتي توفر خدمات تعليم القرآن والعلوم الشرعية ومعظمها يتاح للمستخدم مجانا، هذا مما يدل على

تطور مجال الدراسات القرآنية ومواكبتها للتقانـــات الحديثـــة وبراعـــة البـــاحثين المسلمين الذين أسهموا في خدمة القرآن الكريم.

الاحالات:

(1) محمد زكي خضر، تفسير القرآن الكريم بمساعدة الحاسوب، الجامعة الأردنية، ص3.

(2) عبد الرحمان عثمان، متعب فرحان ، مسح للبحوث والبرامج الحاسوبية التي تستخدم في تعليم القرآن وعلومه، جامعة الجوف، المملكة العربية السعودية، https://www.researchgate.net/publication/306960117

(3) أمين الشنقيطي، تحفيظ القرآن الكريم بالتكرار عبر التقنية، مجمع الملك فهط لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، ص 3.

(4) محمد بن سعد الغديري، فعالية استخدام البرمجة الحاسوبية في حفظ القرآن الكـــريم، مـــذكرة ماجستير، قسم المناهج وطرق التدريس، المملكة العربية السعودية، 1428هـــ، ص 77.

القرآنُ الكريم وأثره
في نشأة النَّحو العربي وتطوُّره

د. محمد يزيد سالم
جامعة باتنة1

مهاد: لا يخفى على أهل التَّدقيق والتَّحقيق أنَّ اللُّغة العربية ارتبطت بالقرآن الكريم ارتباط الرُّوح بالجسد، ولذلك فإنَّ كلَّ الدِّراسات اللُّغوية والنَّحويَّة جاءت لأجل هدف واحد هو حفظ اللُّغة العربية من الخطأ والزَّلل، وقد اعتبرت العلوم اللُّغوية- وعلى رأسها علم النَّحو العربي- من العلوم الخادمة لكتاب الله تعالى، فقد نشأ النَّحو العربي لهدف جليل ونبيل يتمثَّل في فهم القرآن الكريم والمحافظة على سلامتِه، خصوصًا بعد اختلاط العرب بالأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجًا ففشا اللَّحن على ألسنة كثير منهم. وغايتنا من هذا البحث هو مُحاولة بيان ذلك التَّلازم الضروري بين النَّحو العربي والقرآن الكريم- باعتباره يمثِّل كتاب العربية الأكبر- حتى إنَّه ليعسُر علينا فصل أحدهما عن الآخر في النَّشأة والتَّاريخ والتَّكوين والتَّأليف والدَّوافع والغايات، حتى صار بينهما تزاوُجٌ مكين وتمازجٌ متين، ولا يتحقق فهم صحيح للقرآن إلاَّ بتحقق فهم صحيح للنَّحو العربي، وهذا ما سنقف عليه في بحثنا هذا.

1- مفهوم النَّحو:

أ- **لغةً**: النَّحو في اللُّغة:" هو القصد والتَّوجُه والطَّريق أو السبيل"، قال "الزَّمخشري"(ت538هـ): «نَحْو: هُوَ عَلَى أَنْحَاءٍ شَتَّى: لاَ يَثْبُتُ عَلَى نَحْوٍ وَاحِدٍ،

وَنَحَوْتُ نَحْوَهُ، وَعِنْدَهُ نَحْوٌ مِنْ مَائَةَ رَجُلٍ. وَإِنَّكُمْ لَتَنْظُرُونَ فِي نُحُوٍ كَثِيرَةٍ، وَفُلَانٌ نَحْوِيٌّ مِنَ النُّحَاةِ، وَانتَحَاهُ: قَصَدَهُ»[1].

وجاء في "لسان العرب" لابن منظور(ت711هـ) قوله: «النَّحْوُ: إِعْرَابُ الكَلاَمِ العَرَبِي، وَالنَّحْوُ: القَصْدُ وَالطَّرِيقُ، يَكُونُ ظَرْفًا ويَكُونُ اسْمًا، نَحَاهُ يَنْحُوهُ ويَنحَاهُ نحوًا وانتحَاهُ ونَحْوُ العَرَبِيَةِ مِنْهُ،[...] وَهُوَ فِي الأَصْلِ مَصْدرٌ شَائِعٌ؛ أَيْ: نَحَوْتُ نَحْوًا كَقَولِكَ: قَصَدْتُ قَصْدًا[...] وَفِي بَعْضِ كَلاَمِ العَرَبِ: إِنَّكُمْ لَتَنْظُرُونَ فِي نُحُوٍّ كثيرةٍ؛ أَيْ فِي ضُرُوبٍ مِنَ النَّحْوِ، ونَحَا الشَّيءَ يَنحاهُ وينحُوهُ إِذَا حَرَّفَهُ، ومِنْهُ سُمِّيَ النَّحويُّ؛ لأَنَّه يُحَرِّفُ الكَلَامَ إِلى وُجُوهِ الإِعْرَابِ»[2].

ب- اصطلاحًا: أورد "ابن جني"(ت392ه) تعريفًا للنَّحو مفاده أنَّه: «إنتحاءُ سمت كلام العرب في تصرُّفِه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والاضافة، والنسب، والتَّركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللُّغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم؛ وإن شذَّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها»[3].

والذي يبدو من هذا التعريف هو أنَّ النَّحو في منظور "ابن جنِّي" يهتم بدراسة الكلمات في كلِّ أحوالها، سواءً وهي مفردة؛ أي لم تدخل في تركيب آخر، أم بعد دخولها في جملة أخرى.

وعرَّفه "ابن فرخان" (ت 548هـ) صاحب كتاب (المستوفى في النَّحو) بقوله: «النَّحو صناعة علميَّة ينر بها صاحبُها في ألفاظ العرب من جهة ما تتألَّف بحسب استعمالهم، ليعرف النسبة بين صيغة النَّظم وصورة المعنى فيتوصَّل بإحداهما إلى الأخرى»[4].

حملاً على هذا المفهوم، فإنَّ النَّحو هو العلم الذي يبحث عن الألفاظ بالنَّظر إلى هيئاتِها التَّركيبيَّة، وتأديتِها للمعاني الأصليَّة التي جيئت من أجلها، وبناءً عليه فإنَّ أيَّ باحثٍ في علم النَّحو سيتعاون -دون شكٍ- مع الباحث في علم المعاني، حيث

إنَّ كلاً منهما يبحث في المركبات إلاَّ أنَّ الفارق بينهما هـو أنَّ «النَّحـوي يبحـثُ عنها- أي المركبات- من جهة هيئاتها التّركيبيَّة صحةً وفسادًا، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوصفيَّة على وجه السداد، وصاحب المعاني يبحث عنها مـن جهـة حسن النَّظم المعبَّر عنه بالفصاحة في التَّركيب، وقبحه، ومرجع ذلك الفصاحة إلـى الخُلوِ من التَّعقيد، فيما يبحث عنه في علم النَّحو من جهة الصحة والفساد، ويبحـث عنه في علم المعاني من جهة الحسن والقبح، وهذا معنى كون علم المعـاني تمـام علم النَّحو»[5].

وعرَّف الأشموني (ت929هـ) النَّحو في شرحه لألفية ابن مالك، بقولـه:« هـو العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصِّلة إلى معرفـة أحكام أجزائِه التي ائتلف منها، والمراد به هنا ما يرادف قولنا علم العربيـة لا قسـيم الصَّرف، وهو مصدر أُريدَ به اسم المفعول؛ أي المنحو كالخلق بمعنى المخلوق»[6].

وذهب البعض إلى أنَّ المقصود بالنَّحو هو ذلك العلم الذي يعرف به التركيـب العربي من حيثُ الصحة والخطأ، فهو «عبارة عن العلم بأحكـام مسـتنبطة مـن استقراء كلام العرب: أعني أحكام الكلم في ذواتِها، أو فيما يعرض لها بالتَّركيـب لتأدية أصل المعاني: من الكيفيَّة، والتقديم، والتأخير، ليحترز بذلك عن الخطأ فـي فهم معاني كلامهم، وفي الحدو عليه»[7].

وعرَّف الشيخ "مصطفى غلاييني" -وهو من المحدثين- النَّحو بقولـه: «علـم بأصولٍ تعرف بها أحوال الكلمات العربيَّة من حيث الإعراب والبناء؛ أي من حيث ما يعرض لها في حال تركيبها، فبه نعرف ما يجب عليه أن يكون آخر الكلمة من رفعٍ، أو جرٍ، أو جزمٍ، أو لزومِ حالةٍ واحدةٍ، بعد انتظامهـا فـي الجملـة، وكـان الصرف قديمًا جزءًا من علم النَّحو، وكان يعرف النَّحو بأنَّه علمٌ تُعرف به أحـوال الكلمات العربية مفردة ومركَّبة»[8].

2- العامل الدِّيني ودوره في نشأة علم النَّحو: بعد أن انتشر العرب في الأقطار التي دخلها الدين الإسلامي خصوصًا بلاد الشَّام والعراق وبلاد الفرس، وانتهت عزلتهم بلغتهم التي كانت منحصرة في بلاد الحجاز، شاركهم في التَّكلُّم بها شعوبٌ أخرى مسلمة، واختلط العرب بالأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، وأصبحوا إخوةً في الدِّين والملَّة، يتلون كتابًا واحدًا بلسانٍ عربي مبين، بعدا هذا فشا اللَّحن في اللُّغة العربية وفسدت السليقة العربية، ممَّا دعا علماء العربية الغيورين على دينهم ولغتهم إلى ابتكار علم يقيم الألسنة ويصلحها سموه" علم النَّحو"، فقد كان «من الماسة أن يفهم هذا العدد الغفير من الدَّاخلين حديثًا في الإسلام، والناشئين في بيئاتٍ لا تتكلَّم العربية، كلام الله فهمًا كاملاً، أن يُحسن أداءه في الصلاة المفروضة، ليس هذا فقط، بل لقد كان من الضَّرورة الماسة أن تمهد السبيل أمام هؤلاء الأعاجم إلى امتلاك ناصية الدقائق المعنونة في العربية، والتَّضلُّع من متنها الزاخر بالمفردات[...]»(9).

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية -وعلى رأسها علم النَّحو- في العصور الإسلامية، لوجدنا أنَّها نشأت لخدمة النَّص القرآني أو تفرعت عن نصوصه إذ أنَّ القرآن الكريم كان بمثابة المركز الرئيسي الذي تجنّدت لأجله كلُّ المعارف العربية، ولألفينا أيضًا كلَّ العلوم العربية الخالصة محيطةً به، ولم يكن علم النَّحو في الواقع سوى حلقة مهمَّة من سلسلة تلك العلوم التي جاءت لكي تخدم القرآن الكريم، وتُحافِظ على نُصوصِه(10).

وممَّا يؤكِّد أنَّ فشو اللَّحن في القرآن الكريم كان السبب الرئيس لوضع قواعد النَّحو العربي ما جاء على لسان" ابن خلدون" (ت808هـ) في مقدمته، حيث قال: «لما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدُّول، وخالطوا العجم، تغيَّرت تلك الملكة بما أَلقى إليها السَّمع من المخالفات التي

للمتعربين، والسمع أبُو الملكات اللِّسانيَّة، ففسدت بما ألقـى إليهـا ممَّـا يُغايُرهـا لجنوحِها إليه باعتياد السَّمع، وحشى أهل الحُلوم(*) منهم أن تفسد تلك الملاكة، رأسًا ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطُوا من مجاري كلامهـم قوانين لتلك الملكة مطَّردة شبه الكلِّيات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكـلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه مثل أنَّ الفاعل مرفوع والمفعول منصوب، والمبتـدأ مرفوع، ثمَّ رأوا تغيُّر الدَّلالة بتغيُّر حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسـميتِه إعرابًا وتسميَّة المُوجب لذلك التَّغيُّر عاملاً وأمثال ذلك، وصارت كلُّها اصطلاحات حاصة بهم، فقيَّدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة، واصـطلحوا علـى تسميتها علم النَّحو»[12].

ومن الطبيعي أن نشأة النَّحو العربي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالقرآن الكريم، يقول الباحث" عبد العال سالم مكرم": «ونشأة النَّحو العربي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالقرآن الكريم، ولولا القرآن لما نشأ هذا العلم الذي تمت له السيطرة فيما بعد على كلِّ علم من علوم العربية وآدابِها»[13]؛ لأنَّه عنصر مهم في لغة القرآن التي ينـاط البنـاء العقدي والتَّشريعي للمجتمع الإسلامي بالضبط الكامل لمبانيها ومعانيها حفاظًا على سلامة معطياتِها ودقتها «ذلك أنَّ القرآن الكريم –وهو محور العقيدة الذي تدور معه قممها ومبادئها وأخلاقها والذي بطلب من كلِّ مسلم أن يحفظ منه قدرًا يتيح له القيام بفروض الإسلام، وفي طليعتها الصلاة– قد أسهم في تكوين مجموعة من الظروف عقب الفتح الإسلامي للأمصار المختلفة، وهي ظروف نـتج عـن تفاعلهـا معًـا ضرورة التَّفكير في وضع قواعد للُّغة لتيسير تعلمها للأجنـاس التـي فتحهـا الله للمسلمين وأقبلت على الإسلام»[14].

بناءً عليه فالنَّحو وُضع لعلاج حالةٍ عامَّة، وداء استشرى حفظـت لنـا بعـض النَّماذج التي كانت لها صلة بواضع النَّحو أو الدَّاعي إلى وضعه، أو ما تعلَّق منهـا

بموضوعٍ له دلالته ووضعه الخاص، وهذا الأخير أكثر جريانًا ودورانًا مع قصة نشأة النَّحو العربي باعتباره سببًا مباشرًا لها، وذلك هو قراءة الأعرابي لقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾[التوبة، الآية:03]. بكسر اللاَّم في قوله: "وَرَسُولِهِ" وما يؤدِّي إليه هذا اللَّحن من فسادٍ في المعنى، إذ يجعل الله سبحانه وتعالى بريئًا من رسولِه كما هو بريء من المشركين –تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا– فيمتاز هذا النَّموذج بكونه آية قرآنية، لها أشباهٌ، قال" القرطبي" (ت671هـ): « وعن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابيٌّ في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من يُقرئني ممَّا أُنزل على محمد ﷺ؟ قال: فأقرأه رجلٌ "براءة"، فقال: "أَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ" بالجرّ، فقال الأعرابيُّ: أَوَقَدْ بَرِئَ الله من رسولِه؟ فإن يكن الله برِئ من رسوله، فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابيِّ، فدعاه، فقال: يا أعرابيُّ، أتبرأُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلَّم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألتُ: من يقرئني؟ فأقرأنِي هذا سورة براءة، فقال: "أَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ"، فقلتُ: أوقد برِئ الله من رسولِه؟ إن يكن الله برِئ من رسُولِه، فأنا أبرأُ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابيُّ، قال: فكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: "أَنَّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ"، فقال الأعرابيُّ: وأنا والله أبرأُ ممَّا برئ الله ورسولُه منه، فأمرَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألاَّ يُقرئ النَّاس إلاَّ عالمٌ باللُّغة، وأمر أبَا الأسود، فوضع النَّحو»[15].

فاللَّحن الواقع في قراءة هذه الآية، خطأ نحوي، إذ يُغيِّر المعنى تغييرًا جذريًا لا يحتمل الغفران، وهو ما جعل أمير المؤمنين عمر يحصر قُراء القرآن ومفسِّريه في علماء اللُّغة، لئلاَ تتغيَّر كلمات القرآن تركيبًا بالزِّيادة أو النقصان، أو بالإعراب، وذلك باستبدال حركات أواخر الكلم، والتَّغيير تركيبًا أو إعرابًا تتحول به المعاني

القرآني، وتتَّجه آيات الله تعالى إلى معانٍ أخرى، ومن أجل الحفاظ علـــى القـــرآن الكريم ولغته وبقائها نقية صحيحةً، أمر عمر –رضـــي الله عنـــه– أبـــا الأســـود الدؤلي(ت69هـــ) بوضع النَّحو.

لكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه بقوَّة هو إن صحَّت هذه الرِّواية التي تنسب أمـــر وضع النَّحو إلى عمر بن الخطاب، لماذا لحن القراء في هذه الآية فحسب؟، ولماذا كرَّروها في مواضعٍ كثيرة، ولم يذكروها في غيرها؟ ثمَّ أولم يكن في القرآن الكريم غير هذه الآية التي يُمكن للقارئ أن يلحن فيه، كما جاء في قولـــه تعـــالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر، الآية:28]. وغيرها من الآيات التي تتغيَّر فيها رتبة الكلمات؛ تقديمًا وتأخيرًا؛ فيلحق بها خلط في الإعراب؟ أم إنَّ الفصحاء مـــن العرب والمدافعين منهم عن اللُّغة العربية اكتفُوا بهذه الآية وجعلوها مثـــالاً للحـــن الواقع في القرآن الكريم[16].

وقد استوجب اللَّحن الواقع في القرآن الكريم اســـتنهاض الهمـــم، ودعَـــا إلـــى الاستنكار وهناك بعض المواقف الأخرى التي استنكر فيها الأعراب لحنًا سُمع فـــي بعض حروف القرآن الكريم، فقد رُوي أنَّ أعرابيًّا سمع إمامًا يقـــرأ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة، الآية:221] بفتح التَّاء في" تَنْكَحُوا"، قـــال ابـــن جابان: «ولا إن آمنوا أيضًا لا ننكحهم، فقيل له: إنَّه يلحن، وليس هذا يقرأ، فقـــال: أخروه، قبَّحه الله، ولا تجعلوه إمامًا؛ فإنَّه يُحل ما حرَّم اللهُ»[17].

وممَّا جُعل سببًا مباشرًا لوضع علم النَّحو اللَّحن الذي وقع في قراءة قوله تعالى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾ [الحاقة:الآية37] بنصب "خَاطِئِينَ"، قـــال ابـــن الأنبـــاري (ت577هــ): «وروي أنَّ سبب وضع على –رضي الله عنـــه– لهـــذا العلـــم –أي النَّحو– أنَّه سمع أعرابيًّا يقرأ: لا يأكلُه إلاَّ الخاطئين فوضع النَّحو»[18].

وما يؤكِّد أنَّ سبب نشوء النَّحو العربي هو اللَّحن الذي وقع في قراءة القرآن ما جاء على لسان "الزبيدي"(ت379هـــ) في قوله: «ولم تزل العــرب تنطــق علـــى سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها؛ حتى أظهر الله الإسلام علـــى ســـائر الأديان، فدخل النَّاس فيه أفواجًا، وأقبلوا إليه أرســـالاً، واجتمعــت فيــه الألســـنة المتفرِّقة، واللُّغات المختلفة، ففشا الفساد في اللُّغة، واستبان منه في الإعراب الـــذي هو حليُّها، والمُوضِّح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوءُ أفهام النَّاطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغلبتِه؛ حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أنْ ســـبَّبُوا الأســـباب فـــي تقييدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه»[19].

كما أورد" السيرافي"(ت385هـــ) روايةً مفادُها: أنَّ زيادًا بن أبيه(ت53هـــ) بعث إلى أبي الأسود الدؤلي قائلاً: «اعمل شيئًا تكون فيه إمامًا ينتفع النَّاس به، وتعرب به كتاب الله، فاستعفاه من ذلك، حتى سمع أبو الأسود قارئًا يقرأُ: "أَنَّ الله بَـــرِيءٌ مِـــنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ"، فقال: ما كنتُ أظنُّ أنَّ أمر النَّاس صار إلى هذا، فرجـــع إلـــى زياد فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير فل يبغني كاتبًا لَقِنًا يفعل ما أقول، فأتى بكاتـــبٍ من عبد القيس، فلم يرضه، فأتى بآخر –قال أبو العباس: أحسبه منهم– فقال لـــه أبـــو الأسود: إذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحروف فانقط نقطة فوقـــه علـــى أعـــلاه، فـــإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئًا من ذلك غنَّة فاجعل مكان النقطة نقطتين، فهذا أبي الأسود»[20].

انطلاقًا من هذه الرِّوايات يُمكن الاطمئنان إلى القول: «إنَّ القرآن الكريم كـــان السبب الأكبر في نشأة النَّحو، وإن هذه النَّشأة كانت في رحابِـــه، وإنَّ اللَّحـــن فـــي قراءته كان هو اللافِت للنَّظر والدَّاعي لتقنين كلام العرب بما يحفظ علـــيهم لغـــتهم فصيحة سليمة من الاضمحلال والذهاب»[21].

وهكذا نجد الروايات التي ذكرها العلماء القدماء –وبعض المحدثين– تعلِّل نشأة النَّحو العربي وترجعها إلى العامل الديني، ممثلاً في القرآن الكريم، إلاَّ أنَّ المشكلة لم تنتهِ بعد، فقد بقي اللَّحن منتشرًا وشائعًا بين النَّاس وحتى بين العلماء أنفسهم، فقد روى محبُوب البصري عن خالد الحذاء قوله: «سألتُ نصر ابن عاصم عن قراءة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص،الآية:01] كيف نقرؤها؟ قال: "قل هو الله أَحدُ، اللهُ الصمدُ" لم ينون، قال: فأخبرتُه أنَّ عروة ينوِّن، فقال: بئسما قال، وهو للبئس أهل، قال: فأخبرت عبد الله بن إسحاق بقول نصر بن عاصم فمازال يقرأ حتى مات»[22].

يبدو من هذه الرواية أنَّ" نصر بن عاصم" و"عبد الله بن أبي إسحاق "ت (117هـ) قد جانبا الصواب حينما ذهبا إلى القراءة بدون تنوين، والصحيح هو ما ذهب إليه عروة، وقراءته هي القراءة الصحيحة لدى الأمصار، ويعضد هذا الرأي ما ذكره الطبري (ت310هـ) في قوله: «الصواب في ذلك عندنا: التنوين لمعنيين: أحدهما أفصح اللغتين وأشهر الكلامين، وأجودهما عند العرب، والثاني: إجماع الحجة من قراء الأمصار على اختيار التنوين فيه»[23].

ولا غرابة في أنَّ النَّحو العربي ارتبط في نشأتِه بالقرآن الكريم، فقد عرف عن النَّحو الهندي –مثلاً– أنَّه نشأ لخدمة (الفيدا)[*]، وأنَّه اكتسب قداسته ومكانته من الدِّين، وتذكر الأخبار قولهم: «إنَّ الماء هو أقدس شيء على الأرض، والكتب المقدَّسة أكثر قداسة من الماء، ولكنَّ النَّحو أكثر قداسةً حتى من الكتب المقدَّسة»[24].

وهكذا يبدو أنَّ علم النَّحو انطلق من منطلق قرآني والذي وضع أوَّل لبنة فيه ما كان ليخطر بباله أنَّه يؤسِّس لعلم سيصبح له خطره وشأنه في الثقافة العربية الإسلاميَّة، ولم يدرِ بخلده وهو يضع تلك الإشارات على أواخر الكلمات القرآنية أنَّه قد أعرب المصحف–على ما تعارفت الأجيال من بعده– وقد نظر مؤسسوا النَّحو

إلى الإعراب بمعناه الواسع المتضمِّن للإبانة، أو قل طريق العرب فـــي التعبيـــر، فحرصوا على تمكين إخوانهم المستعربين من تلك الآلة وبالأخص عند قراءة كتاب الله الكريم، ولم ينظروا إلى إكساب غير العربي فصاحة العربي وبلاغته، ولكـــنَّهم أخذوا على عاتقهم وضع علامات يهتدي بها غير العربي فينطق الحرف صـــحيحًا كما ينطقه العرب، ليحموا الناس من الوُقوع في شيء من اللَّحن في كتـــاب الله، أو قل كتاب الله من اللاَّحنين[25].

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنَّ علم النَّحو لم ينفصل عن القرآن الكـــريم إلاَّ بعد مرور زمن ليس بقصير تخللته عناية العلمـــاء بجمـــع اللُّغـــة، ومشـــافهة الأعراب في أماكن الفصاحة، ورصد الظواهر اللُّغوية لاستخراج القواعد المبنيَّـــة على الاطِّراد والانسجام، ثمَّ معرفة كثير من خصائص اللَّهجات العربية المختلفـــة، وهكذا بدأ علم العربية يتَّصل بروافد أخرى غير القـــرآن الكـــريم، إذ اتَّجـــه علـــم العربية إلى الشعر والموروث اللُّغوي عند القبائل الموثُوقِ بفصـــاحتها، والمشـــهود بخلو لغتها من شوائب العجمة ومخالطة الأمم الأخرى، وفي هذا الخضم الكبير من اهتمام العرب والمستعربين بجمع اللُّغة من مصادرها الصَّـــافية وســـلائق القبائـــل العربية أخذ علم النَّحو يتكوَّن، وأخذت مصطلحاتُه تظهر، وقواعده ترتسم، ليصـــبح علمًا له كيانه الخاص وقوانينه التي تحكمه ورجاله الذين ينتسبون إليه[26].

3- أهميَّة علم النَّحو في دراسة النَّص القرآني وفهم معانيه: لعلَّه مـــن نافلـــة القول أن نورد هذا الخبر الطريف الذي أورده" ابن خلكان"(ت681هـــــ) في بيـــان فضل علم النَّحو، قال: «قال أبو بكر بن مجاهد المقرئ(ت342هـــــ): قـــال لـــي ثعلب: يا أبَا بكر اشتغلَ أصحابُ القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أصحاب الحـــديث بالحديث ففازوا، واشتغل أصحاب الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيدٍ وعمـــرو، فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة؟ فانصرفت من عنده، فرأيتُ النبي صـــلى

الله عليه وسلم تلك اللَّيلة في المنام، فقال لي: أقرئ أبا العباس عنِّي السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل[27]. قال أبو عبد الله الرُوذَبَارِي العبد الصالح: أراد أنَّ الكلام به يُكمل، والخطاب به يُجمل، وأنَّ جميع العلوم مفتقرة إليه»[28].

وروي عن الحسن البصري(ت110هـ)–وهو أحد التابعين– أنَّه قال: «من لحن في القرآن فقد كذب على الله»[29].

كما روي عن بعض الفقهاء قولهم: «من لحن في القرآن فقد كفر»[30]؛ لأنَّ قارئًا لو قرأ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:الأية:07]، بضمِّ التَّاء في (أنعمتُ) –لكان ظاهر كلامه. وكذلك، فلو قرأ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ٤﴾ [الإخلاص: الآية:04]، برفع (كُفُوٌ)، ونصب (أَحَدًا)– لكان قد أثبت كفوًا لله تعالى.

ونتيجة لأهميَّة النَّحو فقد حرص النَّاس–عرب وأعاجم– على الظَّفر بتعلُّمه؛ من أجل تقويم ألسنتهم من خلال امتلاك ناصية قوانينه وأحكامِه إدراكًا منهم، بأنَّ تعلمه –كما يقول أبو أيُّوب السختياني–: «جمالٌ للوضيع، وتركه هجنةٌ على الشريف»[31]. كما أمرنا سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– بتعلُّم النَّحو العربي، فقال: «تعلَّموا النَحو، كما تَعلَّمُونَ السُّنن والفرائض»[32]. ورحم الله الكسائي (ت189هـ) الذي قال في وصف النَّحو وبيان فضله والحثِّ على تعلُّمه[33]:

إِنَّمَا النَّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعْ ... وَبِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَع
فَإِذَا مَا أَبْصَرَ النَّحْوَ الفَتَى ... مَرَّ فِي المَنْطِقِ مَرًّا فَاتَّسَع
فَاتَّقَاهُ كُلُّ مَنْ جَالَسَهُ ... مِنْ جَلِيسٍ نَاطِقٍ أَوْ مُسْتَمِعْ
إِذَا لَمْ يُبْصِرْ النَّحْوَ الفَتَى ... هَابَ أَنْ يَنْطِقَ جُبْنًا فَانْقَطَعْ
فَتَرَاهُ يَنْصِبُ الرَّفْعَ وَمَا ... كَانَ مِنْ نَصْبٍ وَمِنْ خَفْضٍ رَفَعْ
يَقْرَأُ القُرْآنَ لاَ يَعْرِفُ مَا ... صَرَّفَ الإِعْرَابُ فِيهِ وَصَنَعْ
وَالَّذِي يَعْرِفُهُ يَقْرَؤُهُ ... وَإِذَا شَكَّ فِي حَرْفٍ رَجَعْ

نَـــاظِرًا فِيـــهِ وَفِــي إِعْرَابِــهِ فَــإِذَا مَــا عَــرِفَ اللَّحْــنَ صَــدَعْ
فَهْمًــا فِيــهِ وَفِــي إِعْرَابِــهِ لَيْسَــتْ السُّــنَّةُ مِنَّــا كَالبِــدَع
كَــمْ وَضِــيعٍ رَفَــعَ النَّحــوُ، وكَــمْ مِــنْ شَــرِيفٍ قَــدْ رَأَيْنَــاهُ وَضَــعْ

كما تنبَّه الزَّجاجي(ت337هـــ) إلى الفائدة العظيمة التي يقدِّمها علم النَّحو، قال: «فإن قال قائلٌ: فما الفائدة في تعلُّم النَّحو، وأكثر النَّاس يتكلَّمون على سجيتهم بغير إعراب، ولا معرفة منهم به، فيَفهمون ويُفهِمون غيرهم مثل ذلك؟ فالجواب في ذلك أن يُقال له: الفائدة فيه الوصول إلى التَّكلُّم بكلام العرب على الحقيقة صوابًا غيــر مبدَّل ولا مغيَّر، وتقويم كتاب الله عزَّ وجلَّ الذي هو أصل الدِّين والدُّنيا والمعتمــد، ومعرفة أخبار النبي ﷺ، وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنَّه لا تفهم معانيهــا علــى صحَّة إلاَّ بتوفيتها حقوقها من الإعراب»[34].

كما بيَّن "ابن جنِّي" قيمته أيضًا -النَّحو- في بـــابٍ أفــرده مــن كتابــه القــيم "الخصائص" سمَّاه: (باب القول في الإعراب) قال فيه: «هو الإبانة عــن المعــاني بالألفاظ؛ ألا ترى أنَّك إذا سمعت أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدًا أبوه، علمت برفــع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرجا واحــدًا لاســتبهم أحدهما من صاحبِه»[35]. فالرَّفع هو الذي بيَّن الفاعل، ولولا العلامات الإعرابيــة الظاهرة على الآخر لما استطعنا تحديد أحدهما من صاحبه.

فالنَّحو نشأ -كما يرى الباحث عبده الراجحي-: «لفهم القرآن وفرقٌ كبيرٌ بــين علم يسعى لفهم النص وعلمٌ يسعى لحفظه من اللَّحن»[36]. ذلك أنَّ العلوم العربيــة -الإسلامية وعلى رأسها علم النَّحو نشأت لخدمة النص القرآني، كمــا أنَّ هنــاك فرقًا بين محاربة اللَّحن وإرادة الفهم، فلو كان المقصود هو محاربة اللَّحن لاقتصــر الأمر على كلِّ ما يُفيد في استنطاق النُّصوص واستظهارها وكذا معرفة ما تؤدِّيــه

في التَّاكيب القرآنية المختلفة على الوجه المخصوص، وذلك باعتبارها تمثل أعلى درجات البلاغة والبيان في العربية.

لقد كانت نشأة النَّحو -كما سبق وذكرنا- مرتبطة أشدَّ الارتباط بالقرآن العزيز، ومتصلاً به أوثق اتِّصال، حتى صار دور النَّحو مهمًا في بيان معاني مفردات القرآن الكريم، ومتفوقًا- في كثير من الأحايين- على دور اللُّغة في التأصيل والاشتقاق، يقول أحد الدَّارسين في بين فضل النَّحو قائلاً: «إذا كان التَّفسير القرآني سار في أوَّل أمره في طريق الرِّواية، واتبع منهجًا تخريجيًّا من المفسرين، فإنَّ النُّحاة كانوا من أوائل الدَّارسين الذين لفتُوا إلى الاعتماد على اللُّغة والتَّفسير، مادام القرآن نزل بهذه اللُّغة»(37).

كما تبيَّن للنُّحاة أنَّ« بمعرفته -أي النَّحو- يعقل عن الله عزَّ وجلَّ كتابه، وما استوعاه من حكمة، واستودعه من آياته المبينة، وحججه المُنيرة، وقرآنه الواضح، ومواضعه الشافية، وبه يفهم عن النبي ﷺ آثاره المؤدية لأمره ونهيه وشرائعه وسننه، وبه يتَّسع المرء في منطقه»(38).

ونتيجة لأهميَّة القرآن على علم النَّحو فقد «قامت على أساسِهِ قواعد وبُنيت على نهجِهِ أُصول سواء أكان ذلك معه شواهد أُخرى تُدعِّم هذه القواعد أم لم تكن، وسواءٌ أكانت هذه الأصول تتَّفق مع أُصول النُّحاة أم لا تتَّفق؛ وذلك لأنَّ القرآن الكريم أغنى قواعد النَّحو، وزاد من قيمتها، وأمدَّها بأمتن القواعد وأحسن الأساليب»(39). يضاف إلى ذلك أنَّ «النُّحاة أنفُسهم كانوا يؤمنون بهذا الاتِّجاه، ويعتقدون أنَّ الشعر دون القرآن في موطن الاستشهاد، وفي مجال بناء القاعدة»(40).

لقد كان خليقًا بمن وضعوا النَّحو، وأسَّسوا قواعده أن تكون المادة القرآنية أهم ما يقيمون عليه تلك القواعد، ويستندون إليه في وضعهم للنَّحو العربي؛ لأنَّ أسلوب

القرآن الكريم مبرأ من الضرورات والشواذ والشوارد التي حفل بها الشعر وامــتلأ بها غريب اللُّغة الذي استندوا إليه بلا اعتدال ولا قصد[41].

وقد أدَّى الثَّراء النَّحوي للنَّص القرآني بالعلماء إلى الاستفاضة في موضــوعات كثيرة، وأعملوا عقولهم في استنباط القواعد والأحكام فحدَّدوا الوظــائف النَّحويَّــة للأنماط التَّركيبيَّة المختلفة التي شهدها الارتقاء اللُّغوي، وتأكيد وُجوب وضع النَّحو العربي وتمحيصه ليصبح أداةً إيحائيَّة، من أجل تيسير أغــوار الخطــاب اللُّغــوي والأدبي معًا، وإخضاعه لسلطاء النِّظام اللُّغــوي الخــالي مــن التعقيــد والتَّمحــل والتعسف والشطط، ويُحقِّق صحَّة الصِّناعة النَّحويَّة اعتمادًا علــى لغــة الخطــاب القرآني في تحديد العلاقة القئمة بين أجزاء التَّركيب على أساس أنَّها وظائف يؤدِّيها كل مكوِّن بحسب ارتباطِه بما بعده وما قبله.

بناءً عليه فالنَّحو مهم في فهم لغة القرآن الكريم؛ لأنَّه يحدِّد الدّلالة والغاية مع مراعــاة الأحكام اللُّغويَّة العامَّة، وبذلك فهو يُمثِّل جانبًا مهمًا من العلوم الآلية والبينية فــي الإبانــة عن مقاصد الكلام على الصورة التي يقتضيها اللَّفظ من أجل الكشف عن المعنى، ويشكل جوهر الجودة للنص المدروس، ذلك أنَّ الالتزام به يعدُّ السبيل الذي يؤدِّي إلى الاســتمتاع والتَّدبر إذ إنَّه ظاهرة لغويَّة وصورة نطقيَّة تؤخذُ من قراءة القرآن، فالتَّراكيــب النَّحويَّــة مختلفة تؤدِّي معانٍ متباينة تتفق مع وجوه التَّفسير ودقَّة اللُّغة[42].

وقد اهتم العلماء بلغة القرآن لما فيها من إعجازٍ في تأصيلها، فهي تعطي النَّص تماسكًا وقوَّةً واتِّساقًا، وجدوا فيها وسيلةً لتوطين النِّظام اللُّغــوي خاصَّــةً التناســق المنطقي بين مستوياته، ومنها المستوى النَّحوي واللُّغوي اللَّذان يرِدان فــي الــنَّص لدوافعٍ سياقية بحتة وكذا للتنويع في أساليب التَّعبير، زاخرين بالمعــاني النفســية، ويحملان أسرارًا جمالية، إنَّهما من أعمق الظواهر اللُّغويَّة فــي الــنَّص القرآنــي

يؤدِّيان دورًا لغويًّا مميَّزًا، لهما تأثيرٌ واضحٌ في إسقاط الزيادة، وتحقيق الانسجام والاتِساق الذي يستريح له ذوق المستمع(43).

وتوسَّع شيخ النَّحويين والبلاغيين "عبد القاهر الجرجاني"(ت474هـ) في الإشادة بعلم النَّحو وبيان فضله ووظيفته ومعناه ودوره الرِّيادي، جاعلاً منه الوسيلة الأولى والأخيرة لفهم النَّظم القرآني البديع في ألفاظه ومعانيه، ورأى أنَّ دائرته –أي النَّحو– يجب أن تكون أوسع من البحث في الإعراب وضبط أواخر الكلم، وأنَّها يجب أن تتوسع لتشمل نظم الكلام، لذلك تحدَّث عن النَّظم، وأعظم من قدره، فقال:« اعلم أن ليس النَّظم إلاَّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النَّحو، وتعمل على قوانينه وأُصوله، وتعرف مناهجه التي نُهجت عليه فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرُّسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها»(44). وأضاف قائلاً: «فلستُ بواجدٍ شيئًا يرجع صوابُه إن كان صوابًا، وخطؤُه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلاَّ وهو معنى من معاني النَّحو قد أُصيب به موضعه[...] فلا ترى كلامًا قد وُصف بصحَّة نظمٍ أو فساده، أو وُصف بمزيَّةٍ وفضلٍ فيه، إلاَّ وأنت تجد مرجع تلك الصِّحة وذلك الفساد وتلك المزيَّة وذلك الفضل إلى معاني النَّحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصلٍ من أصوله، ويتَّصل ببابٍ من أبوابِه»(45).

كما توقف "عبد القاهر الجرجاني" على الدَّور الذي يؤدِّيه الإعراب –باعتباره يمثِّل أحد فروع علم النَّحو– في فهم دلالة الألفاظ والكشف عن معانيها، قال: «إذا كان قد عُلم أنَّ الألفاظ مُغْلَقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأنَّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنَّه المعيار الذي لا يُتبيَّن نقصان كلامٍ ورُجحانِه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيحٌ من سقيمٍ حتى يُرجع إليه، لا يُنكر ذلك إلاَّ من ينكر حِسَّه، وإلاَّ من غالط في الحقائق نفسه»(46).

محصول الكلام يمكن القول إنَّ الباعث الدِّيني كان له الأثر الفعال والكبير في نشأة النَّحو العربي، بدايةً، وتجميعًا، وتوحيدًا، وليس غريبًا أن يكون القرآن الكريم سببًا رئيسًا في ظهور علم النَّحو؛ لأنَّ النَّحو يدرس التَّركيب العربي، وكذا يرصد الظَّواهر الإعرابية على اختلافِها الناجمة عن القرائن اللَّفظيَّة التي سمَّاها النَّحويُون" العوامل النَّحويَّة"، كما أنَّ قراءة القرآن وتلاوته تعتمد اعتمادًا كليًّا على تغيير أواخر الكلم،، ولأنَّ اللَّحن ظهر في أوَّل الأمر في الإعراب.

روافد البحث وإحالاته:

---

(1) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد ت538هـ)، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، ج2، ص257. مادة:(نحو).

(2) ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري ت711هـ) لسان العرب، دار صادر،(د، ط)، بيروت، لبنان،(د، ت)، مج15، ص309-310. مادة:(نحا).

(3) ابن جني(أبو الفتح عثمان ت392هـ)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية،(د، ط)، مصر، (د، ت)، ج1، ص34.

(4) ابن فرخان(كمال الدين أبو سعد علي بن مسعود بن محمود بن الحكم ت548هـ)، المستوفى في النحو، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد بدوي المختون، دار الثقافة العربية،(د، ط)، 1407هـ/1978م، ج1، ص11.

(5) ابن كمال باشا، ثلاث رسائل في النحو، تحقيق: محمد حسين أبو الفتوح، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، لبنان، 1993م، ص183.

(6) الأشموني(أبو الحسن نور الدين علي بن محمد بن عيسى بن يوسف ت929هـ)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمَّى - منهج السالك إلى ألفية ابن مالك-، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، لبنان،1375هـ/1955م، ج1، ص5-6. ابن عصفور الإشبيلي(أبو الحسن علي بن مومن بن محمد بن علي الحضرمي ت669هـ)، المقرب

ومعه مُثُل المقرب، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود ومحمد علي عــوض، دار الكتــب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1418هـــ/1998م، ص67.

(7) ابن الناظم(بدر الدين محمد بن مالك)، شرح ألفية ابن مالك، شرح وتحقيق: عبد الحميد الســيد عبد الحميد، دار الجيل،(د، ط)، بيروت، لبنان،(د، ت)، ص18.

(8) مصطفى غلاييني، جامع الدروس العربيــة، المكتبــة العصــرية، ط28، صــيدا، بيــروت، 1414هـــ/1993م، ج1، ص9.

(9) عفيف دمشقية، أثر القراءات القرآنية في تطوُّر الدرس النَّحوي، معهد الإنمــاء العربــي، ط1، بيروت، لبنان، 1978م، ص45. وينظر: عبد السلام غشير، تطور التَّفكير اللُّغوي من النَّحو إلــى اللِّسانيات إلى التَّواصل، مطبعة المعارف الجديدة، ط1، الرباط، المغرب، 2010م، ص11.

(10) ينظر: حسن عون، اللُّغة والنَّحو، دراسة تاريخية وتحليليَّة ومقارنة، مطبعــة روايــال، ط1، القاهرة، مصر، 1952م، ص155.

(*) الحلوم: العقل والأنا. ومنــه قولــه تعــالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢﴾.[الطــور، الآية:32].

(12) ابن خلدون(ولي الدِّين عبد الرحمن بن محمد ت808هـــ)، مقدِّمــة ابــن خلــدون، حقَّــق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلَّق عليه: عبد الله بن الدَّرويش، دار يعرب، ط1، دمشق، ســوريا، 1425هـــ/2004م، ج2، ص368-369.

(13) عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدِّراسات النَّحويَّــة، مؤسَّســة علــي جــراح الصباح، ط3، الكويت، 1978م، ص45.

(14) علي أبو المكارم، القرآن والنَّحو، نظرة على مراحل العلاقة التَّاريخيَّة، سلسلة دراسات عربية وإسلاميَّة، مركز اللُّغات الأجنبيَّة والتَّرجمة، القاهرة، مصر، ع17، 1993م، ص6.

(15) القرطبي(أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ت671هـــ)، الجــامع لأحكــام القــرآن، والمبيِّن لما تضمَّنه من السنَّة وآيِ الفرقان، تحقيق: عبد الله بن عبد المحســن التُّركــي ومحمَّــد رضوان عرقسوسي، مؤسَّسة الرِّســالة للطباعــة والنشــر والتَّوزيــع، ط1، بيــروت، لبنــان، 1427هـــ/2006م، ج1، ص43. وينظر: ابن الأنباري(أبو البركات كمال الدِّين عبد الرحمن بــن محمَّد ت577هـــ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مطبعة المنــار، ط3، الزرقاء، الأردن، 1405هـــ/1985م، ص19-20.

(16) ينظر: أحمد جلايلي، مقدِّمة لأصول النَّحو العربي، دار الكتاب الحديث، ط1، القاهرة، مصر، 1434هـ/2013م، ص106.

(17) ابن عبد ربه(ت328هـ)، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1404هـ،ج4، ص65.

(18) ابن الأنباري(أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمَّد ت577هـ)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، ط3، الزرقاء، الأردن، 1405هـ/1985م، ص19.

(19) الزبيدي(أبو بكر محمَّد بن الحسن الأندلسي ت379هـ)، طبقات النَّحويين واللُّغويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، القاهرة، مصر، 1984م، ص11.

(20) السيرافي(أبو سعيد الحسن بن عبد الله ت385هـ)، أخبار النَّحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصار، ط1، 1405هـ/1985م، ص34-35.

(21) إبراهيم عبد الله رفيدة، النَّحو وكتب التَّفسير، الدار الجماهيرية للنشر والتَّوزيع والإعلان، ط3، بنغازي، ليبيا، 1399هـ/1990م، ج1، ص38.

(22) السيرافي، أخبار النَّحويين البصريين ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض، ص38-39.

(23) الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير ت310هـ)، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط1، دار هجر للنشر والطباعة والتوزيع والإعلان، ط1، القاهرة، 1422هـ/2001م، ج24، ص730.

(*) الفيدا: هو الكتاب المقدس لدى الهنود.

(24) أحمد مختار عمر، البحث اللُّغوي عند الهنود وأثره على اللُّغويين العرب، دار الثقافة، (د، ط)، بيروت، لبنان، 1972م، ص74.

(25) عوض بن حمد القزوي، اللُّغة والقرآن، سلسلة تصدر عن النادي الأدبي الثقافي،(د، ط)، جدة، السعودية، (د، ت)، ص14.

(26) المرجع نفسه، ص22.

(27) هناك اختلاف في الرِّوايات حول الذي رآه" أحمد بن موسى بن مجاهد" في المنام، ففي حين ذهب" ابن خلكان" إلى أنَّه رأى النبي صلى الله عليه وسلم، فإنَّ الشنتريني (ت550هـ) إلى أنَّه

رأى" محمَّد بن أحمد بن غالب الزاهد الباهلي المصري(ت75هـــ) في خبر رواه عن" أبي بكـر أحمد بن موسى بن مجاهد"- رحمه الله تعالى- قال:« كنتُ عند أبي العباس أحمد بن يحي ثعلب، فتذاكرنا العلوم، فقال لي: يا أبا بكر، شُغلتُم أنتم بعلم القرآن ففزتم، وشُغل أهل الفقه بالفقه فنجوا، وشغلت أنا بزيدٍ وعمرو، وما أدري ما يكون أمري غدًا مع الله عزَّ وجلَّ، وبكى بكـاءً شـنيعًا، فانصرفت من عنده فرأيتُ في تلك اللَّيلة محمد بن أحمد بن غالب الزاهد في النَّوم، فقال لي: يا أبا بكر، تعرف أبا العباس أحمد بن يحي ثعلبًا، فقلت: صاحبُنا، قال لي: إذا كان غـدًا فـأقرأ عليـه السلام، وقل: أنت غدا في القيامة صاحب العلم المستطيل». ينظر هذا الخبر: الشنتريني(الإمـام الرئيس أبي بكر محمد بن عبد الملك النَّحوي ابن السراج ت550هـــ)، كتاب تنبيه الألباب علـى فضائل الأعراب، دراسة وتحقيق: عبد الفتاح الحموز، دار عمار للنشر والتوزيـع، ط1، عمـان، الأردن، 1416هـــ/1995م، ص27-28.

[28] في كتاب:" تنبيه الألباب على فضائل الأعراب"، ص28. قال "الشنتريني": « يعني بقوله- والله أعلم- العلم المستطيل أنَّه يستطيل على سائر العلوم، وأنَّ سائر العلوم فقير إلى النَّحو».

[29] الزمخشري(جار الله محمود بن عمر ت538هـــ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيمي، وزارة الأوقاف، إحياء التُّراث الإسلامي،(د، ط)، العراق، 1400هـــ/1980م، ج3، ص254. وجاء في هامشه:« سئِل الحسن عن رجل يتعلَّم العربية ليعرف بها حُسن المنطق، ويقيم بها وجهه، فقال، فليتعلمها فإنَّ الرَّجل يقرأِ الآية، فيعيا بوجهها، فيهلك بها».

[30] الشنتريني، كتاب تنبيه الألباب على فضائل الأعراب، ص43.

[31] الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر ت255هـــ)، البيان والتبيين، تحقيـق وشـرح: عبـد السـلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ط7، القـاهرة، مصـر، 1418هـــــ/1998م، ج2، ص219.

[32] المصدر نفسه، ج2، ص219.

[33] القفطي(الوزير جمال الدين أبي الحسن بن يوسف ت624هـــ)، انباه الرواة على أنباة النُّحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مؤسسـة الكتـب الثقافيـة، ط1، القـاهرة، بيروت، 1406هـــ/1986م، ج2، ص267.

[34] الزجاجي(أبو القاسم ت337هـــ)، الإيضاح في علل النَّحو، تحقيـق: مـازن المبـارك، دار النفائس، ط3، بيروت، لبنان، 1399هـــ/1979م، ص95.

[35] ابن جني، الخصائص،ج1، ص35.

(36) عبده الراجحي، دروس في كتب النحو، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (د، ط)، بيروت، لبنان، 1975م، ص10.

(37) سيد أحمد خليل، دراسات في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،(د، ط)، بيروت، لبنان، 1969م، ص70.

(38) خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، ط2، بيروت، لبنان، 1406هـ/1986م، ص159.

(39) عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدِّراسات النَّحويَّة، ص306.

(40) المرجع نفسه، ص330.

(41) أحمد عبد الستار الجواري، نحو القرآن، مكتبة اللغة العربية، مطبوعات المجمع العلمي العراقي،(د، ط)، بغداد، العراق، 1394هـ/1974م، ص8-9.

(42) ينظر: عبد القادر بن فطة، أهميَّة النَّحو في فهم لغة القرآن، حوليات الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، مج5، ع10، فيفري2018م، ص241-242.

(43) المرجع نفسه، ص248.

(44) الجرجاني(عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد النحوي ت474هـ)، كتاب دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي،(د، ط)، القاهرة،(د، ت)، ص81.

(45) المصدر نفسه، ص83.

(46) المصدر نفسه، ص28.

أسماء المواقع في القرآن الكريم:
مقاربة دلالية طوبونيمية.

د. مختارية بن قبلية
جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم.

ملخّص المداخلة: ترتبط أسماء المواقع في القرآن الكريم بمسائل وعلوم عِـدّة، وبالأخصّ ما تعلّق منها بالقصص القرآني، والتشريع الإسلامي، وكذا علم المكـي والمدني الذي يُعنى بالبحث في مكان نزول الآيات، وهي ميادين لا تنفصل عن علم الدلالة لما لها من صلة بالدراسة السياقية. وقد وردت في الكتاب الحكـيم أسـماء لمواقع كثيرة، ارتبط بعضها بقصص الأنبياء والأقوام والصالحين، مثل: مكة وبكة وأم القرى والأيكة وطوى ومصر والمسجد الأقصـى والطـور وبابـل والحجـر والأحقاف والجودي وبدر وحنين ويثرب والكهف والـرقيم وسـيناء... وبعضـها الآخر بالتشريع والمناسك وما شابه ذلك، مثل؛ المسجد الحرام وعرفات والمشـعر الحرام... وسَنعمل في هذا البحث على جمع ما تيسّر لنا من تلك المواقـع لنتتبّـع معناها داخل السياق القرآني وخارجه، علّنا نجد بعض المعلومات الطوبونيمية التي تبقى واحدة من اهتمامات علم الدلالة، وذلك بمراعاة النقاط الآتية:

- خدمة أسماء المواقع للسياق القرآني.
- إمكانية تحديد مواقع الأماكن من خلال السياق القرآني.
- دلالة أسماء المواقع الواردة في القرآن الكريم (مقاربة طوبونيمية).
- علاقة المواقع بالزمان والأشخاص والأحداث في القصص القرآني.

- توافق اسم الموقع مع السياق اللساني عموما، والسياق البلاغي على وجه الخصوص.
- علاقة المواقع بالتشريع القرآني.

المداخلة: لا يهدف هذا البحث إلى جمع كمٍّ كبيرٍ من الطوبونيمات القرآنية ودراستها لأنّ ذلك يحتاج إلى مؤلَّف خاصّ، بل يهدف إلى تسليط الضوء على علم الطوبونيميا أو ما يسمّى بالأماكنية أو المواقعية والنظر في إمكانية تطبيقه على عيّنة من أسماء المواقع المذكورة في القرآن الكريم. أما سبب ابتعادنا عن المبالغة في الجمع فهو وجود المادة مسبقا في بعض المؤلفات؛ من مثل: أعلام المكان في القرآن الكريم – دراسة دلالية، إعداد: يوسف أحمد علي أبو ريدة، إشراف: يحي عبد الرؤوف جبر، جامعة الخليل، 2007/2008. وقد راعت هذه الدراسة شرطيّ الجمع والدراسة الدلالية، إلا أنّها لم تميّز المعلومات الطوبونيمية في مباحث خاصة بها، وإنّما اكتفت بذكرها ضمن المقاربات الدلالية، كما أنّ هذا البحث لم يُشر بحسب ما اطلعت عليه إلى علم الطوبونيميا من الأساس، بل هو بحث دلالي شامل.

إنّ اهتمامنا بالطوبونيميا نابع من الأهميّة التي أخذتها عالميا في مجالات كثيرة، وبالأخص السياحة والأنثروبولوجيا والاقتصاد، وصار من الطبيعي أن تذكر المعلومات الطوبونيمية مع ذكر أي طوبونيم (اسم مكان). وقد فضّلنا أن نوظف هذا المصطلح الغربي لكونه المستعمل عالميا، ولأنّ الباحثين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم يستعملونه لتسهيل الوصول إلى المعلومات المشيرة إلى أصل تسمية اسم المكان، ونحن نعي ذلك تماما، لأنّ اشتغالنا في هذا المجال في عدّة مناسبات علمية جعلنا نكتشف أنّ مثل هذه المعلومات لا يسهل العثور عليه في المؤلفات المكتوبة باللغة العربية نظرا لامتزاجها مع معلومات من نوع آخر، وهو ما أوحى لنا بفكرة هذا البحث.

لقد "اهتمّ المؤرخون المسلمون بالمعلومات الطوبونيمية كثيرا، لكنّها لـم تشـكّل علما مستقلا بذاته، ممّا جعلها مبعثرة في كتـب التـاريخ"[1] والسـير والتـراجم والمعاجم وما شابهها. بالإضـافة إلـى كتـب التفاسـير -إذا مـا تعلّـق الأمـر بالطوبونيمات القرآنية- وقد لاحظنا الصعوبة التي واجهت علماء التفسير في تحديد أصول أسماء الأماكن الواردة في القرآن الكريم نظرا لارتبـاط أغلبهـا بقصـص الأقوام والأنبياء على اختلاف لغاتهم، وهنا وقع اختلاف كبير بين الآراء التي يميل بعضها إلى تصنيف عدد من الطوبونيمات ضمن ألفاظ المعجم العربـي الأصـيل، ويميل بعضها إلى عدّها ألفظا دخيلة، ويميل البعض الآخر إلى عدّها من الألفـاظ المشتركة بين العربية ولغات أخرى. ولتوضيح كلّ ما سبق سنقدّم عيّنـة معجميـة بسيطة، ونشير هاهنا إلى أنّنا لم نتّبع في ترتيب المداخل المعجمية المختارة طريقة معيّنة، إلا أنّنا حاولنا أن نبدأ بالطوبونيمات الأكثر شهرة، فكانت البدايـة بأصـل البلدان "أم القرى".

1. **أم القرى/ بكة/ مكة:**

أم القرى: قال تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾[2] وُظّف اسم "أم القـرى" عوض اسم "مكة" في هذه الآية لخدمة السياق، ذلك أنّها تعمل على رسـم صـورة المركز (الأمّ) في ذهن المتلقي وصورة ما حولـه ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾، وهـذه رسـالة موجّهة أولا لأهل مكة وما جاورها، ثم للعالمين[3]؛ لقوله تعـالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ "أي لتنذر أهل أم القـرى لأنّ البلد لا تعقل وهو كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[5] وأمّ القرى أصل القـرى وهـي مكّة وسمّيت بهذا الاسم إجلالا لها لأنّ فيها البيت ومقام إبراهيم، والعـرب تسـمي

أصل كل شيء أمّة حتى يقال هذه القصيدة من أمّهات قصائد فلان. ومن حولها: من أهل البدو والحضر وأهل المدر"[6]. وقيل سُمِّيت كذلك لأنّها أشرف من سائر البلاد لأدلّة كثيرة؛ منها "ما قال الإمام أحمد حدّثنا أبو اليمان حدّثنا شعيب عن الزهري حدّثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: إنّ عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أخبره أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة «والله إنّك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني خرجت منك ما خرجت» هكذا رواية الترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث الزهري به وقال الترمذي حسن صحيح"[7].

بكّة/مكّة: يرد المكان نفسه في القرآن الكريم بتسميات عديدة، من بينها "بكّة"، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[8] وقيل هو إبدال؛ أي أنّ: "بكة ومكة اسمان لمسمى واحد، فإنّ الباء والميم حرفان متقاربان في المخرج فيقام كل واحد منهما مقام الآخر..."[9]. وقيل: "بكّة موضع مزدحم الناس للطواف، من البكّ وهو الزحم، سمّيت البقعة بفعل المزدحمين بها"[10]. ويرى الرازي: إنّ "في اشتقاق بكة وجهان: الأول: أنّه من البك الذي هو عبارة عن دفع البعض بعضا... وسميت مكة بكة لأنّهم يتباكّون فيها أي يزدحمون في الطواف...الوجه الثاني: سمّيت بكة لأنّها تبك أعناق الجبابرة لا يريدها جبار بسوء إلاّ اندقت عنقه"[11].

وإن أخذنا برأي أنّ مكة وبكة تسميتان لمسمى واحد، فما سبب ورود هذه التسمية الأصلية في هذه الآية بعكس معظم الآيات التي ذكرت فيها باسم "البلد الآمن والأمين" و"أم القرى" أو بنسبتها إلى "الكعبة الشريفة" بذكر "البيت الحرام" و"المسجد الحرام"...؟ ولعلّ الجواب هو أنّ الآية الكريمة لا تتحدّث عن حرمة

البيت أو المحرّمات أو الجهاد وما شابه ذلك، بل تتحدّث عن نقطة بداية هذا الموقع الشريف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ وذلك في صورة تشبه ولادة الطفل الذي إذا خرج إلى الحياة سارعنا إلى البحث عن تسمية تناسبه، وإذا كبر بحث لنفسه عن كنية. وهنا يتبيّن أنّ ظهور تسمية بكة كان مناسبا للمقام، وهذا من الإعجاز القرآني. مع العلم أن مسألة البداية هنا هي مسألة جدلية، فالبعض يفسر الآية على أنّ الكعبة هي أوّل بيت مبارك وضع للعبادة من حج وعمرة وتوجه في الصلاة، ويفسرها البعض الآخر بأنّ الكعبة هي الأولى في الوضع والبناء، أي أنها أوّل ما خلق على الأرض، بالإضافة إلى تفاسير أخرى قريبة من الرأيين.

أمّا "مكّة" فوردت في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [12] وفي هذه الآية؛ يخاطب الله سبحانه وتعالى المسلمين، "أي هُوَ بتقدير الله، لأنّه كفّ أيديهم عنكم بالفرار، وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم، وقوله تعالى: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ إشارة إلى أمر كان هناك يقتضي عدم الكف، ومع ذلك وجد كف الأيدي، وذلك الأمر هو دخول المسلمين ببطن مكة"[13]. فبطن مكّة إذن تدل على أنّ قريش كانت في مركز قوة لسببين: أولهما: كثرة العدد والاحتماء في بطن مكة. وثانيهما: تواجد الرجال مع النساء والأطفال مما يستدعي القتال. وفي الوقت ذاته؛ كان على المسلمين الاجتهاد في الجهاد لأنّهم خارج بطن مكّة في العراء فهم غير آمنين.

"مكة"؛ هذه التسمية (الأصلية) هي مناسبة لسياق الآية التي تتحدّث عن السلم والفتح دون الحديث عن القتال والتحريم، ومن عجائب القرآن الكريم أنّ الآية التي تليها تتحدّث عن صدّ الكفار للمسلمين سابقا، وحينها يُذكر المكان نفسه أو بالأحرى جزء منه وهو المسجد الحرام الواقع في بطن مكة، فيقول تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[14] فما سر ورود تسمية المسجد الحرام في القرآن الكريم؟

2. **المسجد الحرام/ البيت الحرام:** المسجد "اسمٌ جامعٌ يجمع المسجدَ، وحيث لا يُسجد بعد أن يكون اتُّخذَ لذلك، فأمّا المسجد من الأرض فموضعُ السُّجود نفسُه"[15]. والبيت "من بُيُوت النّاس"[16] والحرام من الحرمة؛ أي "ما لا يَحِلُّ لكَ انتهاكه"[17].

تتكرّر تسمية "المسجد الحرام" و"البيت الحرام" في مواطن عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾[18] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾[19]. والواضح أنّ السياق هنا يدور حول التحريم والشهر الحرام مما يُناسب استعمال اسم المسجد الحرام والبيت الحرام، وتتناسب التسمية بالآية اللاحقة[20] التي يدور موضوعها حول المحرّمات من البهائم.

3. **عرفات والمشعر الحرام:** وفي مكان غير بعيد عن المسجد الحرام، تتواجد عرفات وكذلك المشعر الحرام، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾
[21] وجاء في التفسير الكبير: ﴿عَرَفَٰتٍ﴾ جمع عرفة، سميت بها بقعة واحدة... وكأنّ كل قطعة من تلك الأرض عرفة فسمي مجموع تلك القطع بعرفات"[22]. وقيل عرفات هو موضع يوم عرفة الذي أخذ تسميته من سياقات تاريخية ولغوية مختلَف

فيها؛ فيقال إنّها من المعرفة، ذلك أنّ "آدم وحواء التقيا بعرفة فعرف أحدهما صاحبه فسمي اليوم عرفة والموضع عرفات"[23]. وقيل: "سمي الموضع عرفات لأنّ إبراهيم عليه السلام عرفها حين رآها بما تقدم من النعت والصفة"[24]. وروايات أخرى عديدة. وقيل "من الاعتراف لأنّ الحجاج إذا وقفوا في عرفة اعترفوا للحق بالربوبية والجلال والصمدية والاستغناء، ولأنفسهم بالفقر والذلة والمسكنة والحاجة"[25]. وقيل: "من العرف وهو الرائحة الطيبة"[26] فمن عادة العرب أن يقولوا: "ما أطيب عرفه، وعرّف الله الجنّة: طيّبها"[27].

أمّا ﴿ٱلۡمَشۡعَرِ﴾ فمن شعر، و"شعائر الحج مناسكه واحدتها شعيرة وقوله تعالى فاذكروا الله عند المَشْعَرِ الحرام هو مُزْدَلِفَةُ وهي جمعٌ تسمى بهما جميعاً والمَشْعَرُ المَعْلَمُ والمُتَعَبَّدُ من مُتَعَبَّداتِهِ والمَشاعِرُ المعالم التي ندب الله إِليها وأَمر بالقيام عليها ومنه سمي المَشْعَرُ الحرام لأَنه مَعْلَمٌ للعبادة وموضع قال ويقولون هو المَشْعَرُ الحرام والمِشْعَرُ ولا يكادون يقولونه بغير الأَلف واللام وفي التنزيل يا أَيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شَعائرَ الله قال الفرّاء كانت العرب عامة لا يرون الصفا والمروة من الشعائر ولا يطوفون بينهما فأَنزل الله تعالى لا تحلوا شعائر الله أَي لا تستحلوا ترك ذلك وقيل شعائر الله مناسك الحج وقال الزجاج في شعائر الله يعني بها جميع متعبدات الله التي أَشْعرها الله أَي جعلها أَعلاما لنا وهي كل ما كان من موقف أَو مسعى أَو ذبح وإِنما قيل شعائر لكل علم مما تعبد به لأَن قولهم شَعَرْتُ به علمته فلهذا سميت الأَعلام التي هي متعبدات الله تعالى شعائر والمشاعر مواضع المناسك"[28].

واختلف العلماء في كون المشعر الحرام تسمية لمزدلفة أم لقزح، و"الأصحّ أنه قزح، وهو آخر حدّ المزدلفة والأوّل أقرب، لأنّ الفاء في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ تدلّ على أنّ الذكر عند المشعر الحرام يحصل عقيب

الإفاضة من عرفات، وما ذاك إلا بالبيتوتة بالمزدلفة"[29]. ومن ذلك يتبيّن أنّ حرف الفاء –وهو جزء هام من السياق اللّساني للآية– عامل رئيس في معرفة الموقع المقصود من "المشعر الحرام". أما من وجهة نظر السياق المقامي؛ فذكر الموضع بهذه التسمية يناسب الحديث عن شعائر الله تعالى "وهي أعلام الحج من أعماله"[30].

البلد/ البلد الآمن/ البلد الأمين: أما تسمية البلد فهي كثيرة في الكتاب الحكيم، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾[31] "والمراد: مكة آمنا ذا أمن"[32]. وهنا يسأل سيدنا إبراهيم: "أن يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها، وهي الخوف، ويحصل لها ضد تلك الصفة وهو الأمن، كأنّه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا"[33].

ومن هنا نفهم أنّ سيدنا إبراهيم كان متخوّفا من هذا المكان الذي قاده إليه ربّه، وكأنّه يخشى المجهول الذي ينتظره وذريّته، فبالرّغم من إيمانه القوي بقدرة الله تعالى على حماية هاجر وإسماعيل من أيّ أذى، إلاّ أنّه لا يمكننا إلغاء عاطفة الأب التي لم ينزعها عزّ وجل من قلب الرسل والأنبياء. وبالإضافة إلى هذا الإحساس الذي جعل سيدنا إبراهيم يطلب أمن هذا البلد، لابد من أن نذكر أنّ المنطقة كانت غريبة عنه، فهو لم يعرفها إلا عن طريق الوحي، فكان من الطبيعي أن يذكر البلد دون تسميته باسمه الحقيقي وهذا مناسب تماما للسياق، والله أعلم. أما بعد حصول صفة الأمن على هذا المكان، فأصبح من الملائم تسميته بالبلد الآمن. وعن ذلك يقول السامرائي: "وأمّا من حيث الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمن قبل أن يكون بلدا وبعد أن صار بلدا"[34].

4. **الطور/طور سينين/طور سيناء:** من الأماكن التي أخذت حظّا كبيرا من قصص سيدنا موسى وبني إسرائيل: "الطور" "قال ابن عباس: أمر تعالى جبلا من

جبال فلسطين فانقلع من أصله حتى قام فوقهم كالظلة، وكان المعسكر فرسخا في فرسخ فأوحى الله إليهم أن اقبلوا التوراة وإلا رميت الجبل عليكم، فلما رأوا أن لا مهرب قبلوا التوراة بما فيها فسجدوا للفزع سجودا يلاحظون الجبل، فلذلك سجدت اليهود على أنصاف وجوههم"[35].

ترد هذه التسمية منفردة أو مضافة إلى سينين أو سيناء، لكنها لا تدلّ إلاّ على مكان واحد في سياق الخطاب القرآني بكامله. قال تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ [36] وقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ۝٢٠﴾ [37] قال صاحب الكشاف: "طور سيناء وطور سينين لا يخلو إمّا أن يضاف فيه الطور إلى بقعة اسمها سيناء وسينون، وإمّا أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف إليه كامرئ القيس وبعلبك فيمن أضاف... وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة، ومنه نودي موسى عليه السلام، وقرأ الأعمش سينا على القصر"[38]. ويقول عزّ من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٦٣﴾[39] "وأما قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ فنظيره قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[40] ... قيل إنّ الطُور كل جبل. قال العجاج:

دانى جناحيه من الطُور فمرّ تقضِّيَ البازي إذا البازي كسر"[41]

أما الخليل فيفسر تسمية "الطور" استنادا إلى السياق التركيبي، حيث ينقل عنه الرازي قوله: "إنّ الطور اسم جبل معلوم وهذا هو الأقرب، لأنّ لام التعريف فيه تقتضي حمله على جبل معهود عرف كونه مسمّى بهذا الاسم، والمعهود هو الجبل الذي وقعت المناجاة عليه وقد يجوز أنْ ينقله الله تعالى إلى حيث هم فيجعله فوقهم

وإن كان بعيدا منهم لأنّ القادر على أن يُسكن الجبل في الهواء قادر أيضا على أن يقلعه وينقله إليهم من المكان البعيد"[42].

قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾[43]. والأيمن "من اليمين أي من ناحية اليمين والأيمن صفة الطور أو الجانب"[44]. "وفي قوله: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾ قولان: أحدهما: المراد قرب المكان عن أبي العالية قربه حتى يسمع صرير القلم حيث كتبت التوراة في الألواح. والثاني: قرب المنزلة، أي رفعنا قدره وشرفناه بالمناجاة..."[45]. وبالاستناد إلى سياق هذه الآية يمكننا أن نقترب من معنى قوله عزّ وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾[46]. "ووجه المنفعة فيه أنّه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم"[47]. إذن، فالحدث هو ذاته، ذلك أنّ الموعد كان مع سيدنا موسى، لكنّ الرسالة كانت موجهة في الأساس إلى بني إسرائيل.

من الواضح إذن أنّ الطور لا يُذكر إلا بذكر سيدنا موسى أو بني إسرائيل، وهذا دليل على أنه هو المكان نفسه في السياق القرآني بكامله كما سلف أن ذكرت. والطور من الأماكن الشريفة، فقد أقسم به الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ٦﴾[48] "إنّ الأماكن الثلاثة وهي: الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور، أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله، أمّا الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام، والبيت محمد صلى الله عليه وسلم، والبحر المسجور يونس عليه السلام، والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ﴾[49] وقال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[50] وأما محمد ﷺ فقال: **(السلام علينا وعلى عباد الله**

الصالحين، لا أحصي ثناء عليك كما أثنيت على نفسك) وأمّا يونس فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[51] فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله بها"[52]. وقد تساوقت أسماء تلك الأماكن لترسم صورة جمالية إعجازية تؤكّد ترابطها السياقي، وهذا ما نقلته إلى حواسنا الفاصلة القرآنية[53]: "الطور" و"البيت المعمور" و"البحر المسجور".

أمّا سيناء فقد ورد فيها لغتان عن العرب؛ هما "سيناء" بكسر السين، وهي لغة تميم، و"سَيناء" بفتحها، وهي لغة باقي العرب، واختلف اللغويون في أصل هذا اللفظ، فعدّه بعضهم عربيّا خالصا مشتقا من "السَّناء" وهو الارتفاع، أو من "السّنا" وهو النُّور، أو من "السّين"، والسيناء عندهم الحجارة أو الشجر. ورأى آخرون أنّه معرّب، فهو في السريانية بمعنى المبارك أو الحسن، وفي النبطية بمعنى الحسن أو الجنّة، وفي الحبشية بمعنى الحَسَن أو الجبل المشجّر[54]، وفي لغات أخرى بمعانٍ قد تقترب وقد تبتعد عن ما ذُكر.

5. **بابل:** وذُكرت في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾[55] وقيل هي من مادة "بلل"، وقيل "ببل" التي ذكر لها ابن فارس خمسة أصول؛ منها الجرأة والفجور بلا مبالاة، ومن هذا الأصل جاء لفظ بابل، واللفظ عند الخليل ومن تابعه من البلبلة، وسميت كذلك لتفرّق ألسنة الناس ولغاتهم في عهد نوح بعد الطوفان، إذ أرسل الله –عزّ وجلّ– الريح فحشرهم من كلّ أفق فيها، فبلبل ألسنتهم، ثم فرّقهم مختلفي الألسنة. ومن العلماء من عدّه لفظا دخيلا من السريانية أو الأكادية أو العبرية[56].

وفي ختام هذا البحث نذكّر أنّ الطوبونيمات القرآنية كثيرة ويصعب جمعها في هذه الصفحات، وما العيّنة التي قدمناها إلا نماذج وضّحنا من خلالها توفّر المادة

الطوبونيمية في المصادر التراثية وكذا في البحوث المعاصرة، وما نحتاج إليه في حقل الطوبونيميا هو الجمع والتصنيف والترتيب وفقا للمنهجية والأدوات التي يقدّمها هذا العلم. وقد اتضّح أنّ الوصول إلى تلك المعلومات كان يستند على أمور ثلاثة رئيسة؛ هي:

- السياق بنوعيه اللساني والمقامي؛
- تاريخ وسير الأعلام والأقوام؛
- المعاجم اللغوية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: برواية حفص عن عاصم.

1. أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب الحديثة، القاهرة، دط.
2. أعلام المكان في القرآن الكريم – دراسة دلالية، رسالة ماجستير، إعداد: يوسف أحمد علي أبو ريدة، إشراف: يحي عبد الرؤوف جبر، جامعة الخليل، 2007/2008.
3. التعبير القرآني (دراسات بيانية في الأسلوب القرآني)، فاضل صالح السامرائي، مط جمعية عمال المطابع التعاونية، ط 06، 1430هـ/2009م.
4. تفسير ابن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، مطبعة الفنية، القاهرة، د ط.
5. تفسير الفخر الرازي، محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 01، 1425 هـ – 1426 هـ / 2005 م.

6. كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق، عبد الحميد الهنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1424/ 2003.

7. الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة بيروت.

8. لسان العرب، ابن منظور.

9. مختصر تفسير الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اختصار وتحقيق، محمد علي الصابوني، صالح أحمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، ط 02، 1408/1987.

10. المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، مط ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1992م.

11. المعجم الطوبونيمي الوهراني على الشابكة، نظرة تقويمية، مختارية بن قبلية، كتاب أعمال ملتقى: ملامح وحدة المجتمع الجزائري من خلال الواقع اللغوي الأنوماستكي الطوبونيمي في مجتمع المعرفة، رئاسة الجمهورية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر العاصمة، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018م.

الهوامش والإحالات:

---

(1) المعجم الطوبونيمي الوهراني على الشابكة، نظرة تقويمية، مختارية بن قبلية، كتاب أعمال ملتقى: ملامح وحدة المجتمع الجزائري من خلال الواقع اللغوي الأنوماستكي الطوبونيمي في مجتمع المعرفة، رئاسة الجمهورية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر العاصمة، دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2018م، ص 397.

(2) سورة الشورى الآية 07.

(3) يراجع، تفسير الفخر الرازي، محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 01، 1425 هـ – 1426 هـ / 2005 م. مجلد 09 ج 27 ص 134.

(4) سورة سبأ الآية 28.

(5) سورة يوسف الآية 82.

(6) تفسير الرازي، مجلد 09 ج 27 ص 133، 134.

(7) تفسير ابن كثير، الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشـــي الدمشـــقي، دار الثقافـــة للنشـــر والتوزيع، مطبعة الفنية، القاهرة، د ط، ج 4، ص 108.

(8) سورة آل عمران الآية 96.

(9) يراجع، تفسير الرازي، مجلد 03 ج 08 ص 135.

(10) مختصر تفسير الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، اختصار وتحقيـــق، محمـــد علي الصابوني، صالح أحمد رضا، مكتبة رحاب، الجزائر، ط 02، 1408/1987، المجلد 1، ص 115.

(11) تفسير الرازي، مجلد 03 ج 08 ص 135.

(12) سورة الفتح، الآية 24.

(13) تفسير الرازي، مجلد 10 ج 28 ص 89، 90.

(14) سورة الفتح الآية 25.

(15) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيـــق، عبـــد الحميد الهنداوي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنـــان، ط 1، 1424/ 2003، ج 2، مادة سجد.

(16) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، ج 1، مادة بيت.

(17) نفسه، مادة حرم.

(18) سورة البقرة الآية 191.

(19) سورة المائدة الآية 02.

(20) انظر سورة المائدة الآية 03.

(21) سورة البقرة الآية 198.

(22) تفسير الرازي، مجلد 02 ج 05 ص 166.

(23) نفسه، مجلد 02 ج 05 ص 166.

(24) نفسه، ص 167.

(25) نفسه، ص 167.

[26] نفسه، ص 167.

[27] أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د ط، مادة عرف، ص 624.

[28] لسان العرب، ابن منظور، مادة شعر.

[29] تفسير الرازي، مجلد 02 ج 05 ص 171.

[30] أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مادة شعر، ص 494.

[31] سورة إبراهيم الآية 35.

[32] تفسير الرازي، مجلد 07 ج 19 ص 114.

[33] نفسه.

[34] التعبير القرآني (دراسات بيانية في الأسلوب القرآني)، فاضل صالح السامرائي، مط جمعية عمال المطابع التعاونية، ط 06، 1430هـ/2009م، ص 348.

[35] تفسير الرازي، مجلد 01 ج 3 ص 105.

[36] سورة التين الآية 02.

[37] سورة المؤمنون الآية 20.

[38] الكشاف، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار المعرفة بيروت، ج 03 ص 45.

[39] سورة البقرة الآية 63.

[40] سورة الأعراف الآية 171.

[41] تفسير الرازي، مجلد 01 ج 3 ص 105.

[42] نفسه.

[43] سورة مريم الآية 52.

[44] تفسير الرازي، مجلد 07 ج 21 ص 213.

[45] نفسه.

[46] سورة طه الآية 80.

[47] تفسير الرازي، مجلد 08 ج 22 ص 90.

[48] سورة الطور.

[49] سورة الأعراف الآية 155.

[50] سورة الأعراف الآية 143.

[51] سورة الأنبياء الآية 87.

[52] تفسير الرازي، مجلد 10 ج 28 ص 224، 225.

[53] الفاصلة هي: (كلمة آخر الجملة، وهي بالنسبة للآية كقافية الشعر، وقرينة السجع، تقع في الخطاب لتحسين الكلام بها، وسميت كذلك لأنّه ينفصل عندها الكلامان). يراجع، المعجزة القرآنية، بغدادي بلقاسم، مط ديوان المطبوعات الجامعية، ط 1992م، ص 276، 277.

[54] يراجع، أعلام المكان في القرآن الكريم – دراسة دلالية، رسالة ماجستير، إعداد: يوسف أحمد علي أبو ريدة، إشراف: يحي عبد الرؤوف جبر، جامعة الخليل، 2007/2008، ص 31.

[55] سورة البقرة الآية 102.

[56] يراجع، أعلام المكان في القرآن الكريم – دراسة دلالية، يوسف أحمد علي أبو ريدة، ص ص 15، 17.

شخصيات جزائرية مغمورة

- روّاد في علوم القرآن واللغة -

أ.عبد الله روينة

إطار بالمجلس الأعلى للغة العربية.

أ. د. حسنية عزاز

جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس.

مقدمة: الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النور الأعظم والانسان الطراز المعلم وعلى آله وأصحابه. أمابعد...

لقد اهتم علماء الجزائر بالقرآن الكريم وعلومه؛ رسمًا، وضبطًا، وتفسيرًا، وقراءة... فالحمد لله الذي سخّر لخدمة كتابه مثل هؤلاء الرجال الذين اختصهم بفضله، وشرّفهم بأشرف العلوم، فمن هم هؤلاء؟ لقد حاولنا التعريف بهؤلاء العلماء، فركزنا على الجوانب المهمّة التي تخص الموضوع، كتعلّم هؤلاء الأعلام وأشياخهم وبيئاتهم العلمية، ثمّ تدريسهم ومصنفاتهم. وذكر المجال الذي تفرّدوا فيه وتميّزوا به ونبغوا فيه عن غيرهم، فمنهم من مارسوا التدريس، وإن لم يؤلفوا شيئا إلاّ أن دورهم في الحياة الثقافية والاجتماعية كان كبيرا، ومنهم من كانوا مصلحين فنفعوا المجتمع دون أن يتركوا آثارا مكتوبة، لكنهم تركوا ما هو أعظم تلاميذ أكفاء كانوا مدارس فيما بعد تخرجت من المدرسة الأمّ.

وفي ذكر شيوخ أو تلاميذ علَم من الأعلام هو ذكر لأعلام آخرين، حاولنا أن نترجم لهم باختصار، إذ لا يسعنا في هذه الورقة البحثية ذكر كل أعلام الجزائر الذين أسهموا إسهامات جليلة في خدمة علوم القرآن واللغة؛ لأن الجزائر أمّة عريقة

وأمّ ولودة، أنجبت نُخبا تزخر بهم، ونعتز ونفتخر؛ لأن علمهم تنتفع به أمتنا بل الأمة الاسلامية قاطبة.

أعلام وأعمال -علماء ورواد-:

1/ من رواد علم التفسير: لقد أدرك أعلامنا وشيوخنا فضائل علم التفسير، فهو المعين على فهم كلام الله عز وجلّ؛ ومعرفة مراده، فمن أوتي فهم القرآن فقد أوتي خيرا كثيرا، لم يغب ذلك عن شيوخنا، لكن المُغَيب هنا هم أعلام الجزائر الذين ألّفوا تآليف في التفسير، فنحن لم نتعود عليهم ولم نعرفهم حق المعرفة، إذ لم تذكر لنا كتب التاريخ والتراجم وجود مفسرين كثر قبل حلول القرن الرابع الهجري ورغم وجود قلة منهم إلا أنه لم يشتهر ذكرهم ربما لأن صناعة التفسير لم تكن رائجة في ذلك الوقت كرواج علم الفقه الحديث[1]، لكن ذكر بعضهم أن **عبد الرحمن بن رستم** قام بتفسير القرآن، وإن صح هذا فيكون بذلك هو أول المفسرين للقرآن بالجزائر، وعبد الرحمن هو مؤسس أول دولة إسلامية جزائرية مستقلة وأول من ملك من الرستميين فيها، كان من فقهاء الاباضية في افريقية، معروفا بالزهد والتواضع، وكان على جانب عظيم من العلم والعمل والعدل، وكانت بيعته بالامامة سنة 160ه، فأقام بتيهرت التي أصبحت عاصمة الدولة الرستمية، وقد توفي بها سنة 171ه/ 787م[2].

وكذلك **هود بن محكم الهواري الأوراسي** في القرن الثالث الهجري وبالضبط 250هـ وتفسيره هذا طبع مؤخرا بتحقيق الأستاذ السعيد شريفي. عاش الشيخ مُحَكّم في القرن الثالث الهجري ، وكان لا يزال حيا بين (208- 258هـ)[3]، وذلك أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب (ت: 258هـ) عينه قاضيا على العاصمة "تيهرت" في عهده (حكم: 208- 258هـ)، يقول محقق التفسير بالحاج بن سعيد شريفي: إن المصادر التي بين أيدينا لم تمدنا بكثير من الأخبار عن مكانته العلمية، سواءً في

فترة صباه، أم شبابه، أم شيخوخته، ولكن الذي يبدو أنه قد أخذ العلم في طفولته عن والده بعد حفظه لكتاب الله تعالى، وأنه قد تفقه في مجالس العلم وحلقات الدرس التي كانت تعقد بالمساجد في القرى الجبلية، أو في البوادي، أو حتى في المغارات إذا اختل الأمن واضطربت الأمور وخيفت الفتن، وهكذا كانت طريقة العلم التي تُذكر أوصافها في كتب سير الإباضية، فكثيراً ما كان الشيخ يتنقل بطلبته في بعض فصول السنة إلى البوادي والأرياف، وتتواصل الدراسة هناك في أوقات من ليل أو نهار تحت ظلال الأشجار أو تحت الخيام أو تحت السماء في حياة كلها جد ونشاط وعمل دائب من دروس علمية للخاصة أو مواعظ للعامة، وكتب تؤلف وتستنسخ، ومجالس تنتظم للمناظرة في مختلف العلوم والفنون.

أما في فترة شبابه، فمن المؤكد أنه قد ترك قبيلته هوارة ليتلقى تعليمه في أحد المراكز العلمية التي كانت منتشرة آنذاك في أربع مدن هي سبته[4] حيث دولة بني عاصم الموالية لبني أمية والتي كانت موطن العلماء الكبار، وتاهرت[5] عاصمة الدولة الرستمية حيث الجامع المشهور والمدرسة الإباضية ذات الفقه الإباضي المدون باللغة البربرية، والقيروان[6]حيث دولة بني الأغلب الموالية للدولة العباسية، وفي سجلماسة[7]. وكانت هذه المراكز خاصة تاهرت والقيروان تشع بأنواع المعرفة عامة، وبالعلوم الدينية خاصة، حيث العلماء والأدباء من مختلف الطوائف الإسلامية والمذاهب الدينية، وكانت مجالس العلم والمناظرة في أوج نشاطها وكان الجدل يشتد أحياناً حتى يأخذ أشكالاً من الصراع المذهبي، وأحياناً أخرى يسود التسامح فتنتظم اللقاءات وتعقد الندوات بين العلماء، وتتلاقح الأفكار فلا يستنكف هذا أن يأخذ من هذا وإن لم يكن على مذهبه أو من طائفته[8].

ومما لاشك فيه أن هذه المراكز كانت دافعاً للشيخ هود أن يشد رحاله إليها طلباً للمزيد من المعرفة، وحضوراً لمجالس الدرس والمناظرة، والاتصال بالعلماء، ومما

يؤكد ذلك الاعتقاد بأنه زار هذه المراكز العلمية وتعلم فيها، وأخص بالذكر هنا تاهرت، لأن أباه محكماً قد عمل قاضياً فيها زمن الإمام أفلح بن عبد الوهاب[9].

وسواءً أطالت رحلته العلمية إلى هذه المراكز أم إلى أحدها أم قصــرت، فــإن الشيخ هود قد عاد إلى موطنه الأول وقد أصبح على قدر من العلم، واتسعت آفــاق معرفته، وكثرت تجاربه، واستقر في منطقة أوراس[10]، وأصــبح محــط أنظــار المتعلمين بل والناس عامة، يقصده المتعلمون ليقتبسوا من علمه وأخلاقه وتجاربه، ويقصده سائر الناس ليتلقوا منه التوجيهات الرشــيدة، والــرأي الســديد، والحــل المرضي لمشاكلهم، فيقضي لكل من يقصده مآربه، ويساعده في مطلبه، ومما يؤكد ذلك قول الإمام أحمد بن سعيد الشماخي: "ومنهم هود بن محكم الهواري، وهو عالم متفنن غائص، وهو صاحب التفسير المعروف، وهو كتاب جليل في تفسير كلام الله لم يتعرض فيه للنحو والإعراب بل على طريقة المتقدمين"[11].

ومما يظهر المكانة العالية التي وصل إليها الشيخ هود بين أفراد قبيلته والقبائــل المجاورة قول الشماخي عن الشيخ هود: "وأتاه من يستعينه على نوائــب الــدهر، وعلى التخلص من دين ركبه، فقال له: ائت حياً هناك من أحياء مزاته[12]، وأرسل معه رسولاً وقال له: قل لهم: قال لكم هود بن محكم اجعلوا لــه صــلة، فــبلغهم. فأعلمهم رسوله فبسط رداءه فجعلوا يلقون فيه الذهب والفضة والــدراهم والحلــي حتى كاد أن لا يُحمل، فأتى به هوداً، فأخذ ما احتاج، وترك لهود الباقي لمن يغشاه من الفقراء والمحتاجين ومن يقصده من العزابة"[13].

يتضح مما سبق أن الشيخ هود كان يتمتع بمكانة عالية بين أفراد قبيلته والقبائل المجاورة لها، كما أظهرته عالماً من علماء الإباضية، ومقصداً لكثير مــن طــلاب العلم في عصره.

أما عن شيوخه، فذُكِر أنه تتلمذ على يد أبيه محكم، والذي وصــف بأنــه كــان قاضياً عادلاً تقياً ورعاً قوياً في دينه، متيناً في أخلاقه، يجهر بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم.

وأما بالنسبة لتلاميذ الشيخ هود الذين تلقوا عنه العلم، أو تربوا على يديه، فذكر أحد الباحثين[14]أنه ليس لديه أي علم بأسمائهم؛ لأن المصادر التي بين أيدينا لم تشر إلى شيء من ذلك وهذا لا يمنع كما ذكرنا سابقاً أن الشيخ هود كان محــط أنظــار المتعلمين يقصدونه ليقتبسوا من علمه وأخلاقه وتجاربه.

يعد كتاب التفسير للشيخ هود[15] من المراجع المهمة للإباضية في التفسير، بــل جزءاً من عقيدتهم وتراثهم إذ تم جمعه وتأليفه في القرن الثالــث الهجــري، وهــو القرن الذي عاش فيه المفسر، وقد بين ذلك محقق التفسير بالحاج بن سعيد شريفي، حيث قال: "لقد بحثت في أغلب المصادر الإباضية التي وصلتنا حتى الآن وقارنت بينها فوجدت أنَّ أقدم مصدر أشار إلى تفسير الشيخ هود الهواري هو كتاب السيرة وأخبار الأئمة لأبي زكريا، هذا ما جاء فيه: وذُكر أن رجلين اختصما على تفســير هود بن محكم الهواري، حتى بلغ تشاجرهما قبيلتيهما، وكادت الثورة تقوم بينهمــا، وتصافَّ الفريقان، وكاد الشر يقع بينهم، فلما رأى ذلك أبو محمد جمــال[16] نــزع المصحف (التفسير) من بينهم فقسمه نصفين، فوافق قرطاساً بين النصفين لم يُكتب، وأعطى لكلٍّ نصفاً وزال الشر واصطلحوا"[17].

أشار المفسر في مقدمة تفسيره إلى العديد من قضايا علوم القرآن التــي منهــا القراءات وفضائل القرآن وأسباب النزول والتي تُظْهر وبشكل واضح مدى إلمــام المفسر بهذه القضايا.

ومما يؤكد ذلك حديثه في مقدمة تفسيره عن شروط المفسر حيث يقــول: "وإنــه لا يعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتي عشرة خصلة: المكــي والمــدني، والناســخ

والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص والعام، والإضمار والعربية"[18]. ولقد تعرض المفسر للعديد من هذه القضايا عند تفسيره للآيات القرآنية.

مع نهاية القرن الرابع هجري بدأت الحركة العلمية بالجزائر تعرف ازدهارا وتقدما كبيرين فأنجبت لنا هذه الفترة عديد العلماء النابغين المختصين في التفسير منهم: الإمام **أبو العباس أحمد الباغائي** (354هـ، 461هـ) الذي ذكره ياقوت الحموي في المعجم بقوله: "كان لا نظير له في علوم القرآن" فقد قام بتفسير القرآن تدريسا في جامع قرطبة، وناهيك بمكانة هذا المسجد في ذلك الوقت.

وكذلك الإمام **أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي** المتوفى سنة 402هـ الذي له تفسير للقرآن الكريم كاملا تأليفا يعد من أنفس التفاسير في ذلك الوقت وبقي متداولا بين الناس زمنا طويلا، وكان العلماء ينقلون منه في تفاسيرهم، ذكره ابن فرحون في الديباج وكذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك بقوله: "كان فقيها فاضلا متفننا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر."

وإذا انتقلنا الى القرن السادس الهجري نجد من المفسرين الإمام **أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجيلاني** المتوفى سنة 570 هـ الذي رحل إلى الأندلس ودرس بها وكان يلقب بالجاحظ، فسر القرآن الكريم في مؤلف ضخم من ثمانية مجلدات.

وكذلك نجد في هذه الفترة أيضا الإمام **أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمران** حيث درس التفسير وألف فيه كتابا وصل إلى سورة الفتح.

ومن المفسرين أيضا **أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي التوزري** المتوفى سنة 513هـ وأيضا محمد بن يوسف بن سعدة الاديب الصوفي المتوفى سنة 565هـ.

ثم جاءت فترة ازدهار علم التفسير فقد كثر الاهتمام بهذا العلم وتناوله العلماء تدريسا وتأليفا منهم: **يحيى بن محمد بن منداسي التلمساني** المفسر الفقيه الواعظ

قال الذهبي: "جمع وجاور بمكة وسمع من أبي الحسن وسكن الاسكندرية ووعظ بها من آثاره: "تفسير القرآن الكريم"، وأيضا الإمام ابو زكرياء يحيى بن على الزواوي المتوفى سنة 611 هـ الذي فسر القرآن تدريسا ولم يكمله، والإمام أبو الروح عيسى المشهور بابن يحيى السكلاني الجميري الزواوي المولود بزواوة سنة 644هـ والمتوفى بالقاهرة عام 743هـ فسر القرآن تدريسا بمصر والشام، ومنهم في هذه الفترة إمام المغرب في زمانه العلامة المجتهد أبو عبد الله الشريف التلمساني المتوفى سنة 771هـ الذي خلف آثارا علمية جليلة، وكان علم التفسير في طليعة ما يعتني به من فنون وقد دأب عليه 25 سنة كاملة.

وكذلك الإمام أبي يحيى عبد الرحمان التلمساني الذي قال عنه ابن مرزوق الحفيد: "شريف العلماء وعالم الشرفاء وآخر المفسرين" ونختم هذه الفترة بالشيخ أحمد بن محمد المسيلي المتوفى سنة 785 هـ الذي أخذ عن الإمام ابن عرفة وتبع نهجه في التفسير.

ثم نلج القرن التاسع هجري وأهم ما ميزه أنه بالرغم من وفرة الانتاج الثقافي فيه إلا أن التفسير قد ضعفت العناية به تأليفا، فكان بعض العلماء يتناولونه في مجالسهم ودروسهم ولكن قلما ألفوا فيه، ولولا تفسير **الإمام عبد الرحمان الثعالبي** (الجواهر الحسان) لما وصل إلينا تفسير مكتوب من هذا القرن، وينسب لعبد الكريم المغيلي المتوفى سنة 909هـ تفسير بعنوان (البدر المنير في علم التفسير) وينسب أيضا لأبي جميل ابراهيم بن فائد الزواوي تفسير مكتوب للقرآن لكننا لا نعرف أنه وصل إلينا منهما شيء يذكر.

ونعود إلى الثعالبي فهو مفخرة الجزائر وإمامها في زمانه ولد عام 786هـ، وألف نحو مائة مصنف في شتى العلوم أهمها تفسيره المسمى (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) والذي انتهى منه في 25 ربيع الأول سنة 833هـ وقد طبع عدة مرات، توفي –رحمه الله– في العاصمة عام 874هـ.

وكذلك نجد في هذه الفترة أيضا الإمام **أبو الفضل محمـــد المشـــدالي** المولـــود ببجاية سنة 822هـــ، طلب العلم ببجاية وتلمسان ثم رحل إلـــى المشـــرق واســـتقر بمصر مدرسا بجامع الأزهر، قال عنه الإمام الســـخاوي فـــي الضـــوء اللامـــع: "حضرت درسه في الأزهر فظهر لي أنني ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفســـه" ثم قال أيضا: "هو آية أبرزه الله في هذا العصر للعباد" وقال عنه الإمام ابن شاهين: "هذا الرجل لا ينبغي أن يحضر دروسه إلا حذاق العلماء" درس التفسير في القاهرة وتوفي بها عام 864هــ..

أما الفترة ما بين بداية القرن العاشر إلى نهاية الحادي عشر، فقـــد انتهـــت دون وجود تأليف واحد في التفسير وذلك راجع للوجود العثماني بالجزائر فقد برزت في هذه الفترة وتنامت ظاهرة التقليد والجمود الفكري بالإضافة إلـــى تخلـــف الثقافـــة عموما فكانت هذه العوامل بالإضافة إلى أخرى مسؤولة عن ندرة الإنتاج الفكـــري عامة والتفسير خاصة، ذلك أن مفسر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية وتاريخية ولغوية قوية لكي يقدم على عمله بالإضافة إلى استقلال عقلي كبير وهذا لم يتـــوفر إلا لقلائل من العلماء الجزائريين في تلك الفترة، ذلك أن مجال الثقافة كان محدودا، وإذا توفر جانب من جوانبها المذكورة فإن باقي الجوانب لا تتوفر.

ورغم ما ذكرناه فقد وجد من العلماء من قام بالتفسير تدريسا، بل إن بعضهم قد ختم تفسير القرآن كاملا مثل **ابن لؤلؤ التلمساني** الذي ختمه في الجـــامع الأعظـــم بتلمسان، وكان منهجه يعتمد على المعاني الظاهرة كما كان يعتمد طريقة القـــدماء في الاستدلال والاستنتاج، وكذلك الشيخ **أبا عبد الله بن خليفة الجزائري** المتـــوفى سنة 1094هـــ الذي ختم التفسير تدريسا كاملا أيضا.

وممن تناولوا التفسير تدريسا في تلك الفترة الإمـــام **عبـــد القـــادر الراشـــدي القسنطيني** (111هـــ 1194هـــ) وهو عالم مجتهد له آراء تجديدية اصطدمت بالجمود

الفكري الذي ميز عصره فمواقفه وآثاره تجعلنا نتصور أن في تفسيره شـيئا مـن الخروج على المألوف وعدم التقيد بنصوص وآراء الأقدمين، وأيضا نجـد الإمـام **أحمد المقري** الذي درس التفسير في الجامع الأعظم بالعاصـمة عنـدما أخرجتـه الظروف السياسية من المغرب ولكن إقامته لم تطل فقد توجه بعدها إلى المشرق.

ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن هناك مفسرين آخرين غير هـؤلاء فـ**الـوزان والأنصاري** كانوا من مفسري القرآن في دروسهم، وكذلك القاضي أبي الحسن علي الذي كان بارعا فيه حتى اشتهر به وتسابق الناس على درسـه بالجـامع الكبيـر، وأيضا هناك **يحيى الشاوي** الذي وضع أجوبة على اعتراضات أبي حيان على ابن عطية والزمخشري لكنه لم يرتق إلى أن يعتبر بمثابة التفسير.

ومن العلماء الذين ألفوا في التفسير إبان القرن الثاني عشر الشيخ أحمد البـوني وأيضا حسين العنابي، وعنوان تأليف البوني (الدر النظيم في فضـل آيـات مـن القرآن العظيم). ويبدو من العنوان أنه لم يتناول التفسير بالمعنى المتعـارف عليـه وإنما خص بعض الآيات فقط، أما العنابي فقد ذكر حفيده محمد بن محمود العنابي أن لجده تفسيرا للقرآن العظيم، وقد نقل منه عدة مرات مستشهدا بكلامه.

وهناك عالمان متعاصران ألف كلاهما في التفسير وهمـا **أبـوراس الناصـر ومحمد الزجاي**، أما الاول، فله (التيسير إلى علم التفسير)، أما الثاني فله (تفسـير الخمسة الأولى) وهو تعبير غير واضح فهل هو تفسير السور الخمس الأولـى أو الأجزاء الخمس الأولى. وعلى كل حال فهو تعبير يدل على أن العمل غير كامل.

ثم جاءت الحملة الاستخرابية الفرنسية على الجزائر فجعـل العلمـاء مهمـتهم الرئيسية هي دعم المقاومة المسلحة ضد المحتل بل قيادتها في أحايين كثيرة.

ورغم هذه المهمة الجديدة التي شغلت جل أوقات علمائنا في تلك الفتـرة إلا أنهـم قاموا بمهمة الإصلاح والتعليم على أكمل وجه وكان نصيب تفسير القرآن منها وفيرا.

فقد كان العنابي ممن كان لهم إسهام في التفسير وأيضا يحيى بن محمد الميلي الجمالي وكذلك عثمان بن سعيد المالقي التلمساني الذي خلف تفسيرين هما: التفسير الكبير والتفسير الصغير، ويذكر المؤرخون أيضا أن الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري كان له إسهام في التفسير ويشهد له كتابه (المواقف) أنه فسر بعض الآيات على الطريقة الصوفية.

ومع بداية تراجع المقاومة المسلحة ظهرت الحركة الاصلاحية في الجزائر والتي تزعمها وقادها علماء أجلاء، فكان تفسير القرآن من أهم العلوم التي ركز عليه العلماء في دعوتهم الإصلاحية أمثال: الشيخ محمد بن يوسف أطفيش الذي درس وألف في التفسير وسمى كتابه (تيسير التفسير) والذي طبع بالمكتبة العربية بالقرارة.

وممن ختموا التفسير تدريسا في الفترة الاستعمارية **إمام النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس** -رحمه الله- والذي بدأه سنة 1332هـ وختمه سنة 1357هـ وأقيم له حفل كبير حضره العلماء من جميع أنحاء الوطن وقال فيه شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة:

ختمت كتاب الله ختمة دارس يصير له حل العويص يسير
فكم لك في القرآن فهم موفق وكم لك في القرآن قول محدد

ومن المفسرين أيضا في تلك الفترة الشيخ الطاهر العبيدي من تقرت والشيخ الطيب المهاجي -رحمهما الله.

بعد استقلال الجزائر عرفت العلوم الشرعية تراجعا كبيرا وبخاصة علم التفسير، حيث قل المفسرون للقرآن الكريم وهذا راجع لعدة أسباب سياسية واجتماعية وثقافية كثيرة ليس هذا مجال بسطها.

لكن رغم هذه الظروف لم تخل البلاد من علماء فسروا كتاب الله تدريسا وتأليفا منهم: الشيخ إبراهيم بيوض -رحمه الله- الذي ختم التفسير سنة 1400هـ بمدينة القرارة بغرداية في حفل بهيج أقيم بمناسبة هذا الختم. ومن قاموا بالتفسير تدريسا

أيضا مفتي قسنطينة العلامة مرزوق بن الشيخ الحسين –رحمه الله– الذي فسر بعض سور القرآن في الجامع الكبير، وكذلك الشيخ بنعزوز القاسمي الهاملي –رحمه الله– وأيضا الأستاذ الكبير محمد الصالح الصديق في بعض كتبه ومقالاته.و العلامة أبو بكر جابر الجزائري –رحمه الله– والذي فسره تدريسا في المسجد النبوي ونشره تأليفا في كتابه (أيسر التفاسير إلى كلام العلي الكبير).

2/ **من رواد علم الضبط:** القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، من اهتدى به هداه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. ولما كان القرآن بهذه المنزلة العظيمة، أمر الله عز وجل بتدبره وفهم آياته والعمل بما تحمله من تكاليف، فقال: **"أفلا يتدبَّرون القرآن أمْ على قلوبٍ أقفالُها"** –الآية 24 من سورة محمد– لذلك كان علم التفسير من أجلّ العلوم وأشرفها، وقد بينا كيف اعتنى علماء الجزائر بهذا العلم في العنصر الأول، كما كانت مساهمة في علوم دينية أخرى، نحو علم الضبط، ولعل من نذكره هنا من علمائنا **الحافظ التّنسي فاسمه مدون بأحرف من ذهب في ضبط المصحف الشريف.**

التنسي هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل بن عبد الله المغراوي الأمويّ التنسي التّلمساني، من علماء القرن التّاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي. إمام ومحدث ومقرئ وفقيه مشهور باسم الحافظ التّنسي. ولد حوالي سنة (820هـ/1417م، بمدينة **تنس بالجزائر** التي كانت حاضرة ومركزا علميا وميناء تجاريا هامّا بالمغرب الأوسط في العهد الزياني.[19]

شيوخه وطلبه العلم: نشأ الحافظ التنسي ببلدته وكان أبوه الإمام العلامة أبو محمد عبد الله التنسي أول شيوخه،ثم انتقل إلى **تلمسان** واستقرّ بها وأخذ عن علمائها ومنهم:

الحفيد بن مرزوق: (766هـ 1365م–842هـ 1438م**)** مفتي حاضرة تلمسان بوقته. كان من كبار علماء الغرب الإسلامي، عالم بالفقه والأصول والحديث والأدب، أخذ عن أبي عثمان سعيد العقباني وجده **الخطيب شمس الدين محمد بن مرزوق** وجماعة من العلماء. من مؤلفاته: "المفاتيح المرزوقية لحل الأقفال واستخراج خبايا الخزرجية" و"أنواع الذّراري في مكررات البخاري" و"نور اليقين في شرح أولياء الله المتقين" و"تفسير سورة الإخلاص" و"ثلاثة شروح على البردة" و"المتجر الرّبيح والمسعى الرّجيح في شرح الجامع الصحيح" وغيرها.

أبو الفضل بن الإمام التلمساني (توفي سنة 845هـ 1441م**)**: محمد بن إبراهيم بن الإمام أبي زيد عبد الرحمن بن الإمام البرشكي التنسي التلمساني، من أعلام تلمسان بوقته، كان مشاركا بجميع الفنون العقلية والنّقلية. قال عنه الحافظ التنسي: "شيخنا صدر البلغاء وتاج العارفين وأظروفة الزمان أبو الفضل."

أحمد بن زاغو التلمساني (782هـ 1380م ـ 845هـ 1441م**):** أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني. من أكابر علماء تلمسان بوقته. برع في التفسير خاصة وفي جميع الفنون، أخذ عنه جماعة من كبار علماء تلمسان منهم مفتي حاضرة تلمسان **أحمد بن زكري**. من تآليفه "مقدمة في التفسير."

محمد بن النجار التلمساني (توفي سنة 848هـ 1444م**):** أبو عبد الله محمد بن أحمد بن النجار التلمساني، من فقهاء تلمسان ومفسريها، كان مشاركا في العديد من الفنون.

قاسم بن سعيد العقباني (توفي سنة 854هـ 1450م**)**: قاضي حاضرة تلمسان بوقته. وهو كبير بيت العقباني بزمنه، أخذ عن أبيه **الإمام العالم أبي عثمان سعيد العقباني** وجماعة من العلماء. قال عنه التنسي: "شيخنا الإمام العلامة، وحيد دهره وفريد عصره."

الحسن بن مخلوف أبركان (توفي سنة 857هـ 1435م): الحسن بن مخلوف بن سعد المزيلي الراشدي. من كبار أولياء تلمسان وعلمائها، ترجم له ابن صعد في روضة النسرين.

إبراهيم بن محمد التازي (توفي سنة 866هـ 1462م): أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي نزيل **وهران**، تلميذ **الإمام الهواري** وخليفته بوهران. كان من أئمة الفقه وعلوم القرآن والحديث، وكان أيضا صوفيا وشاعرا مجيدا.

محمد بن العباس التلمساني (توفي سنة 871هـ 1467م): المالكي الشهير بابن العباس التلمساني، شيخ شيوخ وقته في تلمسان، من كتبه "تحقيق المقال وتسهيل المنال في شرح لامية الأفعال" في الصرف (شرح لامية الأفعال لابن مالك)، و"شرح جمل الخونجي" في المنطق، و"العروة الوثقى في تنزيه الأنبياء عن فرية الإلقاء " درس وأفتى بتلمسان.

تلاميذته: كان **للتنسي** تلاميذ كثيرون، وكان غالبهم يأخذ عنه بالمدرسة اليعقوبية وبالمسجد وكان يدرّس أيضا بمنزله بـ"باب الحديد، ومنهم:

أبو جعفر البلوي(توفي سنة 938هـ 1532م) :أحمد بن علي بن داود البلوي الوادي آشي الأندلسي. العالم الرحالة الشهير. نزل تلمسان مع أبيه وإخوته ثم ارتحل بعدها إلى المشرق. ذكر إجازات التنسي له في ثبته، افتتحها بما قرأه التنسي على شيخه التازي: "قرأ عليِّ الفقيه النبيل المشارك المتفنن أبو العباس أحمد بن علي بن داود الأندلسي جل ما في هذا الجزء من قصائد شيخنا الفقيه العارف الصوفي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد اللّنتي التازي، أفاض الله علينا وعليه من أنواره، حسب قراءتي إياها على ناظمها"...

محمد بن صعد التلمساني (توفي سنة 901هـ 1496م)**:** محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن صعد الأنصاري التلمساني، صاحب "النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب" و"روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين."

ابن مرزوق حفيد الحفيد (توفي بعد سنة 920هـ 1514م)**:** محمد بن أحمد بن محمد بن أبي يحي بن أحمد بن الخطيب شمس الدين بن مرزوق وأمه السيدة حفصة بنت الحفيد بن مرزوق وأخت الكفيف، يقال له أيضا سبط الحفيد. كان خطيبا وعالما جامعا مشاركا في جميع الفنون وهو آخر كبار العلماء من آل ابن مرزوق.

أبو عبد الله بن العباس التلمساني (توفي بعد سنة 920هـ 1514م)**:** أبو عبد الله محمد بن الإمام أبي عبد الله محمد بن العباس التلمساني. من مؤلفاته: "شرح المسائل المشكلات في مورد الظمآن". لازم الحافظ التنسي عشر سنوات وأخذ عنه وقال في ذلك: "لازمت مجلس الشيخ الفقيه العالم الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام وحضرت إقراءه تفسيرا وحديثا وفقها وعربية وغيرها"

أحمد بن الحاج التلمساني (توفي حوالي سنة 930هـ 1524م): أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان المناوي الورنيدي البيدري التلمساني الشهير بابن الحاج الورنيدي، أحد أعلام تلمسان بزمنه، نشأ بكفالة الشيخ أحمد بن زكري وكان مشاركا بجميع الفنون. من مؤلفاته "جلوّ الحناديس عن سينية ابن باديس."

أحمد زروق الفاسي (846هـ 1442مـ 899هـ 1493م)**:** أحمد بن أحمد بن محمد البرنسي الفاسي الشهير بزروق، من أشهر العلماء والمتصوفين بالقرن التاسع الهجري، كان رحالة كثير الأسفار أخذ عن علماء المغرب والمشرق، توفي بمصراتة. من مؤلفاته: "الجُنّة للمعتصم من البدع بالسنّة" و"قواعد التصوف."

بلقاسم الزواوي (توفي بعد سنة 922هـ 1516م)**:** من كبار أصحاب الإمام السنوسي، أخذ عن علماء تلمسان ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه. من مؤلفاته: "شرح على الرجز للضرير المراكشي."

- **عبد الله بن جلال الوعزاني:** من علماء تلمسان، أخذ عنه محمد بن موسى الوجديجي تلميذ السنوسي وهو عمّ مفتي تلمسان وعالمها محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني نزيل فاس ثم مفتيها.

مكانته العلميّة وثناء العلماء عليه: كان القرن التاسع الهجري العصر الذهبي لعلماء تلمسان وبلاد المغرب الأوسط عامة، ظهر فيه الكثير من العلماء الأعلام و"كان التنسي شخصية علمية مشاركا في جميع الفنون" وقد احتل مكانة جد مرموقة بين علماء عصره. وكان بالدرجة الأولى من حفاظ ورواة الحديث والمختصّين بعلومه حتى عرف بـ"حافظ عصره". قال المبارك الميلي: "وانتهت رئاسة الحديث وسائر الفنون في القرن التاسع إلى الحافظ التنسي". ومن عنايته بالحديث نسخه بخط يده لـ"فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجر العسقلاني.

كما عرف الامام التنسي باهتمامه الكبير بالأدب شعراً ونثراً، وكثير اهتمامه بالتاريخ. وإذا كان معاصروه والمترجمون له، قد انتبهوا لقوة حافظته، ولسعة اطلاعه، ولتبحره في علم الحديث النبوي الشريف، وفي الفقه فإننا نلاحظ أنهم حرصوا كل الحرص، على إظهار ميله إلى التاريخ والأدب، مع أن الاهتمام بالمادتين كما هو معروف، كان قليلا في ذلك العصر الذي تغلبت فيه العلوم الدينية والتصوف على الحياة العلمية، فوصفه أحمد الونشريسي بـ"الفقيه، التاريخي، الحافظ، الأديب، الشاعر". وقد ذكر أبو العباس أحمد المقري أن التنسي كان ينتقد ويعلق على قصائد الشعراء ومنهم الشاعر الأديب ابن الخطيب،

اشتهر الإمام التنسي أيضا بالإفتاء كباقي كبار العلماء. ومما يثبت تمكنـــه مـــن الإفتاء، جوابه الطويل في «قضية يهود توات»، والتي اختلف فيها الشيخ محمد بـــن عبد الكريم المغيلي مع قاضي توات عبد الله بن أبي بكر العصنوني. وقد بسط هذه النازلة الإمام أحمد بن يحي الونشريسي في موسوعته الفقهية" المعيار المعرب "تحت عنوان "نازلة يهود توات من قصور صحراء المغرب الأوسط"، وذكر الونشريسي جواب الحافظ التنسي في 16 صفحة بدايته:

"ولصاحبنا الفقيه الحافظ الجليل أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليـــل التنسي جواب على مسألة كنائس اليهود المحدثة بالقصور التواتية رأيت إثباته هنـــا لما اشتمل عليه من الفوائد ونصه" وقد أظهر التنســـي فـــي جوابـــه موســـوعيته وإحاطته وتمكنه من الحديث والفقه وأقـــوال العلمـــاء. وأعقبـــه بجـــواب الشـــيخ السنوسي المؤيد لجوابه بعد اطّلاعه عليه ومنه ما قاله السنوســـي مخاطبـــا الشـــيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي مشيدا بالتنسي وعلمه وشجاعته في قول الحق: "فاعلم يا أخي أني لم أر من وُفّق لإجابة هذا المقصد وبذل وسعه قي تحقيق الحق وشـــفي غليل أهل الإيمان في هذه المسألة ولم يلتفت لأجل قوة إيمانه ونصوع إيقانه إلى ما يشير به الوهم الشيطاني من مداهنة بعض من تُتقى شوكته ويُخشى أن يقـــع علـــى يديه إضرار أو حط في المنزلة سوى الشيخ الإمام القدوة علـــم الأعـــلام الحـــافظ المحقق أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسي، بارك الله تعالى له ومتعه ومتـــع المسلمين ببقائه".

لقد احتل الإمام التنسي منزلة رفيعة بين العلماء، تدل على ذلك تلـــك الألقـــاب والنعوت التي أطلقها عليه معاصروه وتلامذته والعلماء الذي ترجموا له، فقد سموه بالحافظ، وأصبحت الكلمة التي تدل على إتقانه لعلوم الحـــديث النبـــوي الشـــريف

وحفظه، مقرونة باسمه. فلم يدع في كتب التراجم، إلا باسم الحافظ التنسي أو بالإمام. كما اختص التنسي بالوصف بالأديب والشاعر وبالمؤرخ.

وقد سماه تلميذه أحمد ابن داوود البلوي الأندلسي "بقية الحفاظ، وقدوة الأدباء، وذكر عن البلوي أنه لما خرج من تلمسان سئل عن علمائها فقال: "العلم مع التنسي والصلاح مع السنوسي والرياسة مع ابن زكري."

ووصفه الإمام السنوسي بـ"الشيخ الإمام القدوة علم الأعلام الحافظ المحقق." ووصفه الونشريسي بـ "الفقيه الحافظ الجليل و "الفقيه، التاريخي، الحافظ، الأديب، الشاعر.

وقال عنه السخاوي المصري وهو من معاصريه: "مشار إليه بالعلم وله تصانيف.

ووصفه ابن مريم التلمساني في البستان بـ"الفقيه الجليل الحافظ الأديب المطلع كان من أكابر علماء تلمسان الجلة ومحققيها.

آثاره: إن آثار الإمام محمد التنسي تدل على المنزلة المرموقة التي اكتسبها بين معاصريه، في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي الذي زخر بالعلماء، وبرز فيه عدد كبير منهم في المغرب الأوسط، فقد ترك مؤلفات في علوم متعددة تدل على تبحره وسعة علمه منها:

- **الطراز في شرح ضبط الخراز:** وهو من أشهر مؤلفاته في فن الضبط وهو علم يعرف به ما يدل على عوارض الحرف، التي هي الفتح والضم والسكون والكسر والشدّ والمدّ ونحو ذلك، ويرادف الضبط الشكل.

يعتبر كتاب "الطراز في شرح ضبط الخراز" أشهر شروح الضبط للخراز، وأيسرها شرقا وغربا، ولذلك كانت نسخه الخطية متوافرة وبأعداد ضخمة وذلك يدل على شهرته وأهميته وانتشاره وصفه أبو جعفر أحمد بن علي البلوي تلميذ مؤلفه بقوله: "أجاد فيه وأفاد، وأحسن ما شاء وأراد" شرح به منظومة مورد

الضمآن في رسم أحرف القرآن لأبي عبد الله الشريشي الشهير بالخراز، وهو أرجوزة في ضبط رسم القرآن الكريم، وما قام بشرحه محمد التنسي هو قسم من أرجوزة طويلة خصص منها صاحبها الخراز 454 بيتا للرسم، والباقي وهو 154 بيتا للضبط، ومنظومة أبي عبد الله الشريشي استهلها بقوله:

وها أنا اتبعه بالضبط   هذا تمام نظم رسم الخط

على الذي ألفيته معهودا   كي ما يكون جامعا مفيدا

- نظم الدر والعقيان، في بيان شرف بني زيان، وذكر ملوكهم الأعيان، ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان:

وهو موسوعة تاريخية وأدبية كبيرة من خمسة أجزاء، أولها في تاريخ بني زيان والمغرب الأوسط وذكر دولتهم وملوكهم إلى زمنه. والأجزاء الأخرى متنوعة المحتوى والمضمون.

- راح الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح:

جمع فيه القصائد، التي قالها الملك الأديب أبو حمو موسى الثاني، من أسرة بني عبد الواد، الذي تربع على عرش المغرب الأوسط من سنة 760هـ إلى سنة 791هـ (1359/1389م). كما يضم الكتاب القصائد التي مدح بها هذا الملك، بعض معاصريه من شعراء تلمسان. وقد اشتهر من بينهم محمد بن يوسف القيسي الثغري، ومحمد بن أبي جمعة الشهير بالتلالسي. وهذا الكتاب في حكم المفقود أيضا، لكن أحمد المقري نقل منه نقولا وفقرات طويلة في موسوعته الأدبية "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" وفي كتابه الثاني "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض."

- فهرسته وفيها ذكر لشيوخه ومرويّاته ، وأثباتـه وقـد ذكرهـا عبـد الحـي الكتاني في "فهرس الفهارس."
- جواب نازلة يهود توات: رسالة مطولة تتضمن فتوى نازلة يهود تـوات مـع تعقيب الشيخ السنوسي
- منظومة مختصر التلمسانية: وهو مختصر للأرجوزة التلمسانية في الفـرائض لأبي إسحاق إبراهيم بن أبي بكر الوشقي التلمساني .لم يخرجه بعد علمـه بوجـود مختصر شيخه الحفيد ابن مرزوق للتلمسانية المسمى بـ"منتهى الأماني.
- تعليق على مختصر ابن الحاجب: انفرد بذكره التنبكتي غير جازم بذلك وقـال "و سمعت أن له تعليقا على فرعي ابن الحاجب."
- كتاب في إسلام أبي طالب: انفرد بذكره السخاوي بصيغة الظن وقال "بل قيـل إنه صنف في إسلام أبي طالب.

وفاته: توفي الحافظ التنسي في شهر جمادى الأولى سـنة 899هـ الموافـق لفبراير من سنة 1494م بمدينة تلمسان، بعد أن عاش حياة كرسـها لنشـر العلـم والتأليف والتدريس.

3/ **من رواد علم القراءات:** لقد اشتهر في علم القراءات علماء جهابذة، تركـوا العديد من التآليف، إلا أن أكثر هذه التآليف لا تزال مخطوطة أو في حكم المفقودة، وقد جمع لنا أحد الباحثين أشهر المؤلفين مع الإشارة إلى تـآليفهم فقـط، وأشـهر المؤلفين في القراءات هم:

1- **المقرئ الشهير الشيخ علي الزواوي:** وهو أحد مشـايخ عبـد الرحمـان الثعالبي، وقد اشتهر بالجزائر العاصمة، وأطلق اسمه على حي من أحياء العاصمة، خارج باب عزون، "قرب المركز الثقافي الإسلامي، التابع لوزارة الشؤون الدينيـة

والأوقاف، وقد احتفظ لنا التاريخ بتأليف من تآليفه العديدة فـــي القـــراءات. وهـــو بالضبط في: "الوقف"[20].

2- **محمد بن أحمد الوهراني:** ومن المؤلفين في القراءات فـــي نهايـــة القـــرن التاسع الهجري محمد شقرون بن أحمد المغراوي الوهراني، فقد ألف عمـــلا فـــي القراءات سماه: "تقريب النافع في الطرق العشر لنافع"، وهي عبارة عـــن قصـــيدة مملامية، تحتوي على اثنين وثلاثمائة بيت (302).، تبدأ هكذا:

بـــدأت بحمـــد الله معتصـــما بـــه	نظامـــا بـــديعا مكمـــلا ومســـهلا
وثنيت بعـــد بالصـــلاة علـــى الرضـــا	محمـــد والآل والصـــحب أشـــملا
وبعـــد فلمـــا كـــان مقـــرأ نـــافع	أجـــل مقـــارئ القـــرآن وأفضـــلا
لمـــا قيـــل فيـــه إنـــه بـــدار هجـــرة	ســـنة خيـــر المرســـلين وكيـــف لا
أتيـــت بـــنظم فـــي روايتـــه التـــي	بعشرســـميت كيمـــا يكـــون محصـــلا[21]

والكتاب ما يزال مخطوطا ضمن مخطوطـــات بـــاريس، وبالمكتبـــة الملكيـــة بالرباط[22]. ويبدو أن محمد الوهراني قد شرح هذه القصيدة بعد ذلك فـــي رســـالة مبتورة، لا تزال مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس إلى يومنا هذا[23].

3- **محمد ابن مرزوق الحفيد:** ولد في تلمسان سنة 766هـــ/1365م، وتوفي في تلمسان سنة 842هـــ/1439م، نعته المؤرخون بأنـــه "الفقيـــه، المجتهـــد الأبـــرع، الأصولي، المفسّر، المحدث الحافظ، المسند الراوية، الأســـتاذ المقـــرئ المجـــوّد، النحوي البياني العروضي، الصوفي المسلك..."[24] من أشهر تلاميذه أبـــو يحيـــى الشريف التلمساني، المازوني، القلصادي، التنسي، كلهم قرأوا عليه جملة من العلوم والكتب، ومن بينها قصيدة الشاطبي في القراءات وقد ذكر ابن مريم في البستان أن

ابن مرزوق الحفيد قد ألف عدداً كبيراً من الأعمال من بينها "أرجوزة ألفيــة فــي محاذاة الشاطبية"[25].

4- **محمد بن عبد الله التنسي:** وقد ذكرناه في العنصر السابق.

5- **محمد ابن أحمد المصمودي:** ومن المؤلفين أيضا في القراءات محمــد بــن أحمد المصمودي المتوفى سنة 897هـ الذي وضع رجزا في القراءات سماه، "المنحة المحكية للمبتدئ القراءة المكية"، تناول فيه أوجه الخلاف بين قراءة عبد الله المكي وقراءة الإمام نافع، وقد ابتدأه بسورة البقرة وانتهى بسورة الناس، وهو رجز سهل، ومما جاء فيه:

يقــــول عبــــد العظــــيم الجــــودي   محمــــد بــــن أحمــــد المصــــمودي
وبعــــد فالقصــــد بــــذا النظــــام   تقريــــب فهــــم مقــــرأ الإمــــام
الفاضــــل الســــني عبــــد الله   نجــــل كثيــــر ذي الثنــــا والجــــاه
نزيــــل مكــــة التــــي قــــد شــــرفت   بالبيــــت ذي الأمــــن العمــــيم واكتفــــت
وذا كفيمــــا خــــالف الإمامــــا   المرتضــــى نافعــــاً علــــى مــــا[26]

6- **عبد الكريم الفكون:** كما أسهم عبد الكريم الفكون صاحب "منشور الهدايــة في كشف حال من ادعى العلم والولاية" المتوفى سنة 1073هـ/1662م، أيضاً بالتأليف في القراءات فقد ذكر أنه ألف عملا سماه "سربال الردة في من جعل السبعين لرواة الإقراء عدة"[27]، وهو تأليف غني بالآراء والنقول، عالج فيــه أنــواع القــراءات ورواتها وغير ذلك مما يتصل بهذا الموضوع[28].

7- **أحمد بن ثابت التلمساني:** ومن المؤلفين في القراءات أيضاً، أحمد بــن ثابــت المتوفى في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وقد درس على يد شيخه محمــد بــن توزينت التلمساني، وهو من مشاهير القراء، وقد تخرج على يده العديد مــن التلاميــذ،

كما ألف تقييدا في القراءات، وهو في حكم المفقود الآن، ذكره تلميذه أحمد بن ثابت، ونوّه به. وقد ألف أحمد بن ثابت هذا رسالة في القراءات، لا تزال مخطوطة بالمكتبة الوطنية، وقد سماها: "الرسالة الغراء في ترتيب أوجه القراء"[29].

اعتمد فيها على المؤلفين السابقين في هذا العلم أمثال الشاطبي وابن الجزري وغيرهم كما ألف أحمد ابن ثابت التلمساني أيضا رسالة في علم القراءات هي عبارة عن منظومة شعرية مطلعها:

إذا أردت الختم للمكي من الضحى يروى عن النبي

كما قام بشرح هذه الأبيات تلبية لمن طلب منه ذلك، في رسالة مبتورة، لا تزال مخطوطة بالمكتبة الوطنية إلى يومنا هذا[30].

8- **الشيخ محمد أبو القاسم البوجليلي** (1829م-1898م): وهو من أبرز المتخرجين المجازين في علم القراءات من زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي وقد ألف كتابا تحت عنوان: "التبصرة في القراءات العشر"، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر هجري[31] وهو على صغر حجمه يزخر بالفوائد، وأبرز ما فيه استعراضه لمعظم المقرئين ببلاد زواوة في عهده والكتاب ما يزال مخطوطا.

9- **علي بن الحفاف:** ومن أواخر المقرئين في الجزائر هو العلامة علي بن الحفاف، المفتي المالكي بالجزائر في عهده، أدركه الاحتلال الفرنسي في ريعان الشباب فالتحق بجيش الأمير عبد القادر، فعينه الأمير كاتبه الخاص، وبعد عودته من الحج ألف رسالة في القراءات، وبالضبط في حكم البسملة في الفاتحة في الصلاة، سماها "الدقائق المفصلة في تحرير آية البسملة"، كما ألف مترجمنا علي بن الحفاف تأليفا ضخما قيما في القراءات، سماه: "منة المتعال في تكميل الاستدلال" تناقله المقرئون والطلاب، وواظب مدة حياته على تدريسه[32].

4/ **من رواد علم الحديث:** هو الإمام المحدث المجتهد الحافظ الفقيه أبو جعفر أحمد بن نصر الداودي المالكي المسيلي أو البسكري التلمساني المتوفي سنة 402هـ 1011م. محدث لأنه كان من أئمة الحديث وحفاظه وفقيه لأنه كان أحد فقهاء المالكية المشهورين في عصره وله اجتهاداته وآراؤه التي كانت محل عناية واهتمام العلماء. الطرابلسي، المسيلي، البسكري، التلمساني.

وقد ترجم **للداودي** الكثير من كتاب التراجم والسير مثل القاضي عياض في "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك" وابن فرحون في"الديباج المذهب"ۏالذهبي في "تاريخ الإسلام" وعبد الرحمن الجيلالي في تاريخ الجزائر والحفناوي في"تعريف الخلف برجال السلف "والزركلي في "الأعلام"وعادل نويهض في "أعلام الجزائر وأغلبهم ذكره ذكرا مقتضبا عابرا والمهم أنهم أشاروا إليه وأثنوا عليه وحفظوا لنا اسمه. ويخلط بعض المترجمين بينه وبين شبيه له في الاسم هو أبو جعفر أحمد بن نصر الهواري وهو أيضا أحد علماء المذهب المالكي في بلادنا.

مولده ونشأته ولد الداودي في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي في المسيلة وقيل في بسكرة وأعتقد أنه ولد في بسكرة وحفظ القرآن في مسقط رأسه كما أخذ العلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وبعض مختصرات الفقه المالكي بمسقط رأسه وعاش وجلس للتدريس وحدث بالمسيلة قبل الانتقال إلى طرابلس الغرب حسب ما ورد في ترجمة أحد تلاميذه وهو أحمد بن محمد بن عبيدة المعروف بابن ميمون.

أقوال العلماء فيه: حفلت كتب التراجم بالثناء على الداودي والإقرار بمكانته العالية في العلم وخاصة في علوم اللغة والفقه وبالخصوص الحديث الذي له فيه اليد الطولى.

فقال عنه الذهبي المتوفي 748: كان ذا حظ من الفصاحة والجدل --وقال عنه القاضي عياض المتوفي سنة 544: "من أئمة المالكية بالمغرب والمتسعين في العلم، المجيدين للتأليف، كان فقيها فاضلا عالما متفننا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر".--- ووصفه الإمام السهيلي المتوفي سنة 581 في كتاب "الروض الآنف" وصفه أنه من أهل الثقة والعلم.

--وقال عنه ابن فرحون المتوفي سنة 799 "كان فقيها فاضلا متقنا مؤلفا مجيدا له حظ من اللسان والحديث والنظر".-- وقال عنه بن صعد التلمساني المتوفي 901 "كان رحمه الله علامة العلماء من أكابر الأولياء مشهور بإجابة الدعاء، كان من ائمة المالكية بالمغرب وكان فقيها فاضلا إماما مفيدا"--- . وقرنه أبو العباس الفقيه بعدد من العلماء المشاهير فقال "وقد نقل الثقات الأثبات العلماء المحققون لما ينقلون كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي الحسن علي بن خلف ،وأبي جعفر أحمد بن نصر، وأبي عمر ابن عبد البر، وأبي الوليد الباجي، وابي بكر أحمد بن الحسين البيهقي" ---- وقال بن عرفة: يمدح مدينة تلمسان وأن من مفاخرها أن يكون الداودي مدفونا بها فقال:

ومن بها أهل الذكاء والفطن في رابع من الأقاليم قطن
يكفيك أن الداودي بها دفن مع ضجيعه ابن غزلون الفطن

ويكفي على دلالة مكانته الكبيرة بين علماء الحديث أن جميع شراح صحيح البخاري نقلوا عنه نقولا كثيرة باستثناء معاصره الخطابي والمختلف في من منهما الأول الذي شرح البخاري.

وقد حظيت كتب الداودي وأقواله باهتمام كبير عند العلماء كابن حجر في شرح البخاري وابن التين وهو المصدر الرئيسي لآراء الداودي وأقواله في غياب شرح الداودي وابن التين هذا هو الذي ينقل عن طريقه ابن حجر العسقلاني وبدر الدين

العيني كثيرا من آرائه. والقاضي عياض الذي يأتي شرح الـداودي فـي المرتبـة الخامسة الذي ينقل عنه. وابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري المشهور فـي شرح صحيح البخاري الذي يذكر الداودي في أكثر من 547 موضـعا فـي كتابـه المشهور ويذكر ابن حجر في شرحه أنه ينقل عنه في باب الرواية والدراية ويقول عنه "أما رواية الداودي فهي أعلى الروايات لنا من حيث العدد." وشـرح الموطـأ وشرح البخاري هما الكتابان اللذان اعتمد عليها الكثير من شراح الحديث ونقل عنه بدر الدين العيني في كتابه "عمدة القارئ "وذكره في أكثر من 600 موضعا. وسـجل له الونشريسي بعض الفتاوى في المعيار.

استقر الداودي في تلمسان وألف بها معظم كتبه. وفيها توفي ودفـن سـنة 402 على أرجح الأقوال كما يقول حاتم الطرابلسي في ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. وهو معاصر له {توفي بتلمسان سنة اثنتين وأربعمائـة وقبره عند باب العقبة وهو من أولياء تلمسان المشهورين.

مؤلفاته: من مؤلفات أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي:

- **النصيحة** في شرح صحيح البخاري وهذا الذي كنا نتكلم عنه وقلنا أن الكثير من شراح البخاري نقلوا عنه، وهذا أشهر كتاب في الحديث وفتح البـاري نجـده يذكره في أكثر من 547 موضعا وهو أول شرح لصحيح البخـاري فـي إفريقيـا. وكتبه في تلمسان.

- **النامي** في شرح الموطأ وهذا الكتاب كتبه وأملاه في طرابلس في بداية حياتـه وهو كتاب هام حيث يعتبر ثاني شرح للموطأ بعد شرح محمد بن سحنون القيروانـي. قال عبد الرحمن الجيلالي توجد نسخة منه بمكتبة القرويين بفاس. وهذان الكتابان همـا اللذان اعتمد عليهما الكثير من شراح الحديث ونقلوا عنهما، وقد استفادوا منهمـا مثـل

الزرقاني وابن حجر وابن التين وبدر الدين العيني، وقد حمل عنــه الكتــابين الــواعي والنامي تلمــــــيذه أبو عبد الملك مروان بن علي البوني.

الأموال: وهو مساهمة جزائرية في التنظير للمالية العامة وإصلاحها وهو كتــاب مشهور كتبه في طرابلس وهناك أملاه. وهو بلغة اليوم كتاب في الاقتصاد والماليــة يتناول فيه الداودي الموارد المالية لخزينة الدولة والكيفية التي تصرف بها والطريقــة التي تقسم بها ووجوه إنفاقها. ويتكلم فيه عن أموال الزكاة والمغانم والأراضي التــي يتغلب عليها المسلمون وإحياء الأراضي البور ويركز فيه على العدالــة الاقتصــادية للخلفاء الراشدين والدولة الإسلامية عامة وهو مطبوع. وطبع لأول مــرة ســنة 1988 بمركز إحياء التراث العربي تحقيق الدكتور رضا محمد سالم شحادة ثم مرة أخــرى سنة 2001 بتحقيق الدكتور محمد حسن شلبي بدار الحامد عمان. وتحقيق ثالــث مــن الأستاذين محمد أحمد سراج، وعلي جمعة محمد تحت إشــراف مركــز الدراســات الفقهية والاقتصادية ومرة أخرى سنة 2006 بمصر وهو أيضا موضــوع أطروحــة دكتوراه تقدم بها الطالب نجيب عبد الوهاب لنيل شهادة الدكتوراه ببريطانيا. وتوجــد نسخة من كتاب الأموال مخطوطة بدار الكتب باسبانيا. وهناك العديد مــن البحــوث التي تناولت كتاب الأموال للداودي ونظريته الاقتصادية والماليــة. ويبــدو لــي أن الظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت بالمؤلف حين كتابة كتاب الأموال تعطي فكرة عن الدوافع التي جعلت الداودي يؤلف كتابه الأموال.

- **الإيضاح في الرد على البكرية:** وفيه من يقــول الفكريــة، وفــي الــديباج: القدرية، وهذا الكتاب في الرد على إحدى الفرق الكلامية المنحرفة التي مثلها عبــد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري الذي ادعى رؤية الله في اليقظة. وقد اقتفــى فيه الداودي أثر أبن أبي زيد القيرواني في الجدل حول إثبات كرامــات الأوليــاء، فكان هذا الكتاب أول كتاب في الأدب الصوفي بالمغرب الأوسط لــم ينكــر فيــه

الداودي كرامات الأولياء إلا أنه تبنى موقف ابن أبي زيد القيرواني في التشدد على التصوف المائل إلى الشعوذة.

- **تفسير القرآن المجيد:** الذي ذكره عبد الرحمن الجيلالي وقال أن الثعالبي نقل عنه في تفسيره الجواهر الحسان. كما نقل عنه غير الثعالبي.

- **الأجوبة:** ذكرها العلمي في نوازله وسماه محقق كتاب الأموال رضا محمد سالم شحادة: كتاب الأسئلة والأجوبة. وهو كتاب في الفقه لا يزال مخطوطا بجامع الزيتونة.

- **كتاب الأصول، وكتاب البيان، الواعي في الفقه:** معروف في التاريخ ان كتامة –وحدها– وهي واحدة من عشرات الفرق البربرية هي وحدها التي احتضنت الدعوة الشيعية وكانت هناك معارضة من طرف أهم فروعها –متوسة، مسلاتة، اجانة، لطاية– كما يقول القاضي النعمان في افتتاح الدعوة أن الذين عارضوا الدعوة الفاطمية من كتامة: "...الفتح بن يحيى المسلاتي والمهدي بن أبي كناوة رئيس ولهاصة وفرح بن جيران رئيس اجانة وفرح بن نوح رئيس لطاية وزيادة المتوسي بالإضافة إلى عمال الأغالبة.

5/ من رواد أصول الدين: هو أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد **العقباني التُّجِيبي التلمساني**. والعقباني نسبة إلى قرية من قرى الأندلس تسمى عُقبان كما جاء في "البستان"، أو لعُقاب اسم قرية كما في "شجرة النور".

مولده ونشأته: ولد الإمام سعيد العقباني بتلمسان سنة (720هـ.) ولا تسعفنا المصادر التي ترجمت له بالوقوف على ظروف نشأته وعائلته وغير ذلك، واكتفت بذكر اسمه ومهامه التي تقلدها وبعض شيوخه وتلاميذه ومؤلفاته، إلا أننا نعلم أن الإمام العقباني نشأ في ظل الدولة المرينية التي اعتنت بالعلوم الشرعية أيّما اعتناء، حتى كان منهم سلاطين علماء، كأبي عنان المريني (729–759هـ) الذي تنقل بعض المصادر أنّ العقباني روى عنه صحيح البخاري والمدونة.

توليه القضاء: وقد ولي الإمام العقباني القضاء ببجاية وتلمسان وسلا ومراكش، وأكد ذلك ابن فرحون قائلا: "وصدراته في العلم مشهورة، وُلي قضـــاء الجماعـــة ببجاية في أيام السلطان أبي عنان والعلماء يومئذ متوافرون، وولي قضاء تلمســـان، وله في ولاية القضاء مدة تزيد على أربعين سنة. "ونقل التنبكتي عن ابن مـــرزوق الحفيد قوله: "كان علامة، خاتمة قضاة العدل بتلمسان".

ثناءُ العلماء عليه: شهدت نصوص العلماء برفعة قدر الإمام العقبـــاني، فنَعتـــه معاصره ابن فرحون بأنه "إمام عالِم فاضل، فقيه مذهب مالك، متفنِّن في العلـــوم"، ووصفه تلميذه شيخ الإسلام ابن مرزوق الحفيد بأنه "وحيد دهره وفريـــد عصـــره، بقية العلماء الراسخين، ووارث الفضلاء المجتهدين"، ووصفه الإمام السنوسي عنـــد حديثه عن كتابه "المقرّب المستوفي في شرح فرائض الحوفي" ذاكرا أنه اعتمد فيه على شرح الإمام العقباني على تلك الفرائض، واصفا إياه بـــ"الشيخ الإمام العلامـــة العلَم ذي الآراء العجيبة والتصرفات الفائقة الغريبة" وواصفا شـــرحه بأنـــه "تقـــف عقول النجباء عنده، وأنه لم يَرَ الراءون ولا يرون. –والله أعلم– مثلـــه قبلـــه ولا بعده" اهـــ، ونقل التنبكتي عن بعضهم قوله في حقِّ الإمام العقباني: "وكان يقال لـــه رئيس العقلاء".

وفاته: توفي الإمام سعيد العقباني عام أحد عشـــر وثمانمائـــة 811ه كمـــا نقـــل التنبكتي ذلك عن الونشريسي في وفياته، فرحمه الله تعالى رحمة واســـعة وأدخلـــه فسيح جنانه ورفع درجته في علِّيين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

شيوخه في العلم: أخذ الإمام سعيد العقباني العلم عن أبـــرز مشـــايخ عصـــره بالمغرب، وصار راسخ القدم في العلوم العقلية والنقلية، وبلغت رتبته فـــي تحقيـــق العلوم الشرعية رتبة أعلم أهل عصره بالغرب الإسلامي كالإمام ابن عرفة والإمام الشريف التلمساني والإمام المقري. وقد ترك مشايخُه بصمات على توجهـــه فـــي

التأليف والتخصص، سيما في علم الفرائض الذي أتقنه على السطي الآتـي ذكـرُه والآبلي، فصنف فيه شرحه المتميز على الحوفية. وفيما يلي ذكر بعض مـن أخـذ العُقباني عنهم العلوم.

مصنفاته: تشهد بعض العناوين التي وصلتنا عن مؤلفات الإمام العقباني علـى تبحره في شتى المعارف والعلوم التي تتعاطى يومئذ في الإسلام، فقد صـنف فـي أصول الدين، وهو علم يحتاج في مراتب إلى الجدل والمنطق لكشف اللـبس عـن المعتقد ورفع الشُّبَه وتحقيق الحق وإبطال الباطل بالأدلة العقلية النظرية الموصـلة إلى حكم الضرورة عند المنكر لها، ومن هنا كان للعقباني شرح على متن الجُمـل الشهير في المنطق للخونجي، كما تخصص في علم الفرائض وغيره مـن العلـوم الفقهية التي أهلته لتولي القضاء أكثر من أربعين سنة. وفيما يلي تعريف بما وصلنا من مصنفاته.

1ـ شرح الحَوفية: ومتن الحوفية هو مختصر في علم الفرائض للشيخ أحمـد بـن محمد بن خلف أبو القاسم الحوفي القاضي المالكي العالم بالفرائض (تـ588هـ). قـال ابن فرحون: وله تآليف منها شرح الحوفي في الفرائض لم يؤلَّف عليه مثله." وتقـدم أن الإمام السنوسي اعتمد عليه في تصنيفه لكتابه "المقرّب المستوفي في شـرح فـرائض الحوفي"، وأنه وصف بالشرح الذي "تقف عقول النجباء عنده، ولم يَـرَ الـراءون ولا يرون –والله أعلم– مثله قبله ولا بعده "اهـ. والشرح لا يزال مخطوطا؛

2ـ شرح الجُمل للخونجي في المنطق. قال الشيخ ابن مرزوق الحفيد في مقدّمة شرحه لجمل الخونجي الذي سماه: "نهاية الأمل في شرح الجمل": "وشرحه شـيخنا وحيد دهره وفريد عصره، بقية العلماء الراسخين، ووارث الفضـلاء المجتهـدين: أبي عثمان سعيد بن محمد العقباني أمتع الله ببقائه وزاد في علوّه وارتفاعه". توجد منه نسخة بمكتبة حسين جلبي، ضمن مكتبة بروسه الوطنية/تركيا.تحت رقم 725.

3ـــ الوسيلة بذات الله وصفاته؛

4ـــ شرح العقيدة البرهانية. وهو شرح على عقيدة الإمام أبي عمرو عثمان السلالجي (521ـــ 594هـــ) التي اختصرها من كتاب "الإرشاد" لإمام الحرمين؛

5ـــ شرح مختصر ابن الحاجب الأصولي –قال التنبكتي: وألف "شرحًا جليلا على ابن الحاجب الأصلي– وقد أشار إليه الإمام العقباني في آخر شرحه لكتاب "الوسيلة" الذي بين يديك. والشرح مخطوط توجد منه نسخة في خزانة القرويين بفاس، وقطعة من آخره بالمكتبة الوطنية بتونس؛

6ـــ شرح التلخيص لابن البناء. وهو كتاب تلخيص أعمال الحساب لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي؛

7ـــ شرح قصيدة ابن ياسمين في الجبر والمقابلة؛

8ـــ شرح البردة؛

9ـــ شرح سورتي الأنعام والفتح. قال ابن فرحون: "وشرحه لسورة الفتح أتى فيه بفوائد جليلة"؛

10ـــ لب اللباب في مناظرات القباب. ذكر الحجوي في ترجمة القباب أنه "له مناظرات مع إمام تلمسان العقباني ألّفها العقباني وسماها: لبّ الألباب في مناظرات القباب، نقلها الونشريسي في نوازله"؛

11ـــ وللقاضي سعيد العقباني فتاوى عديدة نقل بعضها الونشريسي في "المعيار المعرب."

6/ من رواد علوم اللغة والأدب:

_ **أبوراس النّاصري الجزائري**[33]: هو محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي"[34] العلامة المحقق الحافظ، والبحر الجامع المتدفّق الحافظ، من هو ليث الدّين، أوثق أساس، وأضوأ نبراس، الإمام القدوة المتفنّن"[35].

وُلِد "بنواحي مدينة معسكر بين جبل كرسوط و(هونت) يوم 8 صفر 1165هـ/ 27 ديسمبر 1751م، من أمّ اسمها زولة"[36]. وتوفي، رحمه الله، يوم 15 شعبان 1238هـ/ 27 أفريل 1823م، و"دُفن بمعسكر على شاطئ النّهر الفاصل بين داخل البلد وقرية بابا علي. وعليه بناء مشهور"[37].

وكان قد شارك في الجهاد لفتح وهران سنة 1206هـ/ 1795م، إلى جنب الباي محمد بن عثمان. ورُمي، بعدُ، من قِبل خصومه الحاسدين "بالمشاركة في ثورة درقاوة ـ القائمة ضدّ السّلطة التّركيةـ 1217هـ/ 1802م. وله في تاريخ هذه الثورة تأليف أسماه "درء الشّقاوة في حرب درقاوة"[38].

_ رحلاته: يذكر أبوراس[39] أن رحلاته إنّما كانت اقتداءً بالجهابذة النّحارير، كرحلات الإمام ابن رشيد السّبتي، والخطيب ابن مرزوق[40]، والشّيخ أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي، وكانت أولى رحلته للجزائر العاصمة التي لقي بها الفقيه القاضي المفتي محمد بن جعدون، والقاضي الفقيه الشيخ محمد بن المبارك، كما لقي الشيخ العالم المشارك أحمد بن عمّار الشّهير.

ولقي، بالجزائر كذلك، الفقيه والخطيب والمفتي محمد بن الحفّاف. وعندما سأله في مسألة نحوية، أجاب عنها ببراعة، فلُقِّب بالحافظ. ومن علماء الجزائر الذين لقيهم أيضاً، العلامة الحاج ابن الشّاهد الذي حضر له يُدرِّسُ الموطّأ[41]. وعندما دخل "قسمطينة" (هكذا يذكرها)، أتاه علماؤها يسلِّمون عليه، ومنهم قاضي الجماعة الونيسي الذي كان "فقيهاً علامة حافظاً بارعاً"[42].

ثمّ رحل أبو راس إلى فاس، ورحّب به علماؤها أحسن ترحيب. وممّن لقيهم، العالم العامل الشّيخ حمدون (ت 1332هـ)، والنّحوي الشّيخ عبد القادر بن شقرون (ت1219 هـ)، والفقيه النّابه الشّيخ محمد بن بنّيس (ت 1214هـ)، والفقيه الهواري (ت1220 هـ). وبعد فاس، عاد إلى تلمسان[43].

ثمّ ذهب إلى تونس، ونزل على شـيخها المفتـي محمـد بـن المحجـوب (ت 1243هـ)، واجتمع بالعالم الكبير والأديب الأريب إبراهيم الرّياحي (ت1266هـ)، معارض الحريري في المقامات[44].

ثمّ ركب البحر إلى مصر، ولقي بها أهل العلم والأدب، منهم الشّـيخ مرتضـى الذي روى عنه أوائل الصّحيحين"، و"رسالة القشيري" في التصـوّف، و"مختصـر العين"، و"مختصر الكنز الراقي." كما لقي الشيخ عصمان الحنبلي الذي قرأ عليـه المذهب الحنبلي..

ثمّ رحل إلى مكّة، واجتمع بعلمائها وفقهائها، كالعلامة عبد الملك الحنفي المفتي الشّامي القلع (ت 1229هـ) الذي أخذ عنه بعضاً من الحديث، ونبذة مـن "الكنـز"، وشيئاً من التفسير. ومثل مفتي الشّافعية عبد الغني، ومفتي المالكية الحسين المغربي الذي جالسه طويلاً كما اجتمع، بمكّة، بالشّيخ العارف المشارك عبد الرّحمن التّادلي المغربي، وقرأ عليه شرح العارف بالله ابن عبّاد على "الحكم". ثمّ طوّف بالمدينـة المشرّفة، وكان له بها مناظرات وأبحاث مع علمائها. ويبدو أنّ هذه الرِّحلة كانـت رحلة روحية، لأنّ أباراس وجد الفرصة في زيـارة ضـريح المصـطفى (ص)، وضريحي صاحبيه أبي بكر وعمر(ض)، وقبور الصّحابة بالبقيع. ثمّ رحـل إلـى الشّام، وتحدّث إلى علمائها في مسألة من "الحبس" نصّ عليها الشّيخ أبو زكريا ابن الحطّاب (ت995هـ). ونهاية، رجعوا إلى رأيه ووافقوه بعد الدّليل القـاطع، بـل جمعوا له مالاً كثيراً عندما أراد السّفر تكريماً له وتعظيماً.

وبعد ذلك، دخل "الرّملة" إحدى مدن فلسطين، ولقي مفتِيها وعلماءَهـا، وكـان بينهم مفاوضات حول "الدّخان" و"القهوة"، فأجابهم بما ذكره نـصّ أبـي السّـعود (ت951هـ)، فأكرموا وِفادته.

وبعدها، رحل إلى غزّة فزار قبر هاشم ثالث آباء النبي(ص)، ولقـــي علماءهـــا وأعيانها، فأكرموا ضيافته. وكان بينه، كعادته، وبينهم مناظرات في مسائل مختلفة، اعترفوا له بها بالفضل وسعة العلم. إلاّ أنّه لم يجد عالماً واحداً يعوّل عليـــه، كمـــا يذكر[45]، عندما غادر إلى العريش.

_ شيوخه: أوّل شيوخه، يذكر أنه والده الشّيخ أحمد الذي قرأ عليه شـــيئاً مـــن سورة البقرة، ثمّ الشّيخ علي التّلاوي الذي قرع رأسه ذات مرّة، لأنّـــه لـــم يحســـن كتابة صورة حرف الفاء، فلم يعد إليه ولا إلى معلّم الصِّبيان أبداً.

ولمّا أتمّ القرآن جمعاً، أتى الشّيخ منصور الضّرير لإتقان القراءة، ثمّ لزم ابـــن الجزري ليفيد منه فنّ القراءة والتّجويد، وكذلك قاضي "أم عسكر" لقـــراءة الفقـــه، وأيضاً الشّيخ علي بن الشّنين. وأخذ الفرائض عن الشّيخ البدالي، كما قرأ الفقه على الشيخ ابن علي ابن الشيخ أبي عبد الله المغيلي.

ومن شيوخه في الفقه أيضاً، العربي بن نافلة وأخوه أحمد وابنه أحمد، وكـــذلك الشّيخ محمد الصّادق بن أفغول الذي "كان للعلوم جامعاً، وفي فنونها بارعاً، مقـــدَّماً في معرفة الحديث على أقرانه...حسن فهم السّنّة والكتاب".

ومن شيوخه، محمد بن قاسم المحجوب عالم إفريقية "العـــالم العامـــل، المفيـــد الجامع، الشامل الفاضل، الحافل الكامل". ومن كبار شيوخه وأجلائهم، نذكر عبـــد القادر بن عبد الله المشرفي الذي "أخذ عن العلامة أبي عبـــد الله محمـــد المنـــوّر التّلمساني الكثير من الفقه، والأصول، وعلم الكلام، والنّحو، والبيان، وأجازه. وأتقن علوماً جمّة، وبرع فيها". كما يذكر شيخه الإمام محمد مرتضى "المفسِّر، المحدِّث، الحافظ، المسند الرواية، النحوي، الأصولي، الفروعي، اللغوي".

ومن شيوخه كذلك، شيخه في المعقول وتلميذه في الفقه: عبد القادر بن السّنوسي بن عبد الله ابن دحّو "الحافظ اللافظ، الصالح الناصح: فقيه نبيه، جيِّد النَّظر، سـديد الفهم، وعاء من أوعية العلم. له لكل علم وصول، من حديث وفقه ونحو وأصول".

مؤلّفاته: ترك لنا أبوراس مصنّفات كثيرة[46]، في جميع الفنون والعلوم، غيـر أنّ أكثرها لا يزال مخطوطاً.

وقد تعرّفنا إليها ممّا جاء في كتابه "فتح الإله"؛ فقد عقد باباً، وهوالخامس، خصّه لذلك وسمّاه: "العسجد والإبريز". وفيما يلي عرض لها:

أولاً ــ القرآن:

1. "مجمع البحرين، ومطلع البدرين، بفتح الجليل، للعبد الذّليل، في التّيسير إلـى علم التّفسير"، في ثلاثة أسفار؛

2. "تقييد على الخرّاز و"الدّرر اللّوامع، و"الطِّراز.

ثانياً ـــالحديث:

1. "الآيات البيِّنات، في شرح دلائل الخيرات"؛

2. " مفاتيح الجنّة وأسناها، في الأحاديث التي اختلف العلماء في معناها؛

3. "السّيف المنتضى، فيما رويت بأسانيد الشّيخ مرتضى".

ثالثاً ــ الفقه:

1. "درّة عقد الحواشي، على جيد شرحي الزّرقاني والخراشي" في ستّة أسفار؛

2. "الأحكام الجوازل، في نُبذ من النّوازل"؛

3. "نظم عجيب في فروع، قليل نصّها مع كثرة الوقوع"؛

4. "الكوكب الدّرّي، في الرّدّ بالجدري"؛

5. "النّبذة المنيفة، في ترتيب فقه أبي حنيفة"؛

"6. المدارك في ترتيب فقه الإمام مالك".

رابعاً ــ النّحو:

"1. الدرّة اليتيمة التي لا يبلغ لها قيمة"؛

"2. النكت الوفية، بشرح المكودي على الألفية"؛

"3. عماد الزّهّاد، في إعراب: كلا شيء وجئت بلا زاد"؛

"4. نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة".

خامساً ــ المذاهب:

"1. رحمة الأمّة في اختلاف الأئمّة"؛

"2. تشنيف الأسماع، في مسائل الإجماع"؛

"3. جزيل المواهب، في اختلاف الأربعة المذاهب"؛

"4. قاصي الوهاد، في مقدِّمة الاجتهاد".

سادساً ــ التّوحيد والتّصوّف:

"1. الزّهر الأكم، في شرح الحكم"؛

"2. الحاوي لنبذ من التّوحيد والتصوف والأولياء والفتاوى"؛

"3. كفاية المعتقد، ونكاية المنتقد" على شرح الكبرى للشّيخ السّنوسي؛

"4. شرح العقد النّفيس، في ذكر الأعيان من أولياء غريس"؛

"5. التّشوّف إلى مذهب التّصوّف".

سابعاً ــ التاريخ:

"1. زهرة الشّماريخ في علم التاريخ"؛

"2. المنى والسّول، من أوّل الخليقة إلى بعثة الرّسول"؛

"3. درّ السّحابة، في من دخل المغرب من الصّحابة؛

".4 درّ الشّقاوة في حروب درقاوة"؛

".5 المعالم الدّالّة على الفرق الضّالّة"؛

".6 الوسائل إلى معرفة القبائل"؛

".7 الحلل السّندسية فيما جرى بالعدوة الأندلسية"(47)؛

".8 روضة السّلوان المؤلّفة بمرسى تيطوان"؛

" .9 ذيل القرطاس في ملوك بني وطّاس"؛

" .10 مروج الذّهب في نبذة من النّسب، ومن انتمى إلى الشّرف وذهب"؛

" .11 الخبر المعلوم في كلّ من اخترع نوعاً من أنواع العلوم"؛

" .12 تاريخ جربة"؛

".13 عجائب الأسفار، ولطائف الأخبار"، والمسمّى أيضاً "غريب الأخبار عمّا كان في وهران والأندلس مع الكفار".

ثامناً ــ اللّغة:

".1 ضياء القابوس على كتاب القاموس".

".2 رفيع الأثمان في لغة الولائم الثِّمان".

تاسعاً ــ البيان:

"نيل الأماني على مختصر سعد الدين التّفتازاني".

عاشراً ــ المنطق:

"القول المسلّم في شرح السّلم"، وهو شرح على سلم الأخضري.

حادي عشر ــ الأصول:

"شرح المحلَّى".

ثاني عشر ــ العروض:

"شرح مشكاة الأنوار، التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسَسْه نار".

ثالث عشر ـــالشّروح الأدبية:

1. شرح المقامات:

"1. النّزهة الأميرية في شرح المقامات الحريرية"؛

"2. الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية".

2. شرح القصائد:

" 1. البشائر والإسعاد، في رح بانت سعاد"؛

" 2. نيل الأرب في شرح لامية العرب"؛

" 3. كل الصّيد في جوف الفرا"؛

" 4. إزالة الوجم عن قصيدة لامية العجم"؛

" 5. الوصيد فيشرح سلوانية الصّيد"؛

" 6. الدّرّة الأنيقة في شرح العقيقة"؛

" 7. طراز شرح المرداسي لقصيدة المنداسي"؛

" 8. الحلّة السّعدية فيشرح القصيدة السّعيدية"؛

" 9. الجُمان في شرح قصيدة أبي عثمان"؛

" 10. نظم الأديب الحسيب، الجامع بين المدح والنّسيب والتّشبيب"؛

" 11. الرِّياض المرضية في شرح الغوثية"؛

" 12. لبّ أفياخي في عدّة أشياخي"؛

" 13. حلّتي ونحلتي في تعدّد رحلتي"؛

" 14. الفوائد المخبتة في الأجوبة المُسكتة".

_ **محمد بن يوسف اطفيش:** هو من بني ميزاب وقد ترك لنا تأليفا ضخما فـــي علم القراءات لا يزال مخطوطا وهو تحت عنوان: "تلقين التالي لآيات المتعـــالي".

وقد شرح فيه منظومة نظمها بنفسه سماها" جامعة حرف ورش"، طبعــت ســابقا طبعة حجرية، أما الكتاب فلا يزال مخطوطا

ـ أبو اليقظان، إبراهيم بن الحاج عيسى (1306هــ /1888م 1393هــ /1973م)

أحد رواد الصحافة العربية الجزائرية وأحد المجاهدين بالكلمــة. ولــد بمدينــة القرارة، جنوب الجزائر، افتقد أباه صغيرا، ووجهته أمّه إلى مزاحمة العلماء منــذ الصغر. فتعلم مبادئ العلوم العربية والشرعية في كُتّــاب القــرارة، وفــي ســنة 1325هــ/1907م شد الرحال إلى (بني يزقن) حيث تتلمذ على يد قطــب الأئمــة، فكان من أبرز تلامذته وأنجبهم. وحوالي سنة 1909م قصد بيت الله الحرام، وكــان ينوي الإقامة بمصر للدراسة لدى عودته، ولكن قلة ذات اليد حالــت دون أمنيتــه، ولو أن هذه الرحلة فتحت أمام عينيه آفاقا واســعة حيــث زار الحجــاز والشــام، وتركيا، وليبيا، وتونس. في سنة 1330هــ/1912م التحق بجامع الزيتونة بتــونس طالبا، ورئيسا لأول بعثة طلابية ميزابية بتونس. ومع بداية الحرب العالمية الأولى عاد إلى القرارة حيث فتح مدرسة على الطريقة العصرية، وما لبث أن عــاد إلــى تونس سنة 1917م ليترأس البعثة مرة أخرى حتى سنة 1925م.

وفي هذه الأثناء انخرط في معترك السياسة، وأصبح تلميذا وفيــا للشــيخ عبــد العزيز الثعالبي، وعضوا في التشكيلة الفدائية السرية التي كانت تتطلع إلى تحريــر المغرب الإسلامي من ربقة الاستعمار الفرنسي، فكان عضوا نشيطا فــي اللجنــة التنفيذية للحزب الحر الدستوري، وكان في الوقت ذاته يشارك بقلمه في الصــحافة بمقالاته ذات الطابع السياسي الوطني مثــل (المنيــر)، (الصــواب) التونســيتين، (المنهاج) الصادرة بمصر، التي كان يرأس تحريرها زميله وصديقه في الجهاد أبو إسحاق إبراهيم اطفيش. وكان يتطلع إلى إعلام إســلامي وطنــي يكــون منطلقــه الصراع الحضاري بين الإسلام والصليبية الغربية.

في أكتوبر من سنة 1926 بادر إلى إنشاء أول جريدة عربية باسمه تحت عنوان (وادي ميزاب) أرادها لتكون لسان حال الفكر الإسلامي عموما والجزائري خصوصا. ولأنه كان نسيج وحده في الأسلوب المقاوم الذي لا يهادن ولا ينافق، فإنه تجرع في سبيل سير صحافته الغصص، وتحمل المشاق المادية المرهقة، يكفي أن نعرف أن جريدته هذه كانت تحرر بالجزائر، وتطبع بتونس، ثم تعود بالقطار لتوزع في الجزائر هكذا كل أسبوع طيلة عامين ونصف عام لم تتخلف فيها عن الظهور قط، وكان يعاونه في طبعها زميلاه في الجهاد الوطني الشيخ محمد الثميني، وابن الشيخ قاسم بن الحاج عيسى.

وكانت جريدة (وادي ميزاب) بداية لجهاد مرير دام ثلاث عشرة سنة، أصدر خلالها ثماني جرائد أسقطها الاستعمار الواحدة تلو الأخرى، لأنه لم يطق حرارة لهجتها، وجرأة معالجتها، من بينها: (وادي ميزاب) 119 عددا، من 1926/10/01 إلى 1929/01/18م، (ميزاب) عدد واحد، 1930/01/25، (المغرب) 38 عددا، من 1930/05/29 إلى 1931/03/09م، (النور) 78 عددا، من 1931/09/15 إلى 1933/05/02م، (البستان) 10 أعداد، من 1933/04/27 إلى 1933/07/13، (النبراس) 6 أعداد، من 1933/07/21 إلى 1933/08/22، (الأمة) 170 عددا، من 1933/09/08 إلى 1938/06/06، (الفرقان) 6 أعداد، من 1938/07/08 إلى 1938/08/03.

ومن أبرز جهود أبي اليقظان في الميدان الثقافي الوطني، إنشاؤه المطبعة العربية التي تعد من أوائل المطابع العربية الوطنية بالجزائر العاصمة، كان أبو اليقظان عضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

فلم يجد بدا من مغادرة العاصمة إلى القرارة، حيث تفرغ للتأليف والنشاط الاجتماعي والثقافي والديني. وفي هذه المرحلة ألف العديد من الأبحاث والدراسات

في المجالات الدينية، والتاريخية، والأدبية مما نتج عنها ما يقــرب مــن خمســين مؤلفا ما بين مطبوع ومخطوط. وله بحوث كثيرة في تفسـير القــرآن، وتــاريخ الجزائر، وتراجم الأعلام وكلها مخطوطة. هذا إضافة إلى مذكراته الخاصة التــي كان يسجل بها كل شاردة وواردة منذ سنة 1917م حتى سنة 1973، وهي تعد من الوثائق المهمة.

أما شعره، فيعد صورة لكفاحه المريــر فــي ميــدان الإصـــلاح الاجتمــاعي والسياسي، متوزعا بين الأغراض التقليديــة المعروفــة مــن وصــف، ورثــاء، واستنهاض، وتهنئة، وغيرها. وهو في مستواه الفني لا يخرج عن إطــار الاتجــاه المحافظ التقليدي. ظل مجاهدا جهاد الصابرين غير آبه بالشلل النصفي الذي ألزمه الفراش منذ سنة 1957م، يحرر الرسائل، ويستقبل الطلاب، ويؤلف الكتب إلــى أن توفاه الله، وشيع بجنازة رهيبة، ودفن بالقرارة..[48]

خاتمة: وفي الختام، فإنّ التاريخ قد احتفظ لنا بتآليف عديدة في علــوم القــرآن واللغة، ألفها علماء جهابذة، بعضها مطبوع والكثير منها مخطــوط، ومــا تــزال مخطوطاتهم النادرة موجودة في الخزانات العامة والخاصة تنتظر من ينقذها مــن الضياع والتلف. فنرجو من الجهات المعنية أن تسعى سعيا حثيثا من أجل جمع هذه المخطوطات الجزائرية المتخصصة، من مختلف المكتبات في العالم، وتعمل علــى تحقيقها وطبعها ونشرها، حتى تتم الاستفادة منها، وخاصة المختبــرات الخاصــة بجمع المخطوطات.

فلولا اجتهاد وجدية بعض الباحثين لما أزيح غبار الطمس والنسيان عن كثيــر من العلماء الجزائريين المجهولين حتى عند أبناء جلدتهم، وأن تظهر إسهاماتهم في العلوم المختلفة الدينية والدنيوية، وأن يبرز تأثيرهم فــي بلادهــم والبلــدان التــي هاجروا إليها أو انتقلت إليها مؤلفاتهم ونذكر من هؤلاء أبو القاسم سعد الله.

الهوامش:

([1]) انظر / عادل النويهض، أعلام الجزائر ، ط1 سنة 1981، ص85. ومعجم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ص713.

([2]) انظر / عادل النويهض، أعلام الجزائر ، ط1 سنة 1981، ص85. ومعجم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ص265..

([3]) انظر / عادل النويهض، أعلام الجزائر ، ط1 سنة 1981، ص85. ومعجم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، ص713.

([4]) بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس/ انظر/ معجم البلدان/ الحموي/ م 3/ ص 206/ رقم 6233.

([5]) تاهرت بفتح الهاء وسكون الراء اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب الأوسط، يقال لأحداهما تهارت القديمة والأخرى تاهرت المحدثة / انظر /معجم البلدان / الحموي / ج2 / ص7.

([6]) القيروان: أعظم مدن المغرب العربي وأكثرها بشراً ،وأيسرها أموالاً ، وأوسعها أحوالاً ، توالت الجوائح عليها حتى لم يبق منها إلا الأطلال / انظر / الروض المعطار / الحميري / ص486.

(7) سجلماسة هي مدينة في صحراء المغرب ، بينها وبين البحر خمس عشرة مرحلة ، بنيت عام 140 هـ لها اثنا عشر باباً وبساتين كثيرة / انظر / الروض المعطار / ص305.

(8) انظر/ مقدمة محقق تفسير كتاب الله العزيز/ ج 1/ ص 13. (بتصرف)

(9) هو ثالث الأئمة الرستميين بُويع بالخلافة بعد وفاة أبيه عام 190 هـ ، وتوفي عام 240 هـ / انظر / الأعلام / م1 /ص5.

(10) جبل قريب من باغاية بأفريقية فيه عدة قبائل من قبائل البربر وفي أهله نخوة وتسلط/ انظر/ الروض المعطار/ الحميري/ ص 65.

(11) كتاب السير/ ج 2/ ص 59.

(12) قبيلة من قبائل البربر التي تعيش تحت إمارة الدولة الرستمية والضاربة جذورها على جانبي حدود الدولة الأغلبية في إقليم الزاب/ انظر/ المسالك والممالك/ لابن خرداذبة/ ص 83، وانظر/ الخوارج في بلاد المغرب العربي حتى منتصف القرن الرابع/ د. محمود إسماعيل/ ص 159.

(13) كتاب السير/ ج 2/ ص 59.

([14]) مقدمة محقق تفسير كتاب الله العزيز/ ج 1/ ص 19.

(15) انظر زغيشي سعاد،منهج هود بن محكّم الهوّاري في التفسير، أطروحة دكتوراه في العلوم الاسلامية(تخصص التفسير وعلوم القرآن)، قسم أصول الدين، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر باتنة، سنة 2007/2006م.

(16) هو أبومحمد جمال المزاتي المديوني من علماء النصف الأول من القرن الرابع الهجري كان يقيم بين ورجلان وبلاد أريغ حسبما تذكره بعض الروايات وقد صنفته المصادر الإباضية في الطبقة السابعة من طبقات العلماء/ انظر/ كتاب السير/ الشماخي/ ج 1/ ص 245.

(17) مقدمة محقق تفسير كتاب الله العزيز/ ج 1/ ص 19.

(18) تفسير كتاب الله العزيز/ ج 1/ ص 70.

(19) انظر / الحافظ التنسي https://ar.wikipedia.org/wiki.

(20) المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، كتاب الأصالة ج1،، ص: 149.

(21) المرجع نفسه، ص: 151 و152.

(22) أبو القاسم سعد الله، ، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص: 22-23.

(23) المرجع نفسه، ج1، ص: 115.

(24) محمد التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص: 14 و15.

(25) محمود بوعياد، مرجع سابق، ص: 69.

(26) أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ج1، ص: 115.

(27)مرجع سابق، ج1، ص: 115.

(28) المرجع نفسه، ص: 25.

(29) المرجع نفسه ص: 23و24 و25.

(30) المرجع نفسه، ج2، ص: 25.

(31)محمد ميمون، زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي ، ص42.

(32) المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص160و161.

(33) انظر/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر 1/ 83-103، و2/ 299-308، و2/ 337-340]، وتاريخ الجزائر الثقافي: 2/ 176-180، 376-381.

(34) انظر / نسبة إلى مؤسّس مدينة معسكرراشد بن المرشد القرشي مولى إدريس الأوّل: دفين زرهون بالمغرب الأقصى (القرن02 هـ).

واسم صاحب التّرجمة كاملاً، حسبما جاء في:

ــــ المجلـــة الإفريقيـــة، 8/ 1864، ص152: "محمـــد بـــن أحمـــد بـــن عبـــد القـــادر".

ــ تاريخ الجزائرالثقافي: د. أبو القاسم سعد الله، 12/ 391: "محمد بن أحمد بن عبد القـــادر بـــن محمد بن أحمد ابن الناصر الجليلي" ــ حاشية رياض النّزهة، بلهاشمي بن بكار، ص13: "محمـــد بن أحمد بن عبد القادر ابن ناصر الناصري المعسكري".

(35) الحفناوي، تعريف الخلف برجال السّلف، 2/ 167.

(36) تاريخ الجزائر العامّ: عبد الرحمن بن محمدالجيلالي، 3/ 570.

(37) تعريف الخلف برجال السلف: 2/ 168.

(38) تاريخ الجزائر العامّ: 3/ 571.

(39) فتح الإله ومنّته، أبو راس الناصري، ص 91 ، 92.

(40)هو أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي، الملقّب بالخطيـــب والجـــدّ والرّئيس.. أحد علماء الفقه والأصول، والحديث والأدب. من مؤلّفاته: "شرح جليل علـــى عمـــدة الأحكام" في خمسة أسفار، و"شرحها النّفيس على الشِّفاء" و"عجلة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز من أئمّة المغرب والشّام والحجاز". توفي، على الأغلـــب، عـــام 780هــ بالقاهرة) .انظر: الدِّيباج المذهب: ابن فرحون، ص ص 305 ــ 309. ــ بغيـــة الوعـــاة: السيوطي، 461 /، 47.

ــ البستان: ابن مريم، ص ص 184 ــ 189. ــ الوفيات: ابن قنفذ،ص373).

(41)فتح الإله ومنّته، ص ص 95 ــ 96.

(42) انظر / نفسه: ص.99

(43) نفسه: ص107.

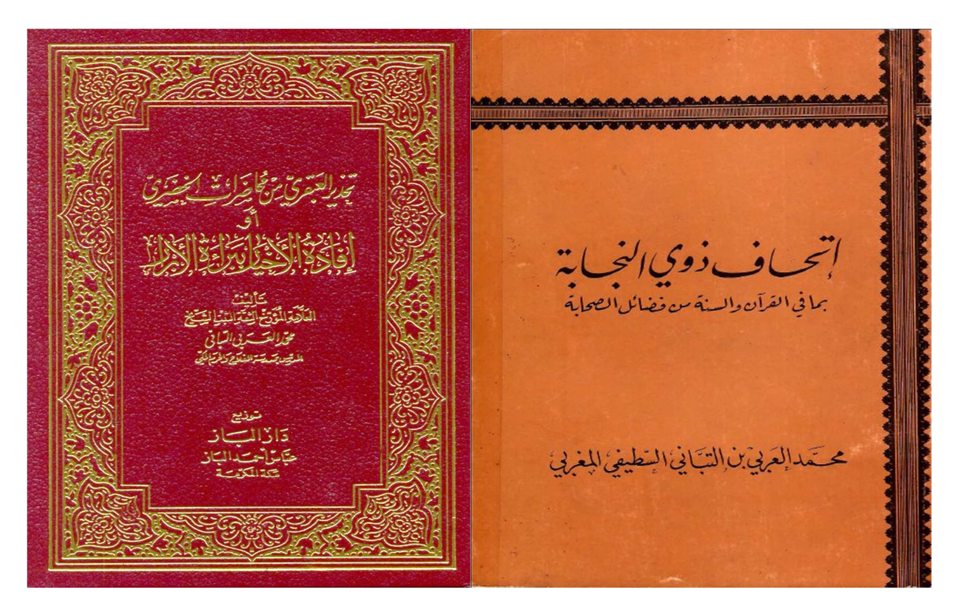
(44) نفسه: ص 110.

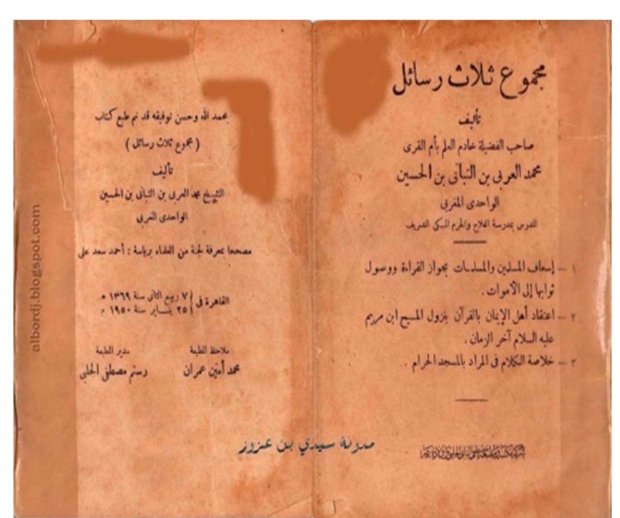
(45) نفسه: ص45.

(46) تربـــو علـــى الخمســـين. (انظـــر: الكتـــاني، فهـــرس الفهـــارس، 1/ 105). بينما بلغت عند "بلهاشمي بكار" نحو مائة واثنين وثلاثين تأليفاً. (انظر :حاشية رياض النزّهة، ص 13)

(47) انظر / الحافظ التنسي.

ملحق المداخلة:





مجموع ثلاث رسائل

تأليف

صاحب الفضيلة خادم العلم بأم القرى

محمد العربى بن التبانى بن الحسين

الواحدى المغربى

المدرس بمدرسة الفلاح والحرم المكى الشريف

١ – إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات.

٢ – اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسيح ابن مريم عليه السلام آخر الزمان.

٣ – خلاصة الكلام فى المراد بالمسجد الحرام.

بحمد الله وحسن توفيقه قد تم طبع كتاب

(مجموع ثلاث رسائل)

تأليف

الشيخ محمد العربى بن التبانى بن الحسين

الواحدى المغربى

مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة : أحمد سعد على

القاهرة فى ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٦٩ هـ
٢٥ يناير سنة ١٩٥٠ م

ملاحظ المطبعة: محمد أمين عمران

مدير المطبعة: رستم مصطفى الحلبى